ياسمينة خضرة

الكاتب

رواية



منشورات البرزخ

الكاتب

لنفس الكاتب :

Le Dingue au bistouri, Laphomic, Alger, 1990 ; Flammarion, 1999.
La Foire, Laphomic, Alger, 1993.
Morituri, Baleine, Paris, 1997.
Double Blanc, Baleine, Paris, 1997.
L'Automne des chimères, Baleine, Paris, 1998.
Les Agneaux du Seigneur, Julliard, Paris, 1998.
À quoi rêvent les loups, Julliard, Paris, 1999.
L'écrivain, Julliard, Paris, 2001.
L'imposture des mots, Julliard, Paris, 2002.
Les hirondelles de Kaboul, Julliard, Paris, 2002.
Cousine K, Julliard, Paris, 2003.
La part du mort, Julliard, Paris, 2004.
L'attentat, Julliard, Paris, 2005.
Les sirène de Bagdad, Julliard, Paris, 2006.

بم تحلم الذئاب، ترجمة : أمين الزاوي، دار الغرب 2002.



العنوان الأصلي :
Titre original :
" *L'écrivain* "

الناشر الأصلي :
Éditeur original :

الإيداع القانوني : 2560-2007
ردمك : 978-9947-851-02-9

ياسمينة خضرة

الكاتب

رواية

ترجمتها من الفرنسية : إنعام بيوض

منشورات البرزخ

إلى أشبال الثورة
مع كلّ تعاطفي

تهاطلت الأمطار طيلة الليل، والشمس المشرقة المتماطلة تعبّق البساتين بالسديم. كان صباحاً مطابقاً لسابقيه، يكاد يماثلها بدائية، كأخدود حرث. أخذ الغمام ينقشع عبر التلة مثل فصيل أشباح يتراجع أمام تقدم النهار. والعالم يستيقظ على زقزقة العصافير وحفيف الأوراق الميتة التي تلتف حول منابت الأشجار كما لو كانت ترفض أن "ترحلها" الريح. تناثرت هنا وهناك، أكواخ تلوّح بأوشحة شاحبة من فوق مداخنها. بدت وكأنها تومىء بإشارات وداع. كنت أرنو إلى السماء التي تخلت عن نجومها، والدروب التي تلحس أخاديدها والجبل في الأقاصي يحجب وجهه خلف الرمدة. وأنظر إلى البخار المتعرق لزجاج النافذة وهو يورّم بالكدمات انعكاس صورة وجهي عليه. كان لعيني مطلق الحرية في أن تتعلقا بالسرو، وبالروابي، وبالأنهار، وبالجسور، وبالسياجات، لكن ذلك لم يكن ليمنعها من الابتعاد. ليس للأعين سوى الدموع لتحبسها...

كنا قد غادرنا وهران منذ أكثر من ساعة، ولم تنفرج شفتا والدي ولو مرة واحدة. في هذا الصباح من خريف 1964، في حين كانت "البيجو" تلثغ الأرض على الطريق المضنية لتلمسان، كان يقود في صمت، مشرئبّ العنق، آلي الحركة. وأبي يلتزم الصمت هكذا عندما يكون حزيناً. تتجهّم سحنته كمخزون ماء مرت به سحابة. بمجرد أن ينطوي على نفسه، يتبطّن عالمه بالحلكة، ويصبح من المستحيل تحديد موقعه.

في العادة كان لا يعجز عن إيجاد إيماءة تجعلني أنفجر ضاحكاً، لأن ضحكتي كانت تجلجل في نفسه كغناء شلال يرطب مزاجه ويسوط أناه بماء مطهر.

كنت كل فخره.

كان يحبني إلى درجة الخبل.

وأعتقد جازماً بأنه أحبني فوق كل اعتبار.

كنا قريبين جداً من بعضنا البعض. كنت أفتقده عندما يذهب للعمل ؛ وعندما يعود يهرع ليرتمي علي ويقذفني بوابل من اللكمات العطوفة بسعادة عارمة تجعلني أقدر حق التقدير إلى أي مدى كان يشتاق إلي بمجرد أن أستدير...

كنت أحبه بقدر ما كان يحبني. وأتسامى حين أرفع عينيّ نحوه. أراه وهو يمشي متكئاً على عكازه، فقد كان يعرج بسبب رصاصة في الركبة. بالنسبة لي، كان يتبختر. كان أكثر الرجال وسامة ويبدو لي من العظمة بحيث كنت أخاله إلهاً...

لم يأخذني إلى كل هذا البعد عن سعادته؟

كلّما حطّت نظراته علي، يخطفها في الحال.كنت أحس وكأنه على قيد أنملة من الإقفال راجعاً بي إلى بيتنا. كانت يداه اللتان تعانقان المقود تكشفان ستر المعركة التي تدور رحاها في أعماق نفسه، والشك الذي يؤلبه بتعنت مسألة ضمير. مع أنه كان من المفروض أن يكون فرحاً : فهو يأخذني إلى مدرسة الأشبال، مدرسة مرموقة يتلقى فيها الطلاب أفضل تعليم وأفضل تكوين، مدرسة ستجعل مني في المستقبل ضابطاً، قائد فرق عظيم أو حتى،ولم لا ، سيداً من أسياد الحرب وبطلاً...

على المقعد الخلفي، كان قادر ابن عمي الصغير ينام تحت وطء المنعرجات اللامتناهية التي تتلوى وسط الكروم والروابي.

من بعيد، أشعل راعيان ناراً وجلسا القرفصاء مشهرين راحتيهما للجمرات المحرقة. وفي مكان أوطأ، بالضبط حيث يولد السهل، يفرّ حصان تطارده ثلاثة كلاب جائعة ينزلج نباحها على المنحدر قبل أن يسحقه هدير "البيجو". من جهتي، كان يخيل إلي بأني أتضاءل داخل بزتي الجديدة الخلنج التي اشتريت البارحة من دكان فخم بشارع أرزيو... كنت قد بلغت التاسعة من عمري ولدي من الحدس ما يكفي لأستشف بأن الأيام المقبلة لن تشابه أبداً تلك التي سبقتها.

عَبَرتْ ضيعة بن سكران حيرتي بسرعة لهب الهشيم. ما يكفي من الوقت كي ألمح فلاحين جالسين حول طاولة في دكان صغير، والروابي المدملة، وسجود الأشجار، والتواء المنعرجات التي تفتكّ من عجلات السيارة حشرجات نشاز. وأمامي كان الراديو يحرد في صمت وبيل. مع أنه البارحة فقط، بينما كان أبي يأخذني في نزهة عبر شوارع شوبو، كان يتفل أغانٍ شرقية. اعتاد أبي أن يشعل الراديو قبل تشغيل المحرك، يترصد الأخبار، ويترقب اسكتشات بويقرة، وينتشي طرباً حين يقع على داليدا وهي تغني يا مصطفى. كان رجلَ صخبٍ وفنطزية، قادراً على الاستغراب ضحكاً حتى في غرف الموتى. وحين أوصلته الحرب إلى الوعي بأنه فانٍ، جعلته يكتشف على الخصوص مدى حظه. لقد خرج منها سالماً فعقد العزم على أن يقضم الحياة بنهم الناجين بأعجوبة.

في ذلك اليوم، أدار المحرك دون أن يعير أدنى التفاتة للراديو.

كان مشغول البال.

في لحظة ما، تركت يده عتلة السرعة لتدنو من ركبتي. أعادت الكرة مرتين قبل أن تخاطر بربتة صغيرة على فخذي ؛

ربتة طفيفة، أربكها عجزها عن التريث حيث كان من المفروض أن تخفف عني.

أنبتني أمي قائلة :

— دللوك كثيراً. لن تصلح لشيء هنا. أنت لا تعرف حتى أين توجد مدرستك، غائب دوماً ورأسك في السحاب. وفوق كل هذا تدخن خفية. لا داعي للكذب، لقد وجدت سيجارة في محفظتك. إحمد ربك أني لم أنبس ببنت شفة لأبيك. لكان سلخك حياً.

لكان شد أذني. لا غير.

صفعني مرة واحدة فقط. في الدار البيضاء.كنت قد ذهبت إلى الجرف لأتأمل المحيط. دون أن أخبر أحداً. بحث عني في كل مكان، مؤلباً الحي برمته. في المساء، عند عودتي، وجدته واقفاً أمام المنزل، ممتقعاً وقد استبد به القلق. يده سبقت تفريجه. لم أبك. ضمني بين ذراعيه وراح يجهش بالبكاء في شعري.

لم يرفع يده علي بعد ذلك إطلاقاً.

إن كان لي أن أرسم وجهاً للقلق، فسوف يكون حتماً وجه أبي. وهذا ينطبق على النحس أيضاً. فقد كان أبي بارعاً في القبض على الحظ ليتركه ينسرب بين أصابعه بكل بلاهة.

كان خاسراً كبيراً.

الفصل الأوّل

أسـوار المشـور

والغد، ماذا يحمل الغد للكلب الحذر،
الذي يدفن العظام في الرمل وهو يتبع
الحجاج إلى المدينة المقدسة؟
جبران خليل جبران "النبي"

1.

لم يرافقنا أبي إلى المدرسة. ما أن قطعنا الأزقة الأولى لتلمسان حتى تراخى تصلبه، وصارت سياقته عصبية. أَخذ يلعن المشاة، ويلزّ على سائقي السيارات، وتزبّد صماغاً فمه فجأة بإفراز ضارب إلى البياض. شيء ما كان قد انقطع في نفسه على التو، جاراً مع ركامه هيئة يسعى جاهداً أن يخفي وينفي وراءها تصدعاته. كان أبي يعتني بمظهره بسبب طفولة تعيسة. هو الذي علمني ألا أصدق المزاج الطيب دون تشكيك، وأنه غالباً ما يأخذ الضحك، لأنه نشاز، شكل قهقهات بغرض التمويه.

على المقعد الخلفي، كان ابن عمي يفرك عينيه. سأل أين كنا ولم ينل من رد سوى دمدمة. تحايلت السيارة على عدة أزقة غاصة بالمتسكعين قبل أن تتوقف أمام عمارة كدماء ووسخة. استقبلنا الرقيب كرزاز في صحن الدرج، وشد على يد أبي مصافحاً بقوة، ثم دعانا إلى الدخول إلى الشقة. أُجلست وابن عمي حول مائدة قزمة كانت تنتظرنا عليها وجبة : سلطة ودورق ماء صغير ووعاء حساء مملوء بمكمورة عاقدة، أُنفرت روائحها شهيتي في الحال. فضل أبي التحدث مع الرقيب في الدهليز. كان ظله يرسم على الحائط حركات مُحْرِجَة. وهو يتكلم بصوت خفيض. والرقيب يعطينا ظهره، ويهز رأسه وهو يكرر : "حاضر سيدي الملازم". إثر محادثة مقتضبة وخافتة، أزّ الباب قبل أن ينغلق بهدوء. عاد الرقيب

إلينا بسحنة خالية من أي تعبير، وقال : "كلوا بسرعة، يجب أن نكون في الموعد". ملت جانباً لأرى ما إن كان أبي لا يزال هنا. لم يكن يوجد أحد في الدهليز. كان قد غادر متسحباً دون حتى أن يقبلنا. أنا، وددت فقط لو أنه كلمني للحظة، ويداه تربضان على كتفيّ بإحكام، أو أن تعبث أنامله بشعري وهو شاخص في عيني. لن يكون ذلك كافياً للتخفيف عني، إلا أنه ربما كان سيكفي، في غمرة ابتسامة، لمواساتي عن فراق كان بمثابة قطيعة وتقطيع أوصال على السواء.

كان الرقيب كرزاز رجلاً مستعجلاً. في غمضة عين، لبس بدلة التدريب العسكري ولمع جزمته ودعانا لأن نتبعه. لم يكن قد سنح لي أو لقادر بعد متسع من الوقت - ناهيك عن الشجاعة - للمس كسرة واحدة. تقفينا خطاه بصمت، مكرهين على الإسراع للحاق به. كان مرشدنا، الذي تنحدر أصوله من أغوار الجنوب، يمشي بسرعة كبيرة مثل كل أهل الصحراء. بعد اجتياز بعض الأزقة فوجئنا بأنفسنا ونحن نجري وراءه. لم يلتفت ولا مرة واحدة باتجاهنا. اكتفى بتطويل فسخاته مقوساً منكبيه على سحنة لا تسبر. كان الناس من حولنا يزاولون أشغالهم في جو من الفوضى الصاخبة.هجمت النساء المتلحفات والفلاحون المعتمرون العمامات على بسطات الباعة المتجولين. كان صياح أصحاب الدكاكين مضافاً إلى صرخات الأطفال يضفي على السوق ابتهاج احتفالية الأعياد. عبّقت حرارة خفيفة عالمها بمعانقة من الحنان بحيث تخالها إنسانية. كنا وكأننا في الربيع. كان يوماً جميلاً للتنزه والتنطط. وكان الرقيب كرزاز من جهته يود أن يظهر بمظهر غير العابئ بالبهجة المحيطة به، شاقاً طريقه عبر ثغرات الحشد، غير مبالٍ، شبه سائم. في

إحدى الساحات، كانت زمرة من الصبية تتعافر مع كرة من الخرق وسط صياح بلوري. يلعبون بحزم للاقتراب من مرمى الخصم، مشنجين ربلاتهم في كرّ وفرّ هستيري، مطلقين العنان لغبطتهم العارمة حالما يدفع أحد المراوغين الخصم ليهرول بعيداً، أو تصيب رمية هدفها. توقفت، دون أن أتفطن، لحضور المباراة. ذكرني الرقيب وهو يتابع سيره : "سوف نتأخر". اضطر ابن عمي لأن يسحبني من ذراعي ليثوّبني إلى وعيي. كان ذلك وكأنه اقتلعني من حلم رائع. قاومته بمأق وأنا مغتاظ من حركته المكدِّرة. وغص صدري برغبة في الإقفال راجعاً والاختفاء في الزحام. كنت أريد أن أرجع إلى حضن أمي، وأسترد عاداتي الصغيرة وجيراني وأصدقائي. عاد الرقيب على أعقابه مكرهاً. وانغلقت يده بجفاء حول معصمي. وبهزة واحدة، زعزعني من رأسي إلى أخمص قدمي وجرجرني إلى أن وصلنا أمام الباب الحديدي لقلعة ضخمة ذات أسوار عالية مكسوة باللبلاب. فتح لنا جنديان يقومان بالحراسة باباً صغيراً شقّ من صلب الباب الكبير، وتبادلا التحيات مع الرقيب دون الاكتراث بنا. عندما استدرت، رأيت الباب ينغلق بلا رحمة على العمارات والسيارات والناس والضجيج؛ راودني شعور بأن العالم الخارجي الذي يمّحي هكذا أمام ناظري يمحوني أنا أيضاً ؛ وبأن صفحة قد قُلبت لتوها اعتباطاً وإلى الأبد. كنت من الحيرة بشكل جعلني أجفل عندما أسقط الجندي المزلاج.

توقلنا درباً محفوف الجانبين بأبنية قديمة ومتقلصة. أشعرني قرميدها الذابل وسقفها المبعوج في بعض الأماكن ونوافذها الفاغرة وكذلك واجهاتها ذات البياض المنكّد أشعرني بالغربة قبل الأوان. لم يكن الأشخاص الذين يحومون هنا وهناك،

بعضهم بمآزر حائلة وآخرون ببدلات المعركة، يشبهون الناس الذين يأهل بهم حيّ بوهران. كانوا يبدون منشغلين أو عابسين، ويتنقلون دون نزع تبويزهم المضني، لم يكونوا حتى ليتبادلوا التحية. لم يكن هناك سوى عريف مكرش ممسكاً بحزامه وهو يكيل الشتائم لمجموعة من السجناء الذين يدل عليهم زيهم المبهدل ورؤوسهم الحليقة. كان هؤلاء منهمكين في القيام بسخرة القطاع : يجمعون القضلات بأيديهم العارية ليرمونها في عربة يد نوّاحة، يجهد سجين آخر، نحيل ومحموم، بدفعها على الأرض المحصاة. بعد قليل، وصلنا إلى فناء شاسع تؤطره أشجار الدُلب الضخمة. هناك، كان يقوم صبية متحزمون على بدلات خضراء ضاربة إلى الزرقة باستعراض. كانوا كلهم يعتمرون الكمّات، لكنهم لم يكونوا يلبسون نفس الأحذية. بعضهم ظهر بأحذية واطئة وآخرون بنعال. كانوا منقسمين إلى ثلاث فرق، يمشون بخطوة عسكرية وأذرعهم تدق الإيقاع، بظهور منتصبة وذقون شامخة. مقابل التشكيلة، انتصب مساعد أول عجوز فوق مصطبة معيّناً النغم بأعلى صوته، وعينه تترصد أدنى حركة شاذة، ولسانه يتأهب لكيل السباب الصاعق. عندما رآنا قادمين، كلف مساعده بمتابعة مسيرة الاستعراض، وقفز على الأرض وجاء لملاقاتنا. ذهلت عندما رأيته، حين وصل إلى مستوانا، يخرج طقم أسنان من جيبه ويدخله في فمه، ثم يمسح شفتيه بظهر يده ويتفرّس بي وبابن عمي. بعدها سأل الرقيب ما إذا كنا أولاد الملازم حاج. جاءه رد بالإيجاب.

— كنت أنتظرهم في الصباح، لكن لا عليه. سوف تريهما سريريهما حيث يمكنهما أن يرتاحا. في هذه الساعة، الحلاّق مشغول. سوف يمكثون مع المجندين الجدد. غداً، يمرون

تحت الجزازة، وبعدها تحت الدوش. لم نستلم بعد بدلات جديدة. فليحتفظوا بملابسهم الشخصية إلى إشعار آخر.

— حاضر سيدي.

إبتسم لنا المساعد الأول العجوز، متحاشيا إظهار أي حركة ودية تجاهنا. كان قصير القامة متوثّب الهيئة، ذا وجه أسمر قاتم ونحيل كمشته الخرجات الجبلية. كان يبدو وكأنه يسبح في سترته، إلا أنه كان يوحي بأنه شخص متصلب ذو طاقة لا تُقهر. وقبل أن يعود لمطاردة فصائله، نزع طقم أسنانه ووضعه في جيبه. فتهدّل فمه بأسى جعلني أرتعش.

قادنا الرقيب إلى داخل البناء الذي يطل على فناء المدرسة. مبنى مقشر وقميء، يبلغ عرضه حوالي المائة متر. يولج إليه من باب ضامر يؤدي إلى ممر طويل وضيق، تعوزه الإنارة وتنبعث منه روائح البول. كانت توجد في الطابق الأرضي أقسام صفت فيها طاولات ومقاعد. تتأرجح على جدرانها ذات اللون الرمادي المحير، رسومات تمثل مشاهد من حكايات لافونتين. علق فوق المنصة، بمسمار في وسط السبورة تماماً، كسوة رأس من الورق المقوى تعلوها أذنان لحمار يفترض أن تتوج،للمدة التي يستغرقها درس، التلميذ البليد لذلك اليوم... صعد الرقيب إلى الطابق الأول، وهو يتحقق في طريقه من خطورة الصدوع المحدثة على الدرابزين، لافتاً انتباهنا إلى الدرجات الواهية للسلم. وصلنا إلى قاعة كبيرة تضيئها نافذة عشواء، عيّن لنا سريرين فارغين وبدأ يشرح لنا بسرعة كيف نستعمل الشراشف والأغطية بشكل يمكننا من أن ننجح في الحصول على "سرير مربع" طبقاً للأعراف السائدة في الثكنات. فرد أول غطاء على الفراش

بمنتهى العناية، ثم بسط زوج الشراشف التي مسدها بحرص بالغ، ووضع فوقها الغطاء الثاني الذي دسّ أطرافه تحت الفراش، وعدل المخدة ورتب بمهارة جوانب السرير وخطا إلى الوراء لتأمل صنيعه، قائلاً بإلحاح : "ينبغي أن يشبه سريركم صندوق ذخيرة، بزوايا قائمة وسطح منبسط كلوح خشبي، وينبغي أن يدار الشرشف العلوي نحو الخارج بهذه الطريقة تماماً. أحذركم بأنه لو وُجدت أدنى تجعيدة، فإنّ المدرب سوف يرمي كل شيء على الأرض، وسوف يلكز مؤخرتكم إلى أن تتوصلوا إلى تقديم سرير مسحوج تمام السحج". هزّ ابن عمي رأسه، وهو بعيد عن تقدير صرامة التعليمات. أما أنا، فقد كنت أريد أن أعود إلى البيت دون تأخير.

طاف بنا الرقيب في أرجاء إقليمنا، ودلنا على استراحة الجنود دون أن يشرح لنا ما تمثله، لكونها كانت مغلقة، وحدد لنا قطاعنا لأنه فيما وراء بعض الحدود يمكن أن نتوه داخل معسكر الجنود وهو أمر غير مقبول قطعاً. كما لقننا درساً حول مختلف السلوكات التي علينا اتباعها في حال ما إذا وجدنا أنفسنا منعزلين، وإلى من نتوجه عندما نلاحظ خللاً ما، وكيف نتعرّف على مدرب حتى لا نثق بمن هب ودب. قبيل انتهاء العشية، اصطحبنا إلى باحة صغيرة بها صبية بلباس مدني يتملكهم السأم. كانوا مجندين جدداً وصلوا قبلنا ببضعة أيام. أغلبهم من يتامى الحرب، دون معيل أو حتى اسم عائلي، فوجئوا وهم يهيمون في الطرقات، أو التجأوا إلى جيران حال فقرهم المدقع دون التكفل بهم. كان بعضهم يلبس أسمالاً وقد تشققت أقدامهم، والبعض الآخر مشعّث الشعر أرمص العينين، تعلو أنوفهم بزاّقات متململة. لكن كانت تسكن في نظرات الجميع حيرة مؤلمة، كما لو أن السماء سوف تطبق

على رؤوسهم. اقترب أحدهم منا وقد أثار لباسنا عظيم فضوله لكي يتفحصنا عن قرب. مسد سترتي بيده المتورمة بالتشققات، وتريث عند تفصيلتها : تراجع خطوة وصرح بصوت مبهور، بأنه كان يظن بأن لبس البدلات يقتصر على الكبار فقط، وأنه فيما عدا الحاكم الفرنسي الذي كان يسير شؤون قريته إبان الحرب، لم ير عربياً واحداً مهندماً بهذه الطريقة، فكيف إذا كان ولداً صغيراً. قال له مراهق بأننا ربما كنا من أولاد البورجوازيين. عاد الآخر إلى مكانه دون أن يزيح نظره عنا، وهو غير قادر على تصديق فكرة أن أولاد الأغنياء يمكن أن يهبطوا إلى هذا الدرك الأسفل. انسحب الرقيب كرزاز ووعدنا بالعودة في اليوم التالي. رأيناه وهو يبتعد على حين غرة. في اللحظة التي اختفى فيها وراء حائط صغير، تهاوى ابن عمي على الأرض ودس رأسه بين ركبتيه وراح يبكي وينادي أمه. لم أكن قادراً على الجلوس بقربه ولاحتى على التحدث إليه. كان حزني أكبر من أن يسمح لي بالاهتمام به...

دوّت صفارة من بعيد. أعلن لنا صبي يلبس بدلة عسكرية بأن وقت العشاء قد حان. وذهب المجندون الجدد لتناوله. قلت ناصحاً لقادر :

— إذهب معهم.

— وأنت ؟

— لست جائعاً.

— هل تريد أن أحضر لك كسرة خبز معي؟

— لا داعي لذلك.

لم يلح قادر علي وأسرع إلى اللحاق بالآخرين.

وجدت نفسي وحيداً، والشمس تميل إلى الغروب خفية، وكأنها كانت تسعى بدورها إلى هجري. اتخذت مكاناً على

مصطبة وأدرت ظهري للساحة ولصليل الشوكات الذي مالبث أن ارتفع من المطعم. انحنى كتفاي وناءا تحت كاهلي. ساورني إحساس بأن روحي تتنمل. وببطء، دسست قبضتي في جوف بطني، لتسكين الجوع والدوار اللذين ألمّا بي، وجابهت الليل...

قبل سنة من هذا التاريخ، أخذنا أبي في رحلة استطباب إلى بوحنيفية وهي محطة استحمام معدنية على بعد بضعة كيلومترات من معسكر. كنت أنزل في الصباح إلى النهر لأرى المصطافين وهم يسبحون. كانوا يقفون على أعلى صخرة، مثل قدوات فتية، ويطلقون صرخات حرب ثم يقفزون في الفراغ. كنت مبهوراً بالغطسات التي يرتجلونها، كل حسب جسارته. ذات مساء، وبينما كنت أحلم على الضفة المقفرة، دنا مني رجل قد لا يتجاوز الثلاثين من عمره، يبدو كيّساً ولطيفاً. وعين لي شجرة تشرف على الواد، ودعاني لأن أظهر شجاعتي. قلت له بأني لا أتقن السباحة، لكنه وعدني بأنه سيسهر على سلامتي ولن يصيبني مكروه. آل بي الأمر من فرط إلحاحه إلى الصعود فوق الغصن. كان الماء المتوحل المطبطب على بعد ثلاثة أمتار للأسفل يملؤني فزعاً، لكن كفة الابتسامة الودية للشخص المجهول هي التي رجحت. فأغمضت عيني وقفزت. بعد بضع تخبطات يائسة دون أن يحدث شيء، بدأ الهلع يتملكني. بقي الرجل مقرفصاً على المنحدر وذراعاه حول ركبتيه. كان يبتسم وهو يراني أغرق. لن أنسى ما حييت وجهه الملفوف بالسكينة، وعينيه المبتهجتين بمحنتي. كلما هاجت صرخاتي، كلما اتسعت ابتسامته. فهمت ساعتها بأنه لن يحرك ساكنا لنجدتي. بدأ الماء يلتف من حولي ويشفطني في دوامة دوارية. وفي اللحظة التي كنت فيها على وشك الغرق، نهض الرجل وسار

باتجاه الرابية وكأن شيئاً لم يكن. ولم يكن لابن عمي حُمينة، الذي كان ماراً من هناك بالصدفة وأخطرته صرخاتي، سوى ما يكفي من الوقت لانتشال يدي.

في ذلك اليوم، في مدرسة الأشبال، ذكرني الليل الذي رمى بردائه الأسود فوق رأسي، بالواد وهو يشفطني، مؤججاً مدى وحدتي. استأثر بي الهلع من جديد ؛ شعرت بأني أغرق، شعرت بأني أموت...

نفخ جندي في بوق معلناً إطفاء الأنوار. كان كل صوت من خواره يخترقني من الطرف إلى الطرف كطعنة سيف. ونصحني وهو يضع آلته تحت ذراعه :

— قم من هنا يا صغيري ، وانضم إلى رفقائك في المرقد، واحرص أن تتغطى جيداً ، فالليل سيكون بارداً.

كنت أتقاسم المهجع مع ما يقارب العشرين طفلاً من ذوي النوم المضطرب. ناجين من مجازر، لا تفتأ كوابيسهم تلحق بهم مع أدنى هفوة نعاس. كان البعض منهم يبكي وقبضته في فمه، والبعض الآخر يصرخ ثم يعود ليغط في نوم عميق. لكن لم يكن ذلك ما يسهّرني. كنت أفكر في أمي، وفي إخوتي وأخواتي، وفي حيي وفي البقال القريب، وفي كلبي ريكس، وفي الأصوات المألوفة وفي حاجبات أختامي. كنت لا أكف طوال ساعات عن التحديق في النافذة... في الخارج، كانت السماء مرصعة بالنجوم، والقمر المتلألئ في منتهى غصن، يسعى لإقناعي بأن الشجرة مزكومة...

— لا أطيق التكرار. عندما أقول انهضوا ، أريد الجميع على استعداد بجانب السرير قبل أن أنهي زعيقي.

بغتةً، حدث زلزال. أدركت بشكل مبهم بأن هبة عاصفة قذفتني إلى مكان ما. دار السقف ووجدت نفسي مطروحاً على الأرض

ووجهي ملتصقًا بالبلاط، نصف دائخ، مردومًا تحت فراشي.وقد تثبت زوج من الأحذية العالية المضحكة فوق أنفي. انحنى جندي لكي يريني سحنته المستشيطة غضباً :

— أتحسب أنك لازلت في حضن أمك الحنون، أيها الغرّير المريّل؟ اخرج من هنا (فيسع) في الحال إن أردت ألا تأخذ حذائي على مؤخرتك.

نهض وهو يصرخ في وجه الأشبال الآخرين، ثم غادر المهجع كالعاصفة. جاء ابن عمي لنجدتي. دفع جنباً السرير الحديدي الذي كان يسحقني، أزاح الفراش وساعدني على الخروج من تحت "الأنقاض". كان رفقاء المهجع من حولي ينهون طيّ أغطيتهم غير مبالين. سألت قادراً :

— ما الذي حدث؟

— الجندي قلب سريرك.

شرح لي ولد ربيل قائلاً :

— هذا الشخص شكس الطبع، عندما يصفق بيديه، لا ينبغي لأحد أن يتلكأ في سريره. والذي تسول له نفسه التباطؤ في تنسم وسادته سيكون جزاؤه الشقلبة.

— لم أكن أعرف.

— حسناً، الآن أنت تعرف. الأولى بك أن تلبس بدل طرح الأسئلة. التجمع بعد خمس دقائق.

كان الظلام لا يزال مخيماً عندما نفخ البوق إيذاناً بالتجمع. هرع الأشبال نحو السلالم ونهبوا الدرجات نهباً، وجروا للانتظام في صفوف متراصة في الفناء حيث كان المدرب ينتظرهم متأهباً. بما أنني لم أكن أعرف إلى أين أذهب، شققت طريقي إلى مكان ضمن أحد الفصائل. بسرعة، خرجت أذرع من كل جانب لتدفعني خارج المربع. تفطنت إلى أن كل واحد

كان له مكانه المحدد، وما من أحد كان على استعداد للتخلي عنه. لاحظني عريف من بين الجمع. أشار بإصبعه إلى ركن انضم إليّ فيه ابن عمي والمجندون الجدد.دوّت الأوامر في الحال : "استرح. في الصف... لا تتحرك. أنت، الرقم 53، كفّ عن الهيجان وإلا سلخت جلد مؤخرتك بإبزيم حزامي... تفتيش الأعداد" ... أخذ المدربون يعدون صفوفهم، معدّلين رقبة من هنا، زاجرين عاصياً من هناك، وراحوا يصرخون الواحد تلو الآخر : "السنة التحضيرية، حاضر... السنة الابتدائية الأولى، حاضر... السنة الابتدائية الثانية، حاضر... السنة المتوسطة الأولى، حاضر... السنة المتوسطة الثانية، حاضر" ... بعد التأكد من عدم تسجيل أي غياب، صفق المساعد الأول بيديه. فطفقت الفصائل تتنطط مراوحة، وركباتهم تصل إلى صدورهم ؛ بعدها، هرع التلاميذ واحداً بواحد، وصفاً بصفٍ نحو المطعم حيث التهموا أكواباً من القهوةٍ الساخنة مصحوبة بشطائر من الخبز المطلي بالزبدة، قبل أن أتمكن حتى من تحديد موقعي من هذه الحركة الجماعية.

بعد تناول الإفطار، قادني الرقيب كرزاز مع ابن عمي إلى جحر فئران أعد على شكل قاعة حلاقة. أجلسني رجل محصور في مئزره الملطخ على كرسي مقابل مرآة مغبرة، وراح يجز شعري انطلاقاً من جهة القذال إلى الجبين وهو يدندن بنغمة أندلسية. كانت لكنته الصائتة وبشرته المرمرية تفضحان أصوله التلمسانية العريقة. يجز مجرداً من كل إحساس وكأنه راعٍ يجز خروفاً. كان ذا شعر يخطه الشيب، يلتف حول خصلة زازو، حاد التقاطيع بفم تشوهه أسنان كبيرة مصفرة ينفذ منها بخر نتن. كان يبدي شغفاً بجزازته يماثل شغف النحات بإزميله ؛ والباقي

- حركاته الخرقاء والأنّات التي تقتلعها مني - لا يعنيه إطلاقاً.لم يكن منزعجاً إلا من جفلاتي. كلما اضطرتني عضة إلى الارتداد جانباً، يجعلني اعتدل بضربة على الرأس يرومها آمرة وقوية في آن. كان من الجلي أنه لا يحتمل الصغار. وسرعان ما أخذ رأسي، بعد ذهاب وإياب تصريفي، شكل حصاة ملساء. لم أتعرف على نفسي. تغير شكلي تماماً. نزع الحلاق عني المنشفة دون أن يكلف نفسه عناء نفض خصيلات الشعر عن كتفي، واجتثني من الكرسي مشيراً إلى قادر بأخذ مكاني. تسمّر ابن عمي على المقعد وقد أفزعته قرعتي. وبدأ برفض الأيدي الممتدة إليه، ثم تمسك بمقعده وحاول أن يقاوم ذراع الرقيب. أمسكه الحلاق من ياقته كمن يمسك رزمة، وكوّمه فوق الكرسي بيد صارمة بينما أسرعت الأخرى تصلع صدغيه. عند خروجنا من قاعة الحلاقة، تفرّس كل واحد منا في الآخر بحزن، وانفجرنا، هو بالبكاء وأنا بالضحك. كنا نبدو كصغيرين محكوم عليهما بالأشغال الشاقة يتأهبان للالتحاق بسجنهما. لم ير الرقيب داعياً لمواساتنا. في مكان ما من أغوار حدقتيه، كان يشفق علينا، لكنه لم يبح لنا بذلك. لم يرزق أطفالاً، لذا كان لابد أنه يجهل كيف يتعامل معهم. آل ابن عمي إلى كفكفة دموعه. مرر، بحياء في البداية، يداً وجلة على جلدة رأسه ولم يجد سوى صلعة تنتصب فيها شعيرات صغيرة شائكة. وجهت له تكشيرة على أمل ممازحته. ردّ علي بتقطيبة، لكنه أثلج صدري حين استغرق بدوره في قهقهة رامياً برأسه إلى الوراء ومشيراً بإصبعه نحو حجر الخفاف الذي يزين رقبتي، وقال : "إنك تشبه جنياً". فأجبته موضحاً : وأنت أيضاً. بعد ذلك تبعنا الرقيب إلى الدوش يداً بيد، ربما لكي نتخلص من كل ما كان يجعل منا، قبل يومين ماضيين، أطفالاً كالآخرين.

بعد الظهر، جمعونا في باحة صغيرة مع المجندين الجدد، وكتبوا أسماءنا وألقابنا في سجل، وصفونا حسب الطول، الأقصر في الأمام، ثم رقّمونا.

بعدها انبرى مساعد طويل القامة وهزيلها، ذو أسنان ملبسة بالذهب، ولا يكف عن تمسيد حبل صفارته وهو يراقبنا بالورب، في إسداء التعليمات قائلاً:

— اعتباراً من اليوم سوف تعرّفون برقم تسجيلكم بدل هويّتكم. انتهى زمن الألقاب والكنيات. انتهى زمن المقالب والتدلل، من الآن فصاعداً، أنتم جنود، ويجب أن تتصرفوا كجنود. العديد منكم ليس له عائلة ولا بيت ولا مرشد. هؤلاء زال غمهم. سوف يجدون لدى مدربيهم ما سلبته منهم الحرب. ستسهر مؤسستنا على ألا ينقصهم شيء. هذا ينطبق على الآخرين. أنتم جميعاً سواسية، لا فرق بين غني وفقير، بدوي وحضري، يتيم أو ابن عسكري. لن نفضل أحداً على حساب أترابه. وفي المقابل، نطلب منكم الانضباط والطاعة المثالية والاستقامة التي لا تلين. هنا، نحن نكوّن الرجال، رجالاً حقيقيين وشجعانا، أهلاً بالشعب الجزائري، شعب المليون ونصف شهيد الذين لن تهدأ أرواحهم إلا عندما نثبت لهم بأن تضحياتهم كانت أفضل الاستثمارات.

أعطي لابن عمي رقم التسجيل *122*، وأنا *129*.

بعد يومين، وزعت علينا بدلات خضراء زيتية، وكمات وصدريات، وأحذية عالية للأرجل الكبيرة ونعال مطاطية للصغيرة. عندما ذهبنا لتأمل منظرنا في مرآة حائطية، اكتشفنا جنودا صغاراً من الرصاص في منتهى الروعة، وهم يتمرنون على تصليل رقم تسجيلهم برفع يدهم إلى الصدغ في

تحيات لا تشوبها شائبة. كنا نتألف من رقم التسجيل *19*، ورقم التسجيل *43*، ورقم التسجيل *72*، ورقم التسجيل *120*، فقط لا غير. كففنا عن الوجود لأنفسنا...أصبحنا أشبالاً، أي أطفال الجيش والثورة بالتبني.

2.

لست أدري إن كنت قد عانيت فوق طاقتي من الأسر. كنت لا أزال طفلا. بالنسبة لي كانت الحياة هكذا. إذا لمْ يكن بوسع الكبار حيالها شيء، فما بالك بالصغار؟ كان علي أن أرضخ. فعمري وقامتي ذات المتر وثلاثين شكّلا ذرائع مقبولة. كان لدي الحق في الإذعان.

وبضعة أسابيع كانت كافية كي يطوّعني النظام.

لم أعد أشعر بالحاجة إلى الحَرَد أمام الباب الكبير ؛ وتوقفت عن انتظار تداعي الأسوار الشاهقة للقلعة كي أسترد حريتي. لكثرة ما رأيت الأشبال الآخرين يخلقون عالمهم الخاص، ويضربون على كرات من الخرق وهم يصرخون، بدأت شيئاً فشيئاً اندمج في ألعابهم. لم يكن من المجدي أن أنعزل وأن أندب حظي التعس. ولم يكن لأشجار الدُّلب الضخمة ما تكرسه لي إلا صمتها. كان بوسعي أن أفرك أصابعي في رُكن منسي لساعات طوال، وبوسعي أيضاً أن أتضرع إلى الأولياء الصالحين للبلد برمته، إلا أن نافخ البوق كان سيدركني لامحالة. وكان علي، حينئذٍ، أن أدس أدعيتي بلَهْوَجَةٍ، وأن

أسرع للانضمام إلى فصيلتي، حيث لم يكن من صالحي أن تُكرر علي الأوامر التي تتهاطل من كل جانب.

كان تأقلم ابن عمي أكثر سرعة. سنواته السبع سهّلت عليه ذلك على ما أعتقد. فقد وجد مكانه ضمن فريق صغير لكرة القدم، ويبشّر بأن يكون حارس مرمى ممتازاً. لا أزال أتذكره وهو يصدّ رميات عن كثب، ويثب على الكرة وسط حشد المتناحرين، رشيقاً، يقظاً وذا تحفزٍ مدهش. من جهتي، كنت أفضل صحبة مومن، الذي تنحدر أصوله من المحمدية. ويا له من فتى رائع، ربيل، مكرّش تقريباً، اتساع مناخره يضاهي ابتسامته انفراجاً. كان يبهرني بحكاياته الخيالية التي لا يكف من خلالها عن التطوع لنجدة محبوبته التي يختطفها غول مزمجر حسب تقلّبات مزاجه. ويالها من لحظات مثيرة. عندما يحل مومن محل أمرائنا البواسل. كنا عشرة من الأطفال نأتي للقائه بعد العشاء على درج المهجع للتمتع بحلقة جديدة من هذياناته التي تبدأ وتنتهي دائماً بنفس الطريقة... دون أن نسأم منها البتة. كنا نتفاجأ بأنفسنا ونحن نرتعش من أجل بطلنا بينما كان يقفز على بغله الأبيض، مشهراً سيفه العريض ومنطلقاً في الغابة السوداء بحثاً عن حبيبته. وعندما يتوصل أخيراً إلى القبض على الخاطف المخيف، نتوسل إليه كي يقطع رأسه دون محاكمة ودون تأخير. كان عمر مومن إحدى عشرة سنة ! وكانت شطحات خياله ضرورية قطعاً لاندماجي. أصبحت أعزّ أصدقائه. وتكفّل بتعويض أمي، وحكاياتها قرب المدفأة، هناك في بيتنا...

يا إلهي، كم كان بيتنا بعيداً...

كنا نسكن في – شارع أريستيد بريان في شوبو، حي هادئ من أحياء وهران. في فيلة فسيحة يغمرها النور.

وكنت ألعب مع إخوتي لعبة الهنود الحمر. وأتقمص شخصية ملك السيو، بريشة مغروسة في شعري، ووجه مشطوب بضربات من أحمر الشفاه. كان عندنا مرأب نستخدمه كبنك بمناسبة هجمة سرقة نستوحيها من فيلم من أفلام الزمرة "ب"، وحظيرة نربي فيها الدجاج والبط والإوز والديك الرومي، لأن أمي، البدوية الرومانسية، كانت تبسط ريفها حيثما حلّت، أمام تعاسة أبي الذي طالما حاول، عبثاً، أن يطبّعها بالسلوك الحضري. فوق الحوش الصغير الذي كانت تحرسه شجرتا ليمون متشابكتان، تفرعت عريشة إلى أن تدلت إلى الشارع. وفي الصيف، تحول عناقيد الموسكا الضخمة المكان إلى مَتْرَعٍ وارِفٍ للخيرات. ولم يكن على صبية الأزقة والمارة إلا أن يشرئبوا على أطراف أقدامهم لتناولها. كان إنتاجها وفيراً جداً، نعطي منه للجيران والزوار والمتسولين ؛ وكانت أمي تصنع من المتبقي مربيات تسيّل لعابنا...

لم أكن أفهم ما يحدث لي.

كم كنت سعيداً، في بيتنا.

في السابق، لم أكن أعي ذلك، ولم أكن أعره اهتمامًا. في المشور، أخذ كل شيء يتشكل من جديد، حتى أدق التفاصيل : نوبات الغيرة المستعرة لأخي هواري، مشاجراتنا المزمنة، مودة كلبي ريكس، صاحب الدكان المجاور والمتحرّز دوماً بسبب أصحاب النوايا النشالة الذين يقبشطون علب الملبّس والسكاكر ؛ استشاطات غضب ساعي البريد عندما يتفطن إلينا ونحن نتعقّب أثره ونقلّده ؛ والكرش المضحكة للشرطي ؛ ونيقوس المتشرّد المسنّ والمعتوه الذي كان يرينا قضيبه الضخم مقابل دراهم زهيدة، ودبُره مقابل قرامة خبز - كنت أفتقد كل شيء، ويفلت مني كل شيء،

ويتآمر عليّ كل شيء... أكثر ما كان يحيّرني هو السبب الذي يجبرني على أن أعيش مع الأيتام، في حين كان لي أب ذو نفوذ، وأم تحبني حباً جماً، وأسرة كثيرة العدد...

كانت مدرسة الأشبال تشبه المدارس الابتدائية الأخرى، لها نفس البرنامج البيداغوجي المعمول به على المستوى الوطني؛ وكان يقوم بالتدريس فيها معلمون من المدنيين، الاختلاف الوحيد هو أن الإدارة كانت منوطة بالجيش والتأطير يعهد إلى ضباط صف يوصفون "بالممرنين". تم تسجيل قادر في السنة التحضيرية، وسجلت في السنة الابتدائية الأولى. كان قسمي يحتوي على عشرين تلميذاً تتراوح أعمارهم بين ثماني سنوات وأربع عشرة سنة. كنا قد خرجنا لتوّنا من الحرب، وغالباً ما كان يحدث أن يتقاسم شباب مراهقون نفس القسم مع صبية صغار. كنا نجلس قبالة سبورة من عهد قارون تترك فوقها الاسفنجة آثاراً ثابتة حائلة. كان جاري في المقعد يحمل الرقم 118. ويا له من "نومرو". أحد الناجين من ضواحي بودغن. كان يتجاوزني بعدة سنوات وبرأس كاملة ناتئة الجبهة. هو الذي عرض علي أن أجلس على مقعده. كان يقول لي بأنه يرتاح لقربي وبأننا سوف نصبح لا محالة من أعز الأصدقاء. لم أكن أرى مانعاً في ذلك. فقد كان 118 مسلياً، ميالاً إلى التمرد ولا يقاوم. إلا أنّه كان يبغض النجباء، ولم أكن منهم. المشكلة أنه لم يكن يرجع لي أبداً الأشياء التي أعيره إياها ؛ والأدهى من ذلك : كان يسرق مبراتي وممحاتي وقطع طباشيري وحامل ريشتي، وأحياناً أزراري النحاسية لكي يستبدلها بالقوة مقابل صابرتي. عبثاً حاولت مراقبته وإبعاد أغراضي عن متناوله، فلدى أدنى سهوة يتخلف شيء ما عن قائمة الجرد لعلبة أقلامي. طفح بي الكيل.

اضطرني الأمر أن أتفاوض معه. بالقبضات... كرفس لي وجهي قبل أن أُهُمَّ برفع ذراعي لوقايته. ولطالما حاول الممرن معرفة من وَرّم عيني. لم أنبس ببنت شفة. بقي 118 معترفاً بالجميل لعدة أسابيع. بعدها، ودون سابق إنذار، عاد إلى تشليحي. كان ذلك، دون شك، أمراً لا يقوى على مقاومته.

كان أستاذنا في الموسيقى يدعى السيد بوان. يلقننا، بالإضافة إلى السولفيج، مواد أخرى. كان فرنسيًا مسنًا، قصيراً وجافاً. يعطيه شعره المنفوش وشاربه الأشيب المحمر بفعل النيكوتين ملامح عالم من شخوص الأشرطة المرسومة. كان ينادينا بـ "أيها السادة"، ويستعمل عبارات التبجيل، مما كان له مدلول غريب في مؤسسة عسكرية. راودتنا شكوك لمدة طويلة في أنه كان يسعى من وراء ذلك لإيقاعنا في فخ. كنا مخطئين. كان بالفعل مخلصاً وودوداً وكَيّساً إلى حد بعيد. لم يمكث معنا طويلاً، أو أنني قد أكون نسيت. أذكر أنه كان مفلساً كالسّراب بسبب وضعية مالية لم تُسوّى. وأذكر غليونه المطعّم بزاوية فمه، وأذكر رائحة المدخّن المدمن التي يُعَبِّق بها الغرفة والممر والبناء بأكمله. لا يرفع عصاه إلا لطلب الصمت، ولم يرفعها على أحد مطلقاً. ونستطيع معه أن نغفو في منتصف الدرس دون إهانة الآلهة. ولا يفتأ يردد لكل أذن صاغية بأن الطفل، سواء كان جندياً أو سجيناً، ليس سوى طفل، وبأنه بحاجة إلى الترويح عن نفسه، وإلى ارتكاب الحماقات، ولا يعقل أن يعامل كشخص راشد. كان رجلاً حصيفاً، مشمئزاً بثبات لكنه رزين. يأتي كل صباح مقطّباً جبينه، يسبح إلى حد ما في سترته الصحراوية الفضفاضة، التي كان يرتديها صيفاً وشتاءً. ويستغرق في فك أسيار محفظته وقتاً أطول مما يستغرقه أحول في ضم خيط في خرت إبرة. وإذا

حدث وسقط كتاب أو دفتر من بين يديه، فلم يكن يلتقطه قبل انتهاء الحصة، لكثرة ما كانت الجهود الإضافية تثير امتعاضه، خاصة تلك التي لم يبرمجها. كما كان يشحذ اهتمامنا، دون كبير إلحاح، بورق الموسيقى، وبملامس الكلارينيت وبالرسم أحياناً، وبحكايات لافونتين وبأنفسنا...
معلمنا الثاني الجزائري كان مختلفاً. لمجرد زلة لسان أو ضحكة مكتومة كان يحول القسم إلى قاعة رياضة. يأمر الجميع بالانبطاح أرضاً والقيام بعشرين ضخّة بالتمام والكمال. كان كهلاً طويل القامة بجمجمة ضخمة يعلوها طربوش، ويرتدي على الدوام طقماً من ثلاث قطع ذا تقليمات رمادية رفيعة، مبرزاً سلسلة ساعته فوق صدريته. لغته العربية البليغة وغطرسته المتضخمة تجعلانه يبدو كمثقف برجوازي لمصر وقت الحكم العثماني. لم أعد أذكر اسمه، غير أني لازلت أستحضر وجهه اللبني المرصع بعينين خضراوين تميلان إلى الزرقة، قادرتين على إفشاء أفكارنا الأكثر حميمية. كان ذا روح وطنية مدوّخة، يصطفق كالريشة أثناء تحية العلم، ويقسم بأغلظ الأيمان أن يجعل منا عباقرة حقيقيين لكي نتمكن من تشييد جزائر النور ضمن كوكبة الأمم المتآلفة...

لم يكن الممرنون ذوي نوايا سيئة رغم الصرامة التي يبدونها، بل كانوا يتعاطفون مع سوء طالعنا الذي يحمله كل شبل ورباً على صدره أو مصلوباً على جبهته ؛ فقد كان واضحاً وضوح الشمس أنه تحت البزة المرمدة للجندي الصغير، كانت هناك روح تتآكل في السر. لكن الاحتفاظ بالآلام في مكنون النفس لم يكن سوى امتثال للقيم العسكرية الأساسية، وبالتالي فلم يكن من مصلحة الممرنين ولا من في حمايتهم بأن يقلّبوا المواجع. وكان ذلك أفضل.

كان سي الطيب المساعد الأول المسؤول عنا يشاطر هذا الرأي، حتى عندما يحدث له أن ينسى طقم أسنانه على أذن تلميذ. كان نزقاً تستشيط سوراته بأسرع من الفتيل، فيلتقط هراوته ويعيث في الصفوف كوارثَ. كذئب جائع استباح خماً. أما المساعد بحوص فقد كان يمثل ضابط الصف التقليدي بكبريائه وتحذلقه. كان إعجابنا به يفوق خوفنا منه. بصفارة على أهبة الاستعداد، يرعانا كما يرعى مهجتيه. وقد ورث عن قبيلته، وهو ابن الصحراء المقدام، روح الواجب والولاء، وكذلك ميلاً واضحاً للفلكلور، حيث كان يغني لنا في أوقات فراغه يا غربتي وهي أغنية من تأليفه. كنا نضحك ملء أشداقنا على لكنته الجنوبية وصوته المخنّن اللذين يقلدهما مومن ببراعة فائقة. أمّا الرقيب كرزاز الشبحي، فقد كان يجد صعوبة في تخطي ظلّه ؛ ويتحمل مقالبنا بطول أناة مذهلة. وكان مدير تجمع التلاميذ يدعى ميداس برتبة ملازم مدكوك البنية متقد الطباع، ذا شعر أحمر كألسنة اللهب. وصوته الذي يبدو وكأنه ينفذ من فوهة مدفع يجعل فرائصنا ترتعد من على بعد أميال. وإذا شاء سوء الحظ أن يقع أنف أحدنا بين براثنه فلم يكن ينجو منه إلا النصف. كانت له صفعة على الخد صاعقة ولكزة في الدبر محكمة، لكن هوايته المفضلة كانت إنزال الفلقة. كان مولعاً بها. يساعده في ذلك شبل ضخم الجثة تنحصر مهمته في شلّ حركة قدمي المعذّب بالإحكام عليها بين فخذيه، حيث يقوم ميداس أولاً بمعاينة نظافة أصابع قدمي "الأزعر" قبل أن ينهال عليه بسوطه. والعقاب يتم في الفناء المدرسي ساعة التجمع، كي يحضره الجميع. كان ميداس يصرّ على ذلك. أول عرض شهدته منحه لي حامل الرقم العسكري 53، ولد عفريت من باليكاو. كان قد فشّ عجلات

حافلة الفولفو التي أرسلت من وهران لتقلنا في رحلة. كاد ميداس أن يفقد صوابه. رحلة تفسدها نزوة طيش. أمر غير مقبول البتّة. نال رقم 53 أربعين جلدة كل واحدة منها زعزعت أوصاله كشحنة كهربائية. بعد عشرين ضربة تلوّى لها المسكين، لم يعد قادراً على الاحتمال. تباعدت جفلاته واختنقت صرخاته، إلى أن كفّت دموعه عن الاستجابة لأنّاته. انضم رقم 53 إلى رفقائه دابّاً على أربع، ولم يستعمل قدميه لمدة عدة أيام.

كان العرفاء الذين يتداولون بالتناوب على تأطيرنا يقومون بذلك دون أي مشاعر. ولم يكن بمقدورنا أن نثير أحاسيسهم أو أن نبرطلهم. فلا طائل من ذلك. كانوا لأقل هفوة يقبضون على قفا أعناقنا لكي يسجلوا أرقامنا المخيطة بالأحمر على ياقات ستراتنا. وبما أنهم كانوا لا يحسنون القراءة ولا الكتابة، فقد كانوا يكتفون برسم الأرقام والإبلاغ عنا في الحال إلى الإدارة. لم نكن نُكنُّ لهم أية ضغينة على ذلك، فمع كونهم مزعجين إلا أنهم كانوا يعاملوننا بإنصاف.

غير أنه كان يوجد منهم من يبالغ في صلاحياته : الرقيب فرّاح. كان بعمرته المائلة على طريقة الديّوثين وفمه البذيء، ذا ساديّة مخيفة، يبول منها بعض الأشبال في سراويلهم. كان رجل قاسٍ مقيت. يكره الجميع وخاصة الضباط. وعندما علم بأنني ابن أحد "الرتباء" جعل مني ضحيته المفضلة. طوال أسابيع، كان يوقظني عند الثالثة بعد منتصف الليل ويجبرني على تلميع جزمات رفقاء الغرفة في الظلام الدامس، وويل لي إن استقرت على الجلد ذرة غبار. وفي النهار، كان يعذبني بأن يجعلني أقف في وضعية الاستعداد إلى أن أغرب عن وعيي أو أن يجعلني أزحف. رأيت معه نجوم الظهر. كنت أبتهل إلى

اللّه كل ليلة كي ينقله إلى أقاصي الدنيا، ويبعده عن طريقي. وذات مساء، دخل الرقيب فراح ثملاً وأحدث صخباً عجيباً، فزج به في السجن. وفي اليوم التالي غادر الصفوف إلى غير رجعة. كان لاختفائه أثر الصحو بعد الاكفهرار على الأشبال قاطبة... بعد عشرين سنة وفي أحد مقاهي مغنية، بادرني رجل مضطرب قائلاً :

— ألا تتذكرني سيدي الملازم الأول؟

وضعت فنجاني كي أتأمله للحظة، للحظة صغيرة فقط :

— بلى، السيد فرّاح. هزّ رأسه وأطرق أرضاً. دفعت له ثمن فنجان من القهوة وزجاجة صودا، وخرجت إلى الشارع. لم يحاول الاقتراب مني بعد ذلك إطلاقاً.

في يوم الأحد، يتملك بعض الأشبال هيجان شديد، خلافاً "لعديمي الأسرة" الذين أداروا منذ زمن طويل ظهورهم لقصص الجنيّات. كانوا يتناثرون في الفناء هنا وهناك على جماعات متفاوتة بقلوب تلهج وعيون مسمرة على البناء الإداري الذي يزينه مكبر صوت مبحوح. كان ذلك يوم زيارة الأولياء، أطول الأيام وأكثرها إضناءً... اعتباراً من الساعة التاسعة تجلجل أسماء المحظوظين الأوائل في تفل الميكرو، مجفلةً رفّ الحمام الجاثم على السطوح. وأولئك الذين يتعرفون على أسمائهم وسط نشيش المقالي، يهرعون إلى قاعة "المناداة" وعيونهم تتفتق بغبطة مريعة. أحياناً تحتجزهم لبرهة يد صديق، من باب المداعبة، فيأتي الرد بعنف يفك أعتى وثاق... لا توجد قوة بإمكانها أن تحتجز طفلاً يجري للقاء أسرته. خاصة عندما يعرف بأن اللقاء لا يستغرق سوى مدة عناق.

مع كلّ اسم مجلجل، ينط ابن عمي إلى السقف وهو واثق من أنه اسمنا. فأرسم له تكشيرة متأسفة. فيحط قانطاً وهو يقول :

— أو لن يأتوا أبداً؟

مرّ شهران ونحن نتلهف لرؤية خيال عزيز، وأهلنا كانوا يتجاهلوننا. كان ابن عمي يرفض أن يقرّ بذلك. ولم أكن أدري ما أقوله له. أنا أقاسي مثله تماماً. لكني كنت الأكبر، وكان علي أن أتحمل، وأن أبرهن له بأني كنت أقف بجانبه...

عند نهاية الزيارات، بعد أن يوصد الباب خلف آخر أمانينا، كان المحظوظون يعودون محبطين، منقبضي الأسارير، وأكثر تألماً من أي وقت مضى. وفي المطعم وقت الغذاء، لا تقلل الطاولات المزدانة كيوم العيد من حجم الأسى. و"عديمو الأسرة" هم الوحيدون الذين يظهرون ابتهاجهم، آخذين بذلك ثأرهم لفترة قصيرة من حالتهم الشخصية المغفلة. ولا يجرؤ الآخرون، من محظوظي الصباح ومن الأقل حظاً، على لمس فطائر الفواكه أو المشروبات الغازية. كان القنوط يعقد بلاعمهم لدرجة أن ملعقة صغيرة من الحساء قد تخنقهم. وفي اليوم التالي، والأيام التي تتبعه، كانوا يتغمسون في سورات غضب صمّاء.

عشية الأحد المقبل، ننسى كل شيء ونعيد الكرّة من جديد : نتناول فطور الصباح بجرعة واحدة، ونحتل الفناء بصمت. وليكن ما يكون...

بدأ المحظوظون، بالاستنزاف، يُظهرون تلهفاً أقل للوصول إلى "قاعة المناداة". ولم تعد لحظات السعادة التي تذوب بأسرع من الزبدة الطرية تهيّج جوارحهم. فالقريب الذي يمضي يحدث ضرراً أكبر من القريب الذي يُنسى. لكن بالنسبة لأُناس مثلي ومثل قادر، ممن كانوا ينتظرون بتعاسة دورهم للالتحاق بقاعة "المناداة"، فإن ذلك يستحق كل آلام الأرض، حتى لو كلفهم الأمر أن يقاسوا ما تبقى من عمرهم.

كنت وابن عمي نحسب على أصابعنا الأيام والليالي التي تفصلنا عن يوم الأحد 4، ثم يوم الأحد 11، ثم يوم الأحد 18، وهلم جراً. وكلما تجاهل مكبر الصوت اسمنا، كلما تشبثنا بالحساب، وبالمزيد والمزيد من الحساب الذي يتبعه تهيّج وابتهاج لاذع لا يفتأ يتعاظم. ابتهاج مؤلم لصغيرين يشعران بذنب كبير لأنهما لم يعرفا كيف يكونا جديرين باهتمام عائلتهما لدرجة أنهما يحمّلان نفسيهما فوق ما تحتمل.

ومن حيث لا أحتسب اعترض الرقيب كرزاز سبيلي ذات عشية عند الخروج من الأقسام وبادرني قائلاً بصوت رتيب :

— والدك هنا.

فأجبته دون حماس :

— آه.

كنت في حالة يُرثى لها. قدماي متجمدتان داخل نعليّ المطاطيين. كان البرد قارساً في أواخر نوفمبر. وقد تأخر وصول الملابس التي وعدت بها بلغاريا، ولم تعد ألبستنا الصيفية تحمينا. والمدرسة الناشئة تفتقر إلى التجهيزات والإمكانيات المادية. وكانت الأقسام والمهاجع الخالية من التدفئة تذكر بالغرف المبردة. وقلّما تمكن نزر من الأشبال ذوي القامة الطويلة من العثور في أغوار المخازن الكئيبة للألبسة على معاطف قديمة لأسرى الحرب مضحكة ونتنة، طُبعت على ظهرها أرقام سميكة بيضاء. أما البقية فقد كانوا ينحشرون يتقمّطون داخل كنزات صوفية للكبار وأسنانهم تصطك من الصباح إلى حلول الليل.

أُصيب ابن عمي بنزلة صدرية حادة. لم يكن مسموحاً لي أن أزوره في المستوصف. أنا أيضاً، كنت أسعل سعالاً يدمي رئتي، ولم أكن الوحيد. قبضتاي تنهشهما تزلّعات

سوداء، ولا تكف أصابعي عن التنميل تحت إبطي. لم تأت زيارة أبي في الوقت المناسب. وكم كان يزعجني أن لا يكون لدي ما اقترحه عليه سوى صورة شلو بشري وهو المغرم بالأشياء السليمة.

طلب مني الرقيب أن أمخط وأن أفرد تلك السحنة التي لا تليق بجندي. ثم رفع ذقني وعدّل ياقتي وأرشدني إلى الطريق.

كان أبي يتحدث مع الملازم ميداس في الفناء. وكان الاثنان يرقباني بينما كنت أحاول أن أضبط مشيتي التي تخذلها قدماي المخدرتان بفعل البرد.

همس كرزاز في نقرتي :

— قف منتصباً. أره ما علمناكَ إياه.

اقتربت من الضابطَين مهرولاً وقبضتاي على ارتفاع صدري، تلكأت على بعد ستة أذرع منهما - كما لقننا مدربونا - وأديت لهما التحية العسكرية. ابتسم أبي. وبشيء من القحة طقطق بدوره كعبيه وبادلني التحية، وكأننا في استعراض عسكري. كنت أتوقع أن أراه ينقض علي ويعانقني ويقر لي بمدى اشتياقه. في العادة، كان يرتكز بركبته على الأرض ويبسط ذراعيه اللتين كانتا تبدوان لي بسعة السماء. وأنا أجري لأندسّ في صدره وأتيه بين السحاب...

في ذلك اليوم، اكتفى بالابتسام وشفتاه مزمومتان إلى الأمام ليُفهِم الملازم ميداس بأنه قام بعمل جيد.ثم نطق ميداس مؤنباً :

— ألم تنس شيئاً؟

كان الرقيب كرزاز يحاول خلسةً من وراء الرجلين أن يذكرني بالأعراف المتبعة. حضرتني دفعة واحدة. ومن جديد،

رفعت يدي إلى صدغي بتحية نظامية وصرخت تجاه والدي :

— الشبل مولسهول محمد، رقم 129، تحت أمرك حضرة الضابط.

دمدم ميداس :

— حسناً، يمكنك الآن أن ترخي ذراعك.

أرخيت ذراعي وبقيت في وضعية استعد". كان المساعد فراح يعنفنا بتسويط وجوهنا بحزامه المسمّر وهو يقول : الشبل يبقى في وضعية استعد طالما لم يسمع كلمة استرح. وفي وضعية استعد لا نتحرك، مهما حصل. مفهوم؟ – نعم، سيدي –. ماذا يفعل الشبل بعد عضة ثعبان أو لدغة زنبور؟ – لا يتحرك، سيدي –. لم أسمع جيداً ؟. لا يتحرك، سيدي –. حسناً... الشبل في وضعية استعد لا يتكلم إلا إذا أمر بذلك ؛ لا تمد يدك أولاً إلى رئيسك إطلاقاً مهما كانت صلة القرابة التي تجمعك به".

لم يمد أبي يده. تفرّس في بإيجاز، ولم يلحظ شحوبي، مرّ على كل شيء مرور الكرام...

قال ميداس :

— طيب، أترككما تتحدثان حديث الرجال.

فرد أبي :

— لا داعي لذلك.إنه بين أيدٍ أمينة وهذا يكفيني.أنا هنا في إطار مهمة. وعليّ أن أعود إلى وهران قبل الرابعة بعد الظهر.

— آمل على الأقل أن يكون لديك ما يكفي من الوقت لشرب الشاي في مكتبي.

— طبعاً، بكل سرور.

ثم ابتعدا.

هكذا، بكل بساطة.

لم أكن أقوى على تصديق عينيّ.

منذ ذلك اليوم، لم أنجح أبداً-بتاتاً -في أن أقول لأبي"بابا". ليس لأني كنت أحسبه غير أهل لذلك، بل لأن شيئاً ما، لا استطيع أن أشرحه إلى اليوم قد تقلص نهائياً في حنجرتي ومنع أعز لفظ لدى الأطفال من أن يحلّي حلقي. بقي كحصاة تسد حنجرتي، ثم دخل في مرابع النسيان في أغوار ذاتي قبل أن يتحلل عبر كياني. ولم أعثر له لا في جسدي ولا في ذهني على أثر أو مكان.

3.

أخذنا الخبر على حين غرّة : سنذهب في عطلة.

لم يكن أحد يتوقع ذلك.

أبلغنا العريف بحوص بالأمر أثناء تناول العشاء، وقطع شهيتنا على الفور. اكتسحت المطعم جلبة كبيرة، حثيثة كالنار في الهشيم. وأخذت المغارف تقرع على الصحون، والأيادي تطرق على الطاولات الحديدية، وانقلبت المقاعد في صخب يصم الآذان. حتى كاد المرء يخال نفسه في سجن تمرد سجناؤه. ونداء الممرنين الداعي إلى الهدوء ضاع في خضم الهرج والمرج. لما رأى الأشبالُ المتواجدون في أول الصفوف أنّ المكان ضيق جداً ليحتوي غبطتهم، غادروا المطعم. ورد الفعل التسلسلي دفع الآخرين إلى الخروج في تشكيلات

متنافرة، متعفرتة. انتشر الابتهاج العام في الفناء المدرسي الذي اكتسى بسرعة شكل ساحة للعرض العسكري. بأعين مقلوبة وعقائر مرفوعة كان الكل يضحك ويغني ويرقص أمام النظرات الكئيبة "لعديمي الأسرة"، والمذهولة لمن يصغروننا سناً، والذين لا تتجاوز أعمارهم الست سنوات، كانوا يمرحون مع الآخرين دون أن يدركوا حقيقةً ما كان يجري.

قرر ابن عمي قادر أخيراً، بعد أن تنطط إلى أن أفشل عضلاته وصرخ إلى أن بحّ صوته، أن ينضم إليّ في المهجع حيث اختليت، لكي يسألني عن فحوى الموضوع بالضبط.

قلت له :

— نحن ذاهبون في إجازة.

— لقد سمعت، لكن ماذا يعنيه ذلك؟

— يعني أننا سنذهب إلى بيتنا.

— بالصح وصحيح؟

— لا أرى ما يدعو المساعد بحوص إلى أن يكذب علينا.

— إذن، هل انتهى كل شيء؟

— ما الذي انتهى يا قادر؟

— الحياة هنا.

كان ذلك ما كنت أخشاه : لم يفهم الأمر بوضوح. فشرحت له قائلاً :

— نحن ذاهبون في إجازة فقط.

عقد ما بين حاجبيه.

دعوته أن يجلس على طرف سريري، ووضعت يدي على كتفيه. كنت دائماً أمسكه هكذا عندما يكون لدي أشياء "جدّية" لأقولها له. أحسست به يتراخى تحت أصابعي. تملّكه

خوف مفاجئ مما قد أبوح به له، وكاد أن يندم على أنه جاء لاستشارتي. وقال وهو يئنّ :

— لا تقل لي بأننا سوف نعود إلى هنا ثانية.

— إنها الحقيقة.

برزت عظام رقبته بينما كانت ذقنه تبحث عن نقطة ارتكاز في تجويف حنجرته. وبعد أن أطلق تنهيدة همس قائلاً : "وي"!، وعاد إلى سريره في آخر العنبر. كنت أنظر إليه، بلا حول، وهو يتمدد بكامل ملابسه على فراشه ويسحب الأغطية عليه. لم أجرؤ على إزعاجه.

يوم الذهاب للعطلة، وفي حدود الساعة الحادية عشرة، كان أغلب أصحاب الإجازات قد غادروا. بدأ القلق يتسرب إلى نفسي ونفس قادر. أوَ كُتبَ علينا ثانية أن نعيش المحن المضنية للزيارات العائلية ! كنا نتفتت على وقع تفلات مكبر الصوت وقد تحجّرنا على منبت إحدى شجرات الدُّلب. لا أظنني قد كرهت شيئاً أكثر من كرهي لمكبر الصوت المشؤوم ذاك. كان الأمر شاقاً لدرجة أنّ قادراً سدّ أذنيه وراح يقرأ في ملامح وجهي إن كان النداء يعنينا. عند الثانية عشرة بالضبط جلجل اسمنا في فضاء الصمت. بقينا مدة طويلة ونحن نتساءل إن كان الأمر ليس إلا ارتداد صدى موّهته مخيّلتنا. صاح بنا الرقيب كرزاز :

— هل أنتما طرشان أم ماذا ؟

لم نعطه وقتاً للتكرار.

لم يكن بوسع البرق أن يلحق بنا.

كان أبي ينتظرنا في قاعة "المناداة". لم يكن بمفرده. كان هناك شبل يقف بجانبه، واحد يدعى جلول، كنت ألتقي به من حين لآخر وهو يناجي نفسه؛ ولد محيّر، تارة جموح كالثور

الهائج، وتارة وحيد ومرتبك. لم يعر أبي اهتماماً لتحيتنا. غير أنه رضي بتقبيلنا. والعناق الذي خص به ابن عمي كان أكثر ضغطاً من الذي منحني إياه. لم يفت عليّ ذلك، لكن حضور جلول هو الذي كان يقلقني على الخصوص. بادرنا أبي قائلاً :

— سوف يذهب معنا. إنه "عديم الأسرة". طلبت مني الإدارة أن آخذه، وقبلت ذلك. آمل أن تساعدوه على قضاء عطلة ممتازة معنا في البيت.

كانت العودة إلى الديار حدثاً بحد ذاته. تم الانقضاض على سيارة أبي البيجو بمجرد توقفها داخل بيتنا. تدحرجت أمي على الدرج ككرة ثلجية، وخلعت الباب وغمرتني بين ذراعيها، بينما كانت الخالة ميلودة تطلق زغاريدها عبر الجوار. كان جميع أفراد العائلة موجودين: أبناء عمومي من بشّار وبنات عمي من فيكتور هوغو. منع عمي أحمد الآخرين من الاقتراب من قادر ولده. كان يحرص قبل كل شيء على أن يتأمله. وقف يرتجف زهواً ويداه على أردافه وكأنه ديك انتصب متباهياً أمام صوصه. ثم نطق بعد إلهام عميق قائلاً :

— ألم أقل لكم؟ أو ليسا رائعين يؤكلان أكلاً دون ذرّ ملح؟

بعد ذلك حضّن على ابنه واحتفظ به لنفسه. بحثت عن إخوتي وأخواتي ضمن المعمعة، لم ألمح سوى عبد السلام في البهو وعيناه تقطران سعادة. حظي جلول بنفس الحفاوة. مرّ من صدر إلى آخر، دون أن يكون له متسع من الوقت لالتقاط أنفاسه. تم دفعنا نحو الصالون حيث كانت بانتظارنا وجبة ضخمة. حالت سعادتنا المفرطة من إعطائها حقها في التكريم. تمكن أخي الصغير هواري من أن يشق طريقاً نحوي. وأخذ يتأمل وقد عقد حاجبيه وزمّ شفتيه حرداً، بزتي الرائعة المرمدة المزدانة بدزينة من الأزرار الذهبية، وعمرتي

المفصّلة على المقاس، وجزمتي اللماعة، ثم استدار صوب أبي كي يطلب منه في الحال نفس اللباس. حاولنا أن نشرح له، لكنه رفض الإنصات، وحرر بانبجاسة واحدة صرخة طفل مدلل كانت في الماضي تفقدني صوابي، وفي ذلك اليوم، هزّت مشاعري وأثارت مرحاً جماعياً.

بعد أن بردت حمّى اجتماع الشمل، قادتني أمي إلى غرفتها لكي أرى مولودها الجديد، بنتًا اسمها صليحة. كانت تتململ داخل مهدها وتعبث أطرافها بقطعة من الستائر. مسّحت بيد مترددة على محيّاها اللطيف، انتفضت وأوقفت اختلاجاتها واستدارت نحوي. راحت عينا ذاك الشيء الصغير تتفرّسني بفضول، وأمام شدة حبوري منحتني أجمل ابتساماتها. ها قد عدت ثانية بين أهلي.

حدثت نغمتا نشاز في ذلك اليوم الأول من العطلة. الأولى علمي بأن كلبي ريكس قد مات. والثانية - وهي من قصارى القول أمر تافه، غير أنه لابد وأن تكون له أهميته، وإلا لما بقي مطبوعاً في ذاكرتي - تصرّف أخرق. كنا حول المائدة نتناول العشاء. أخذ هواري يريّل طمعاً في إجاصة رائعة تصدّرت وسط سلة الفواكه. أمرته أمي التي تفطّنت للعبة بأن يتركها لي، وصاحت فيه قائلة :

— أكرم أخاك الأكبر، تذكّر أنه ضيفنا.

ضيفنا؟

لم يرق لي هذا التبجيل.

في اليوم التالي، استدعاني أبي. كان في الصالون جالساً على أريكة يمسح نظارته بورق رقيق. طرقت بإصبعي على الباب المفتوح ووقفت بوضعية استعد. قال لي :

— أنت لست مجبراً، تعلم ذلك.

انتقلت إلى وضعية استرح، بساقين متباعدتين، ويدي خلف ظهري. بطريقة آلية.

ابتسم :

— اقترب.

وعندما رأى بأني لا أتحرك نهض وجاء ليضمني بين ذراعيه.

— لا تؤاخذني يا بني. إن ذلك من أجل مصلحتك.

— أنا لا أؤاخذك.

تراجع إلى الوراء لكي يتفرسني.

— يجدر بك أن تغذي نفسك أكثر.

— أو ترى بأني نحلت؟

— ربما.

ودسّ ورقة نقدية في جيبي.

قلت له :

— شكراً.

— لا داعي لشكري، يا بُني.

ثم، تمالك نفسه وصفق بيديه وصاح فيّ :

ماذا سنفعل بيومنا هذا، أيها العريف؟ أنت الذي يقرر. وأنا رهن إشارتك.

— كما تشاء.

— هل عندك أي فكرة؟

— كلاّ.

— هل تثق بي؟

— نعم.

— لا بأس. اتبعوا الدليل. كدّسنا أنا وجلول وهواري وعبد السلام وقادر وحومينة وأخي الصغير سعيد في سيارته،

واصطحبنا في جولة بالمدينة. كان المذياع ينهق بأعلى صوته، ومزاج أبي رائقًا تماماً. وهواري الذي أصر على الجلوس في المقعد الأمامي يستدير لكي يغيظنا بتكشيراته. لقد أصبح بعد غيابي مدلل العائلة، ويحرص على أن يبقى كذلك. كان ذلك يوماً جميلاً من أيام آخر السنة، بسماء عذراء وشمس مفرطة في اللطف بالنسبة للفصل. كان جلول مبهوتاً بالعمارات الضخمة، وباللافتات المضاءة بالنيون التي تبرقش جبهات الدكاكين، وبواجهات المحلات المتلألئة كمغارة علي بابا. وهو الذي ولد في دوّار ناء، وعانى من ويلات الحرب، كان يكتشف وهران، أجمل مدينةٍ في البلاد. لم يكف عن لكز خاصرتي بضربات كوعه، منبهر أيضاً بالحشود التي تتهادى على طول الشوارع العريضة، والسباق المتعرج المدوّخ للسيارات. اشترى لنا أبي فطائر الخفاف من إحدى الساحات، ثم دعانا إلى الحديقة العمومية لرؤية الحيوانات المفترسة. رجعنا إلى البيت مع حلول الليل سعداء وفي منتهى الإنهاك.

انقضى الأسبوع الأول في نوع من الهرج والمرج. كان الأقرباء لا يزالون يتوافدون على البيت، وكلهم فضول لرؤية شكل جنديي المشور الصغيرين. بعضهم كان ينظر إليهما بعين العطف في حين أظهر الآخرون شيئاً من التحفّظ. إذ لمّح هؤلاء أنه ليس من الإنصاف أن يحرم أطفال صغار من أجمل ما يملكون : من طفولتهم ؛ وأن يصنع لهم، دون علمهم، مصير ليسوا بالضرورة مؤهلين له. كانت أمي تهزّ كتفيها. بالنسبة لها، كانوا من الحاسدين. أما خالي الصغير دريس فقد كان مسروراً. وكان عمي، ذاك المتأنّق "الزازو" ذو العشرين عاماً، والقارئ النهم للروايات البوليسية، يعطينا

كل مساء تذاكر للسينما. ويطلب منا أحياناً أن نلبس بزاتنا العسكرية ثم يصطحبنا إلى المدينة لكي يبهر الفتيات. لم يكن بوسع الأوانس مقاومة سحرنا. فمن حيث الإغراء، اتضح أننا نشكّل طعماً لا يخيب. بعد ذلك، بدأت الأمور تهدأ، وصار بإمكاننا أخيراً أن نتصرف بكل وقتنا. فضّل قادر أن يمكث مع ذويه. واهتممت أنا بجلّول. رحت أجوب به كل مكان من مصروفي الخاص، وجعلته يكتشف جبهة البحر، والأبراج الكبيرة، والميناء، والملعب، والأحياء القديمة، وضريح سيدي الهواري، والحمامات التركية. وكلّما زاد سروره، كلما زاد ذلك من تحفيزي. نستيقظ في الصباح الباكر، ونسرط فطورنا ثم نندفع لغزو الباهية. كنت أعرف المدينة بكل طياتها وخلجاتها. وهو أمر يدهش جلول إلى حد بعيد. كان في منتهى السعادة. يهتم بكل شيء، ويرغب في معرفة المزيد بنهم للاكتشاف لا يعتريه الكلل. أظن أنه أحبني حباً جماً لكل ما منحته من لحظات رائعة. لم يكن يكف عن تقبيلي وشكري على تفرغي، فلم أكن أرفض له طلباً. حتى عندما أكون منهكاً، أجد دوماً ذلك النفس الإضافي لأقوده حيثما شاء في أي وقت من النهار. كانت سعادته تغمرني بشعور بالامتلاء. كنت سعيداً بإسعاده. وكنت أيضاً فخوراً بنفسي. ذات يوم التقيت بزملاء قدامى للدراسة في خربة. كانوا يصطادون الحسّون، بطاوة مملوءة بالدبق المصنوع من رضّاعات أطفال مذوبة، ويخفون أفخاخهم بإحكام بين الأدغال ويترصدون مرور العصافير. وقد أدى بهم فقرهم وانعدام معيل لهم إلى أن يجعلوا من هذه الصنعة سجلهم التجاري المفترض. كان من بينهم رضوان ابن الإسكافي، وعباس الذي كان أبوه معوّقاً ويلقب باسم

طريف : زيت-زيت، وبرّيتشا الذي لم تفلح أي مدرسة في احتوائه، والذي كان إيمانه بمنافع الدراسة يقل عن إيمانه بيوم الخيرات الموعود. يسكن في كوخ قذر غير بعيد عن بيتنا، وسط رهط من الإخوة والأخوات المتباينين. والده سكير مدمن، يمضي وقته ضيفاً على زنزانات محافظات شرطة المدينة. وأمه، امرأة مسترجلة قوية البنية ذات وجه مرصع بأوشام خضراء، تبيع الملابس البالية في مدينة جديدة، حيث تتعرض غالباً لمضايقات الشرطة. لم يتمكن برّيتشا من حفر جحر له بين ذويه، لذا، كان ينام في المدرسة. ومع تفاقم غضب معلميه الذين لم يعودوا قادرين على احتماله، بدأ شبابه بالطيش واختار لنفسه حياة التيهان. بشعر أشعث ومناخر متقشّرة من كثرة التمخّط، تعلم أن ينام خارج بيته، ثم أن يستغني عن عائلته ؛ على أي حال، من كان سينشغل بذلك؟ كان يكسب عيشه من عمولات صغيرة يتلقطها هنا وهناك، وأحياناً من التسوّل.كنت أضبطه بانتظام أمام عتبة بابنا وهو يرضع أعقاب سجائر متغضنة أو يتجرّع مشروبات كحولية تنبعث منها روائح غريبة. وبما أنه كان مسلياً ومتجرداً من المصلحة، فقد كنت أدعوه من حين لآخر للنوم في بيت الغسيل. بقي معترفاً بالجميل، ولم يكن يتردد في التنازل لي عن تحف الزينة التي يجدها في قعر صناديق القمامة، مقابل دريهمات زهيدة. كان بريتشا مغتبطاً بلقائي ثانية، ولكي يثبت لي مدى اشتياقه، تخلى مؤقتاً عن صنع أفخاخه، واقترح أن يتقاسم معي ومع ضيفي وجبته الخفيفة المتواضعة.

— هل صحيح أنك دخلت في الجيش؟ عندما علمت بذلك، لم أقدر على تصديقه. قلت إنّ محمداً قد فقد صوابه.

تتطوع في الجيش، وفي سنك، ما هذا الهراء؟ لحد الآن لم تدخل في مخّي. أحياناً، عندما أمر أمام بيتكم، أفكر فيك. أقسم لك بأني قلق عليك. أقول بأن محمداً صغير جداً ولا يستطيع أن يدافع عن نصيبه من الطعام أمام شبان الكتائب الأقوياء. لقد أخبرني جندي قديم بأن حياة الثكنة ليست بالأمر الهيّن. تصوّر أنه هو نفسه القوي والحيلي، قد آل به الحال إلى أن يقفز من على السور. وأنا، بينما كان يقص علي مآسيه، كنت أقول في نفسي يا الرب الزين! ما الذي دهى بعقل صاحبي وهو لطيف وعاقل لكي يحشر نفسه في وكر زنابير كهذا. هل دخلت حقاً في الجيش؟

— هذا صحيح.

فضرب على جبينه براحة يده كمن أصابه بلاء، وشدّ على ياقة كنزته ليتهوى، فقد كان على ما يبدو، متأسفاً لما حدث لي.

— وهل يعجبك الحال؟

— ليس كما في البيت.

— أنا لا أشعر بالراحة في البيت. لا أشعر بالراحة في أي مكان. لكني لن أنخرط في الكتائب مهما كان الأمر. لست مجنوناً. أخاف من مجرد تخيّل نفسي في ثكنة، محاطاً بأشخاص يلطمون كالوحوش ويلعقون صحني وكأن كل شيء مباح لهم... هل أعطوك سلاحاً وكل شيء؟

— ليس بعد.

— يا لها من فكرة خرقاء. لا بد أن يكون المرء قوياً ليقوم بما تفعله. صدّقني، لم يدخل الأمر في مخي بعد... ومن يكون صاحبك؟ هل هو جندي أيضاً؟

— اسمه جلّول. ابن شهيد. ويمضي عطلته معنا.

ارتجف جلول واكفهرّ وجهه الذي كان منذ لحظة متألقاً. لاحظت التغير الذي طرأ على سلوكه دون أن أفهمه ودون أن أتلكأ عنده. كان ولداً محيّراً، ذا حساسية مخدوشة. كنت قد اعتدت نوعاً ما على تقلّباته الفجائية التي لا تسفر عموماً عن عواقب خطيرة. وعندما أصبحنا بمفردنا، انهالت لكمته على وجهي بغتةً، وطرحتني أرضاً. ولم يمهلني وقع المفاجأة وقتاً لتفادي لكزاته. وانقضّ عليّ وهو يدمدم بحنق، ولم تتوقف لكماته إلا بعد أن أطعمني علقةً ساخنةً تركتني في حالة شبه إغماء.

— هل قلت لك أنا بأن أبي كان قد مات؟

— ظننت...

— هل قلت لك ذلك؟

— كلا.

— إذن، ما الذي حدا بك أن تتكلم عوضاً عني. أو لأنّ والديك يسكناني عندهما لفترة العطلة تظن بأن لك حقوقًا علي؟

— أقسم لك بأني لم أسئ النية.

— ليس لجربوع مثلك أن يسيء إلي. لم أقل أبداً بأن أبي قد مات. كان الوقت ليلاً، والقرية محاصرة. لم يفهم أحد ما كان يجري. لذا، هرب كلّ واحد من جهته، أتفهم ؟ كل واحد كان يسعى لإيجاد ملاذ... لم أهتد مطلقاً لطريق العودة إلى داري. وأبي، أنا متأكد من أنه لا يزال يبحث عني. وسوف يجدني... أنا ولده، وهو يعرف مغزى ذلك. لن يحتمل أبداً أن يربي ابنه أناس آخرون، إنه...

ثم ابتعد بخطى مزدرية نحو بيت قادر.

لم يغفر لي أبداً، وأجهض كل محاولاتي للتصالح معه.

بعد مخاصمة جلول، وجدت نفسي وحيداً. ودفعة واحدة، صار كل شيء يحزنني. لم تعد العطلة تجعلني أجري. انطويت على نفسي وانزويت. بدأت شيئاً فشيئاً أدرك ما يدور من حولي. لاحظت أن التيار لا يزال مكهرباً بين والديّ. المشاحنات الزوجية التي كانت تحدث بينهما في الماضي قد خفّت، لكن سوء التفاهم لا يزال رابضاً، أصمَّ ومتعنتاً ولا يفتأ يزداد خطورة. كانت أمي تلوم زوجها على شغفه بالنساء اللواتي يظهر معهن في كل مكان دون حياء. وأبي كان يؤسفه أن زوجته راضية عن عالمها الريفي، وبقيت تلك الدابة الفلاحة الطيبة التي تنشغل بتألق سجاف ستارة أكثر مما تنشغل بتألق خدّيها. كان قد حاول تمدينها، وحثها على الاهتمام بالأناقة وتفنن العيش، دون طائل.كانت البدوية متمسكةً بطقوسها، وتهمل هندامها، وتصر على أن لا تكون سوى أم تسهر على رعاية أطفالها، وربة بيت لا نظير لها. صحيح أنها كانت تطبخ أطباقاً تسيل اللعاب، وتجعل من بيتها أنظف من غرفة عمليات، لكنها كانت تنهك نفسها في العمل وتترهل باطراد. وأبي كان يحلم دوماً بالزواج من امرأة متحضرة تعرف كيف تلبس على الطريقة الغربية وتعرف كيف تضع مساحيق الزينة بمهارة. قبيل الحرب، في الوقت الذي كان يمارس فيه مهنة ممرض غير مرسم لدى مستوصف قنادسة، كانت عينه على دونيز إيرنيست، الفرنسية ذات الضحكة الرنانة التي كانت تسلب لبه. كانا يتحابان وينميان معاً نوايا سعيدة. لكن جدّي كان له رأي آخر. فغر أبي فمه مشدوهاً وهو على البرخان عندما جاء أحدهم ليعلن له بأنه سيتزوج : "اذهب واغتسل أيها المحظوظ، لقد عثروا لك على زوجة". كان الأمر بهذه البساطة. تعرف أبي على شريكة

حياته للمرة الأولى أثناء ليلة الزفاف. لم يريا بعضهما أبداً قبل ذلك. وفي ضوء السراج الخافت، ظنته أعمى وظنها هو قرعاء. تعاشرا ثم تحابا بقوة جعلتهما يتعاهدان على ألا يفترقا مدى الحياة ؛ حتى في الآخرة كانا سيبحثان عن بعضهما. ورسخ مولدي عهد زفافهما. كان أجمل أيام حياتهما. حياة بسيطة، متواضعة لكنها كريمة. كانا فقيرين، هو الأمير المخلوع وهي البدوية المتعبة، ولم يكن لهما من طموح سوى تنشئة أطفالهما على أسس الاحتشام الذي يتحلى به أولئك الذين لم يتخلوا عن كل شيء. طوال مدة الحرب، كانا يتآزران بشجاعة ونكران ذات. وبدل أن تهشم الغيابات المتكررة حبهما، عززته حجراً بحجر كالحصن المنيع. لم ينل أبي حظاً كبيراً من التعليم، إلا أن الرسائل التي كان يبعثها لأمي، الأمية، تطفر بالعواطف التي لا يضاهي طفوليتها سوى نقائها ؛ كانت عبارة عن بطاقات بريدية تمثل دومًا زوجين أو حبيبين منتشيين يمسك أحدهما بيد الآخر داخل قلب ذي ألوان قزحية. احتفظت أمي بإحداها بحرص شديد، بعد الجرح بوقت طويل، في صندوق منجد بالحرير الأرجواني اللون، وسط قوارير عطر صغيرة وأصداف وحلي مبهرجة... بطاقة أَضَعْتُها ببلاهة فيما بعد عندما انتهكْتُ حرمة مقام تنهيداتها.

كان يخامرني إحساس مسبق بأنّ الأمور سوف تتعقد، وبأن حكاية مدرسة الأشبال هذه ليست سوى مرحلة ضمن المشاريع التي كان أبي يبنيها في السر. وجودي في البيت منعه من التمادي. كان يحبني. كان عليه أن يبعدني بأي شكل، وأن يتعود على غيابي. من قبل، في عام 1963 اتّخذ زوجة ثانية، سيدة لطيفة من تلمسان، رقيقة وأنيقة كانت تذهل

المتسكعين في الطرقات. ورحل ليسكن في الطابق الثالث من عمارة عادية قرب مدينة جديدة. لكني كنت موجوداً، بينهما. بعد مضي ثلاثة أشهر أرسل أبي حرمه المصون لبيت أهلها وأعادني إلى البيت. لم تحقد عليه أمي، كما أنها لم تفعل شيئاً لاجتذابه. واستؤنفت المشادات بأعنف مما كانت. وهكذا، أثناء إحدى تلك المشاحنات المقيتة، حيث تطغى الشتائم على صخب تكسير الأواني، وجدت نفسي مكرهاً على الخروج في الليل لشراء تلك السيجارة المشهودة التي وجدتها أمي في محفظتي. كنت أودّ أن أنفث روحي دخاناً.

— بم تفكر؟

قالت أمي وهي واقفة خلفي على الشرفة، وقد ارتكزت سلة غسيل معصور على ردفها.

— لا أفكر في شيء.

— قد تكون لا تفكر في شيء، لكنك بالتأكيد كنت تفعل شيئاً ما.

— لم أكن أفعل شيئاً. أحب أن أكون وحدي.

— لكي تدخن خفية.

— أنا لا أدخن يا أمي.

أخذت تنبّش من حولي قبل أن تتفرسني.

— دعني أشم بخرك، هيا.

— أمي...

رفعت يدها الطليقة بإشارة للتهدئة وكفت عن الإلحاح. ثم شرعت في نشر غسيلها على رؤوس أصابعها، فقد كانت قصيرة القامة. تركتها تبسط ثلاثة أو أربعة شراشف وسألتها :

— كيف مات ريكس؟

— أوف، الكل يموت يوماً ما.

— هل تعذب؟

— إطلاقاً. لم يظهر أي علامة مقلقة. نام ذات مساء ولم ينهض بعد ذلك.

— أتظنين أنه مات بسببي؟

أوقفت حركاتها للحظة لدهشتها من كلامي،ثم استأنفت نشر غسيلها قالبة رأسها بضحكة مصطفقة ووجيزة.

— من أين تأتيك مثل هذه الترّهات؟ الحزن، إنه للبشر. للحيوانات مشاغل أخرى.

ثم اقتربت مني، واحتضنت يداها الصغيرتان اللتان غضنتهما الأعمال المنزلية الشاقة يديّ برقة وقالت:

— لست قلقة عليك يا ولدي. إن روحي مطمئنة من هذه الناحية. لست أدري كيف تجري الأمور هناك حيث توجد، لكن هذا من أجل مصلحتك.لم أقبل أن أتركك تذهب عن طيب خاطر. كان هناك اختيار لابد من القيام به. هنا، حظوظك منعدمة في تفادي الجنوح. كنت تختبئ في المدخنة كي لا تذهب إلى المدرسة، ورأسك يجوب دوماً في أماكن أخرى. كان أبوك يدللك. وأنا، كان لدي من الأشغال ما لا يترك لي دقيقة واحدة لأكرسها لك.كلا، وجودك هنا لم يكن ليجديك نفعاً. كنت ستصبح مثل زملائك الذين أصادفهم في الأسواق يعرضون خدماتهم كحمالين.

ودون أن تطلق يدي، جلست على الأرض وأجبرتني على القرفصة. كانت عيناها تشعان بالحنان والأمل. لم نكن قريبين من بعضنا البعض كثيراً. في قنادسة عمتي "بحرية" هي من كانت تغمرني بعطفها. كانت تحبني كما يندر أن يُحَبّ إنسان. وقد قالت قبل موتها إثر مرض طويل، بأنّها

ستشتاق إلي حتى في الجنة. وفي وهران كانت العمة ميلودة تدللني. كنت أمثل كل شيء بالنسبة لها، ولم تكن تسمح لأحد أن يكدرني. في حين، كانت الأمور بيني وبين أمي تجري بصفة عادية. كنا نحب بعضنا، وانتهى.

لم تكن علاقاتنا بحاجة إلى شطط لكي تتساند. كانت أمي وكنت ولدها، نقطة. لم يكن هناك ما يقلقني بشأن المكان الذي تخصصه لي في قلبها، وكما هو الحال دوماً أمام مكسب لا متنازع فيه، فقد كنت أهملها نوعاً ما لأصب اهتمامي على عمتي التي لا تتحرج في تبويئي أعلى المقامات، مما كان يعطيني إحساساً بالرضى بأني أرمي عصفورين بحجر وأصيبهما معاً.

— هل قصصت عليك هذه الحكاية؟

— أية حكاية؟

— حدث ذلك في مكناس، ذات يوم سوق. كانت هناك امرأة تتبعني بتعنت من بسطة إلى بسطة. وكانت تلتهمك بعينيها. حسبتها للوهلة الأولى سارقة أطفال. لكنّها لم تكن لا عرّافة ولا متسولّة، لأنها رفضت دراهمي. كل ما فعلته هو أن طلبت مني أن تنظر إليك عن كثب. رفعت ذقنك بإصبعها، وقالت لي بكثير من الاحتراس : "سيكون لهذا الصبي شأن عظيم". ربما كانت مجنونة، لكني صدقتها. ولا أزال أصدقها إلى اليوم. لهذا فأنا مطمئنة. إنك مبارك يا ولدي. حيثما حللت ستخضرّ الدنيا من أمامك ومن خلفك.

4.

كانت العودة إلى مدرسة الأشبال فظيعة. لم أنم طوال الليل. والرحلة كانت مريعة. وأن ألعن نفسي عند كل منعطف. هذه المرة، كنت أعرف ما ينتظرني. النهوض في الصباح قفزاً، والنعيق الشواشي لنافخ البوق، والتجمع بخطوة العدو، أضحت الحياة المضبوطة على عقارب الساعة تثقل على روحي كالسندان. وبما أنني كنت تربيت في جو من الحرية النسبية، فلم أستطع قبول فكرة التعفن وسط حصن يمتصّ دمي، ويبدو لي ضيقاً كمصيدة جرذان. أنا من كان مغرماً بالتيهان حيثما تقودني أحلام يقظتي، وبالاعتكاف في قعر ركن أنسى فيه نفسي. فقد كنت ولداً انعزالياً. من المستحيل في مدرسة الأشبال أن ينعزل المرء دون أن يعترضه ممرن ما. كان لدي إحساس بأن هناك من يرقبني ويترصدني. أكره أن آكل وأنا لست جوعان، وأن أنام دون الشعور بالحاجة لذلك، وأن ترتعد فرائصي خشية ألا يكون سريري مرتباً بإحكام، وأن لا يكون لدي الحق في أن ألتحف غطاءً حين أشعر بالبرد، وأن لا يكون لدي الحق في الاعتراض حينما يحلو لي. كانت حياة لا طعم لها، أقرب إلى تربية المواشي منها إلى تربية البشر ؛ تمرن على الزهد بأسمى كماله. لا شيء يحفّزني، ما عدا ضرورة الانغماس في الآخرين، وتجنّب الظهور. ومكبر الصوت المشؤوم ذاك، لِمَ يحوّل آحادي إلى أيام إنكار علني؟

في السنة نفسها، تزوج أبي للمرة الثالثة بمغتربة تكاد تكون مراهقة. وبما أن أحداً لم يحطني علماً، فقد صُعقت لوجودها في البيت أثناء عطلة الصيف. لم يكلف أبي نفسه

عناء تقديمنا لبعضنا البعض. عمي هو الذي تكفّل بذلك، بضحكة غير لائقة. لم يدم الحوار طويلاً. تعطّلت الكلمات. وسط لحظات مكدّرة، ذات صفاقة لا توصف. كان من المفروغ منه بالنسبة لي ولها أن نمثل على بعضنا. أنا مبعداً. وهي دخيلة. كان عالمانا متباعدين بعد القطبين. وفوق ذلك، كانت تحمر خجلاً بمجرد أن تتعثر نظرتها الوجلة بنظرتي. لم أكن أدري إن كان عليّ أن أحبها أو أكرهها. أحجمت عن إظهار أي نوع من الاهتمام حيالها. أذكر عندما ذهب أبي إلى الثكنة، تقوقعت فوق الدرج وأمسكت رأسها بيديها يائسة، وتطلقت بعد الدخول المدرسي مباشرة.

انضم إلينا هواري في المشور في سبتمبر 1965. كان أبي بكل تأكيد قد طمّعه بأشياء عجيبة. إذ بمجرد وصوله سأل عن المسبح وحديقة الحيوانات والملاهي وغيرها. (...) ولما تفطّن للكذبة، بكى طوال الأسابيع الأولى ثم أذعن لحظه التعس ودخل في الصفوف.

أعدنا نحن الثلاثة تشكيل هذه العائلة التي تخلّصت منا. كنت الأكبر، وكانوا أولادي. سعيت بكل حرص إلى القيام بواجباتي كأخ أكبر إلى أكمل وجه، فقد كنت عاقلاً منذ صغري -أمر لم يكن بمقدوري تفاديه بكل تأكيد-كان صغاري يثقون في أحكامي ويطيعونني بوداعة مؤثرة. وافقت على اختيار قادر للانضمام على المجموعة الصوتية للمدرسة، ووجهت هواري نحو نشاطات رياضية. أما أنا، فلم تثر بنيتي الهزيلة اهتمام قسم كرة القدم، لذا اخترت نشاطاً أقل رجولة : تأمل العصافير.

في تلك الأثناء، غادرنا جلّول. فقد عثر عليه أهله أخيراً. لم أر في حياتي طفلاً يطير فرحاً مثله. ظننت أنه بإمكاني

انتهاز فرصة سعادته للتصالح معه. رفض عرضي وسارع لتعويض ما فاته دون أن يوجه كلمة إلي أو حتى يرميني بنظرة.

توالت أيام الدراسة رتيبةً متشابهةً. كانت ترتبط بسلسلة مضجرة من أحداث مُعادة ذات عقد لا تُفك وكَبْت لا يُحتمل. كنت أعاني من السأم ورأسي موجه دوماً صوب النافذة، أتأمل نفس الشجرة، ونفس قطعة السماء، نفس الجزء من الفناء المقفر والرمادي. عصفور في قفص، هذا ما كنته فعلاً. عصفور محرّم بأجنحة متآكلة، وكأنه محشو بالتبن، جاثم على غصنه لا يحرك ساكناً،مع إحساس بأنه أصغر من حبة دُخْن، وأهشّ من دريئة ورقية. وبما أنني لم أكن قادراً على الطيران، تركت نفسي على سجيّتها، أهملت واجباتي ولم أعد أشارك في الدروس، أو أرتبك عندما يشير إلي إبهام المعلم. ولم تفلح التعنيفات ولا ضربات المسطرة على الأصابع في شيء. ومع الوقت، كفّ المعلم عن إزعاجي. لم أكن بليداً ولا طائشاً. كنت منزوياً في منفاي، لا أبدي عداوة ولا حقداً. ولا أكنُّ ضغينة لأحد. كنت ناشداً الوحدة، لا أسأل شيئاً ولا أطَالب بشيء. أعرف حدودي وأجعل منها حصوناً أحتمي وراءها. لم يعد العالم المحيط بي يعنيني. بل أنكى من ذلك، صار يخيفني. فَهِم الجميع بأنني حزين، على غرار رفقائي، وظنوا بأن الأمر ليس إلا فترة عصيبة آيلة إلى الانفراج. لكن الأمور لم تنفرج؛ لم تكن مجبرة على ذلك. إذ لم تكن رهينة تقلبات مزاجنا وطوع آمالنا المنشودة، ولا هي كانت تحت أمرتنا. كان القدر هو الذي يتحكم فيها، أي ذلك الفيضان المبرمج الذي لا يفترض أن يتريث لمعاينة الكوارث التي يلحقها. منذ فجر التاريخ، والعالم رغم صروف الزمان – أو ربما عن طريق ربطها إلى عربته كجياد حرب – يسير بنفس

الوتيرة دون مداهنة أو تحرّج، بانصياع تام للقوة الهادئة لمنطقه الخاص. ضرباته ليست عفوية ولا تجاوزاته عشوائية ؛ وفي مكان ما ، ينمق بجد نوعاً من العبرة، وكم هو محظوظ ذلك الشقي الذي يكتشفها. ومما لا شك فيه أن له أوقات أوج وأوقات أفول، وله لحظات ألم ولحظات فرح، وله أسباب لا أعيها لأنّها لم تكن لتكترث بالضرر الذي ألحقته بي، والذي أقبله دون مناقشة. ومن كنت يا ترى لكي أراجع في قضاء القدر؟ ومن جهة أخرى، هل كان ينبغي أن نعترض على مصيبة لا تحدث إلا للآخرين؟ إذا كان الجواب نعم، فباسم ماذا؟ كنت صغيراً في ذلك الوقت. لا أعتقد أني قد ثبّت الأشياء بطريقة فلسفية، لكني قبلتها برمتها دونما ترتيب، ودون أن أتمرّد. لم يكن حزني ليسمح لي بالاعتراض. ولم يقترح علي البديل. علينا أن نحتمل ما لا نستطيع منعه. خاصة إذا كنا لم نبلغ الثانية عشرة من العمر بعد. الطفل، لا يعدو أبداً كونه طفلاً. وهو مضطر للتأقلم. ويكمن كل حظه في قدرته على التكيّف. ليس له غيره. حظ واحد وفريد. متناه في الصغر وغير قابل للتجديد. كانت غريزة البقاء لدي بمثابة الحكمة. لذا تشبثت. ورفض ذاك الشيء الصغير الذي كان يتضاءل في ذاتي أن يذوي تماماً. كان مجرّحاً، مخرباً تخريباً بليغاً، ومع ذلك يقاوم. الحياة قصة، والقصة ليست بالضرورة حكاية جنيات طيبات. إنها شيء ما يحدث لشخص ما، فإما أن تبنيه أو أن تذريه، أن تصنعه أو أن تصرعه، بسيادة وثبات، دون تساهل ودون رحمة. والمهم هو ما نجنيه منها وليس ما نتركه لها.

كان لنا كل مساء سبت موعد مع السينما، حيث تعرض علينا أفلام مبهمة نفهم أحداثها بالكاد. مثل السلسلة التي

لا تنضب لفيوري الفرس الأسود التي كان يقشعرّ لها بدني أو - وهذه تعجبني أيما إعجاب - مقالب لوريل وهاردي ومحن شارلي شابلن الذي كان مومن يقلده ببراعة مذهلة. في بعض الأحيان، وعلى هامش قنوطي، كنت أكتشف في نفسي ميولاً خجولة للتهريج، ربّما بفضل غريزة البقاء تلك ؛ لكن ذلك لم يكن يستغرق سوى مدة الاستراحة. وسرعان ما يعلن نافخ البوق عن إطفاء الأنوار ؛ وكان علينا أن نجذب الغطاء على وجهنا ونتظاهر بالموت. ثم يمرّ الممرنون في العنابر ليتحققوا من أن التعليمات قد طبقت بحذافيرها، وويل للمتشيطنين الصغار.

كان أغلب الأشبال يجهلون كل شيء عن السينما قبل أن يحطوا في المشور. كان العرض يجري حسب طبيعة الفيلم، تارة في صمت مطبق، وفي هرج صاخب تارة أخرى، خاصة عند التدخل القوي لصاحب الوجه الشاحب الذي ينبجس بأعجوبة من وراء الهنود لنجدة عربة مشرفة على الهلاك ويُظَنُّ بأن لا أمل في نجاتها. كانت صرخاتنا تهتف للطلقات النارية، وتسقط الهنود الحمر من على صهواتهم، ثم تتضاعف لدرجة أن تخيفنا، ويدخل الأكثر استغراقاً في الفيلم في حالة غَشْيَة وهذيان راسخين.

أعترف بأن الهستيريا الجماعية لم تكن تناسبني. لم أكن أحتمل الضجيج وتوتر الأعصاب الذي يسببه عنصر التشويق، وأضمر كرهاً مقيتًا لأفلام العنف. وكان العديد من الأشبال أيضاً لا يستسيغون هذا النوع من الأفلام. كانت تحيلهم إلى ذكريات مؤلمة لا تزال في الغالب جيّاشة. لم نكن نحب موسيقاها المقلقة، المهيجة للنفوس إلى حد بعيد والتي كان ينتصب لها شعر أبداننا ؛ كما كانت تلك الظلمة المنطوية

على الأخطار التي تنبجس منها يد تمسك سكيناً تجعلنا نقفز فوق مقاعدنا ؛ وكنا واثقين من أن صرخات الرعب والعينين الجاحظتين للقاتل ستزورنا حتماً في نعاسنا.

كنت انفعالياً، مرهف الحساسية، تهزني المواضيع المحزنة في الحال. ومع أنني كنت أفضل السينما الهزلية – التي تكون فيها المأساة البشرية أقل حدة، وتحمل المآسي والمصائب على محمل السخرية–، إلا أنني كنت أندمج بشكل أفضل مع القصص التي تدور حول أسرة متماسكة في مواجهة الخصم. كنت معجباً بالأم الشجاعة أو بالولد المخلص أو الوالد المحزن في إيثاره لذويه. وكان ممثلي المفضلون هم من يقومون بمثل هذه الأدوار. أشاطر انفعالاتهم وأستلهم من قوتهم ؛ كانوا يعلمونني مواجهة تقلبات الزمان. لكن الممثل الذي كنت أحبه دون منازع من بين كل الآخرين كان داري كول. كان داري كول يشبه أبي إلى حد الالتباس. يضعان نفس النظارة ولهما نفس التقاطيع ونفس الهيئة ونفس الشعر. عندما انبسط وجهه للمرة الأولى على الشاشة، كاد أن يُغْمى علي. فقدت القدرة على تمالك نفسي داخل القاعة المظلمة. حين يضحك داري كول أضحك أيضاً ؛ وحين لا يستطيع داري كول العثور على شيء ما، أصرخ بأعلى صوتي لأرشده إليه، ولا أنصت لاحتجاجات زملائي ؛ وحين يحب داري كول، أكون سعيداً من أجله ؛ وحين يمتطي صهوة درّاجته الثلاثية، كنت على استعداد لكي أتبعه إلى آخر الدُّنيا. ثم تعود الأضواء دون سابق إنذار وتنمحي الشاشة. بالنسبة لزملائي يكون الفيلم إذاك قد انتهى، أما بالنسبة إلي فهي نهاية الزيارة الأبوية وذهاب الكائن العزيز...

بعد ظهر يوم الأحد، كنا نذهب في رحلة. دون ابتهاج. نعبر، بطوابير اثنين باثنين ويداً بيد حيّاً في تلمسان تحت التصفيقات المتفرّقة للمتسكعين وزغاريد النساء المتلحفات، وتعليقات الناس : "إنهم أولاد الشهداء -. مساكين، يقطعون نياط قلبي. لا بد أن العيش دون أسرة أمر محزن. أتساءل إن كانوا يهتمون بهم جدياً -. يبدون في تمام الصحة -. المظاهر خداعة. لا أحد يستطيع أن يتكفل بالأطفال سوى الأولياء". كان الأشبال المراهقون عموماً يستاؤون من عبارات التعاطف الفظة تلك، الأقرب منها إلى الشفقة، والتي كانت تغيظهم إلى حد التجريح. فكانوا يطرقون وينفثون تأففهم للتعبير عن سخط على أهبة الانفجار. في حين كانت نفس العبارات تُفرح الأقزام المتعطشين للحنان. إذ كانت أعناقهم تشرئبّ لإعطاء هيبة بمستوى الاهتمام الممنوح لهم. في بعض الأحيان، كان الجنود السكارى الذين على ما يبدو قد ضاق بهم جلدهم يرشقوننا بملاحظات جارحة بدون مُسوّغ لمجرد الإساءة من نوع "لقطاء الليجيون" للتلميح إلى التجاوزات التي ارتكبتها الفرقة الأجنبية أثناء حرب التحرير. لكن الممرنين كانوا يُلزمون هؤلاء حدودهم في الحال، عندما لا تأتيهم لكمة صاعقة من أحد المارة ترجّ لها الأرجاء. لم يكن لنا الحق في أن نعبر عن سخطنا أو أن ندافع عن أنفسنا. فكنا نكتفي بأن نزدرد الشتيمة بصمت. وهو السبب الذي كان يجعلنا نمقت الرحلات. كنا نشعر بأننا نُعرض ككائنات من كوكب آخر أمام فضول الناس ورعونتهم، وأحياناً مرارتهم. كما كانت الشوارع التي نسلكها تشكل بالنسبة لنا تضاريس أراضي العدو. كانت الشرفات تراقبنا والأبواب تصدنا والنظرات تشاكسنا.

لم يكن ذلك صحيحا ؛ بل كان ما كنا نظنه، ما كنا نحسه في أغوار أنفسنا لأننا كنا نتوقع أن تنفطر السماء فوق رؤوسنا في أي لحظة. والسماء لم تكن تمثل فقط الصاعقة الملفوفة بملاحظة بذيئة، فقد كانت أيضاً ضربة الهراوة المخزونة في آيات الرأفة المُستَهْجَنَة، الفظة والبليدة.حتى أنني أستطيع أن أقول إنّ الشتائم لم تكن تجرحنا بقدر ذلك الشيء المُنَقِّص الذي يجعل وجه أحد المارة مُنْفِّراً بفعل الشفقة. نمشي عابسين بسحنة مقلوبة وبأعصاب متهيجة إلى غاية آثار المنصورة، التي تبعد بحوالي خمسة أو ستة كيلومترات عن المدينة. وهناك نكتشف وقد أنهكنا التعب والقرف، دمامل بيضاء تغطي أقدامنا، فننزع أحذيتنا، ونستلقي على العشب بأعين تائهة لهضم إهانة تم تلقيها أثناء الطريق بالنسبة للبعض وبلوغ السَّيْل الزبى بالنسبة للبعض الآخر. وفي تلك الأوقات بالذات، ندرك مدى قلة حظوتنا، وغالباً ما نثور على سوء الطالع الملتصق بنا بمثل اليقظة الكاسحة لحارس مساجين الأشغال الشاقة. لم يكن بمحض الصدفة أن تتطور مشاداتنا لأتفه الأسباب لكي تنفجر على شكل مشاجرات شديدة العنف. فقد كنا حين ننهال ضرباً على بعضنا البعض، ننهال لتدمير تلك الصورة التي كوناها عن أنفسنا، حتى لو اضطرنا ذلك إلى تهشيم وجوهنا وتحويلها إلى عصيدة.

في عام 1966، كنت قد بلغت الحادية عشرة من عمري عندما علمت بأن أبي قد تزوج للمرة الرابعة، وطلق أمي نهائياً. علمت ذلك بالصدفة أثناء إجازة. كان عمي الذي جاء ليأخذنا متجهم الوجه. دعانا بحرج جليّ للركوب في سيارته السيتروين ذات الحصانين (دوشوفو). كان الطريق بين تلمسان ووهران يبدو لي وكأنه يسير بالسرعة البطيئة.

اضطررنا للتوقف مرتين بسبب توعكاتي التي انتهت بالتقيؤ. كان هناك شعور مسبق مُغْثٍ يتخمر في داخلي. شيء ما كان يخبرني بأن إعصاراً سوف يعصف مرة أخرى بحياتي... قررت وهران أخيراً أن تبرز من بين الآفاق تكتنفها الأبنية الوهاجة. عند مدخل المدينة، دارت السيارة على اليمين بدل أن تسير إلى الأمام. لم يفهم قادر ولا هواري السبب في ذلك. اكتفيا بتقطيب جبينيهما. رؤية البنايات الأولى لفيكتور هوغو قلصت حنجرتي. وتدحرجت دمعة على خدي. ربتت يد عمي على ركبتي، وقال لي : "إنني في غاية الأسف". نفذنا إلى بتي لاك، حي موبوء وملوث بانبعاثات السبخات المحيطة. كانت الأزقة تعج بأشخاص بطالين وبأولاد صغار هائجين. أشار لي عمي قائلاً : "هنا"، قبل أن يتوقف أمام عمارة كريهة. وعين لي باباً أصفر في الطابق الثاني يؤدي إلى شرفة مشتركة تمتد على طول الواجهة المهترئة للبناية. كفكفت جفوني ونزلت. وعندما أدرك هواري على وجه التقريب فظاعة الموقف، تشبث بمقعده ورفض أن يتبعني. تحدث معه عمي طويلاً بصوت هادئ مقنع. رأيت الأصابع الصغيرة لأخي ترتعش وترخي انقباضها لتضيع فوق وجهه المغمور بالدموع. لحق بي إلى الرصيف. لم نجرؤ على النظر إلى السيارة وهي تبتعد، وعلى مواجهة النظرات المبهوتة لقادر. مكثنا طويلاً جامدين على قارعة الطريق، ثم أمسكت بذراع أخي وقلت له :

— هيا، لندخل إلى البيت.

قابلتنا أمي برأس معصوب بوشاح مضحك وشعر منفوش. كانت تستجمع قواها بصعوبة بعد طلاقها. قابلتنا امرأة محطّمة يتعذّر التعرف عليها. نكبتها أثارت شديد حنقي.

أخبرتنا كيف أغار عليها جنود أرسلهم أبي، دون سابق إنذار، لطردها من فيلا شوبو.

— رفضوا الإنصات إلي. تلقوا أوامر صارمة. ذكرني ذلك بالحرب عند نزول المظليين. لما رفضت أن أتبعهم، هددني رئيسهم بتهشيم جمجمتي بأخمص بندقيته. كنت وكأني في حلم مزعج. لم أكن أظن أبداً أن أباكم قادر على فعل كهذا. أن يتزوج ويذهب، فهو حر، لكن أن يرميني مع الأطفال في الشارع، فهذا لا يخطر على بال.

كانت الشقة صغيرة. كرهتها من الأساس. تكدّست داخل إحدى الغرف الجرداء بقج قليلة كانت كل ما تمكنت أمي من إنقاذه. لم تكن توجد فرشات أو مقاعد، لا شيء سوى بعض الأغطية العسكرية المفرودة على الأرض، ومائدة صغيرة واطئة، وبضع وسائد ورائحة خيانة نتنة تعيث في أعماق الزوايا. أمسكت أمي بيدي. وعلى ثغرها ابتسامة تحاول عبثاً أن تنبعث من جروحها. وأمالت رأسها جهة كتفها وقالت لي :

— إنه أمر مقدّر، يا ولدي. المكتوب. لا تحقد عليه. فهو يحبّكم من كلّ قلبه، لكن في بعض الأحيان لا تستطيع قوى الدنيا بأكملها أن تقف حائلاً أمام إغراء النساء. أبوكم أحبكم دوماً. ولن يتخلّى عنكم.

لم أكن أشعر بالكراهية تجاه أبي. كنت محتاراً فقط، وقد أخذني مآل الأحداث على حين غرّة. كنت متأثراً جداً في ذهني. أصبح من الصعب من الآن فصاعداً منح الثقة لأي كان.طغى الكذب على العالم، وتعرت المظاهر دون حياء. بالأمس كنت الولد الأكبر، كنت سعادة رجل وفخر أسرة متلاحمة كأصابع اليد. كاد أبي أن يصبح مهزأة بإظهاري

حيثما حل ؛ وأصبح، وهو الضابط المهيب، خرفاً تضطرب نفسه لأقل تكشيرة واهية على محيّاي، ويلبي بسرور كل نزواتي، ويقبع على أربع ليجعل لي من ظهره مطية حصان خشبي. من الصعب تصديق كل هذا الكرم وكل تلك الموافقة ؛ من الصعب على المرء أن يستمر في الاعتقاد بأنه "أجمل شيء حدث لشخص ما"، عندما يجد نفسه برمشة عين قد أحيل إلى مرتبة الأشياء الدنيا - تميمة سحرية فقدت مفعولها، وليس لها حتى أن تجاور الأشياء القديمة المهملة في السقيفة، خشية أن يعاد إليها الاعتبار يوماً ما، والتي مآلها التحلل في القمامات حيث يقوم متشرد أكّال المزابل بإيغالها بطرف عصاه وسط الأقذار. كان ذلك إجحافاً فادحاً.
كان أبي يمثل كل شيء بالنسبة لي : إلهي، وملاكي الحارس، وأخي الأكبر، ومارد مصباح علاء الدين. أساءتني زيجاته السابقة دون أن تسحقني. كنت أعرف بأنها ليست سوى هربة تثيرها نزوة، وبأنه سيعود إلينا ثانية ككل مرة يعطي فيها لنفسه فرصة للتريث والتأمل أو للهروب المؤقت. لم تكن غياباته تشوش نظام الأمور. كنا نفترض أنه كان في مهمة. وبالنسبة لنا، معالمنا بقيت على حالها، بما أننا نسكن في نفس الفيلا، ولنا نفس الجيران ونفس العادات.
هذه المرة، كان الأمر مختلفاً. فقدنا كل شيء : بيتنا في شوبو، وحيّنا، ومربط خيلنا. كنا غرقى تسوقنا الأمواج نحو شواطئ ضبابية. كان حيّنا الجديد يقلقني. ويخيفني منذ زمن طويل عندما كنت آتي لتمضية بضعة أيام من العطلة لدى عمومتي في فيكتور هوغو. حتى في ذلك الوقت، كان يمنع علينا منعاً باتاً أن نغامر في ذلك الحي الحقير المشبوه، حيث لا يتورع السكين لأتفه الأسباب عن ذبح رقبة وفجع

عائلة. كان ما يشبه بؤرة البؤساء، آهلاً بأشخاص متهورين، ومحفوفًا بحواجز لا تحصى. ويشنّ فيه صبية الأزقّة الوقحون المنقسمون إلى عصابات هائجة، من طلوع الصبح إلى حلول الليل، معارك طاحنة بأتم معنى الكلمة. بوابل من الحجارة والكلمات البذيئة التي تنبجس من كل حدب، مُهشمةً زجاج النوافذ، ومُقاطعةً سكينة الصلوات، ومُزعجةً المتماثلين للشفاء وجَارحةً المارة. وويل لمن يجرؤ على الوقوف في وجه المتوحشين. وقد يحدث أن يشعر أب بأن كرامته قد أهينت، عندئذ تتفاقم المعمعة لتشمل الكبار، فينهال المعول ليحسم النقاش. إنّه الغاب، وشريعة الغاب، ومخاطر الغاب. قد يفجّر عاطل عن العمل نسي نفسه مقابل عمارة غضب السموات. إذ لا يجوز بتاتاً أن يستنفذ نفسه على رجل واحدة أمام نافذة يمكن أن تطل منها فتاة أو كنة أو زوجة، يا للعار. كثير من البطّالين الذين شُكّ في تلصصهم على النساء، كانوا يضربون ضرباً مبرحاً في كل منعطف طريق. مع أن أولئك النسوة كن طوال النهار يتراشقن السباب من على شرفاتهن بسوقية وسلاطة لسان، ولا يترددن في رفع فساتينهن فوق عوراتهن غير مكترثات تماماً بالمتسكعين الذين يشكلون لجَان مساندة لدعم هذا الخصم أو ذاك، كي يزيدوا الطين بلّة، ويؤججوا نشوتهم. كما كانت تتشكل في لمح البصر تجمعات هائلة حول أوهى حادثة وأتفه حادث. وفي الليل، يبرز السكارى من الغياهب ويخطبون على ذواتهم الوهمية. وتملأ أصواتهم المتحشرجة صمت مراراتهم، مجبرين الأطفال إلى الهرع للاحتماء وسط أوليائهم. كانت كبسات الشرطة تهدئ الروع للوقت الذي يستغرقه التدخل بالقوة. وبمجرد اختفاء هؤلاء يتضاعف الصخب الليلي عنفاً.

كنت ساخطاً لأني إلت إلى مثل هذا الدرك القذر. لماذا بتي لاك؟

لمَ لا يكون قامبيطة أو بروتان أو بيلير حيث يسكن أقاربنا؟

كَان لأبي ما يكفي من الإمكانيات المادية والعلاقات ليجد لنا مسكنا لائقاً في حي هادئ. لماذا رمى بنا بين أنياب الذئاب في أخطر حي في المدينة؟

قالت لي أمي:

— اعتباراً من الآن أنت رب العائلة يا ولدي. أنت أبونا، ولينّا وأملنا. سيّدة مكناس لا تفارق مخيّلتي ولو للحظة. سوف تصبح ضابطاً كبيراً، وسوف تنسينا هموم اليوم. رأيتك في حلم منذ مدة قريبة، وأنت تمشي في النور. وعند نهوضي استعدت سكينتي.

كنا سبعة أولاد وأمهم فوق الحسبة. صار أصدقاؤنا القدامى يتحاشوننا، خشية خدش شعور أبي. بيتنا الذي كان في وقت ما لا يفرغ من دعاباتهم وهداياهم، يحطون على أمي من الصباح إلى المساء طلباً للمساعدة أو للوساطة. واليوم لا يجرؤون حتى على التفكير فينا. لم يكن بحوزة أخوالي شيئاً يذكر لتقديمه لنا. فقد كانوا يؤلبون السماوات والأرض لستر حالهم، و"عروشهم" لا تترك لهم فرصة هدنة. كان علينا أن نعتمد على أنفسنا فقط. انفتحت كل الجبهات أمام أمي. وجدت نفسها في الثلاثين من عمرها في عهدة الشارع - وهي التي تجهل كل شيء عن الحياة - وجدت نفسها وحيدة وقد أعيتها الحيلة، مسؤولة عن رهط من الأطفال، دون أي مَعْلَمٍ تستنير به على مرمى البصر. لم تكن بحرية قد بلغت الخامسة من عمرها بعد. وصليحة تتعثّر نحو سنواتها الثلاث. ونادية، آخر العنقود، تخطو خطواتها الأولى. واصل

عبد السلام تكوّمه في ركنه، إذ بدأ تأخره العقلي يتأكد ؛ وكانت قهقهاته المباغتة وخلواته الجموح تسلّي سعيداً، لكنها كانت تقلق هواري. كان يُعَتِّم الشقة ظل آثم، وكان في أشعة الشمس التي تتسلل لواذاً شيء من الخبث. اضطرت أمي لبيع آخر مجوهراتها لمراعاة المظاهر. ليس بوسع أحد مراعاة المظاهر. قد يهدهدنا الكذب على أنفسنا، لكن أن يصل الأمر إلى خداع الجيران، فتلك مسألة أخرى. قد يستعير البؤس من الجثث المرمية في المستنقع صبرها، لكنه يؤول دوماً إلى أن يطفو على السطح، أبشع من أي زمن مضى. ولم يمر وقت طويل حتى "أعدت" أمي دفتر ديون عند البقال المجاور، لعدم كفاية وانتظام المنحة العائلية. بعد صيف شوبو، ها قد حل اكفهرار بتي لاك ؛ وموسم القحط ينبئ بأن يكون قاسياً لا رأفة فيه ولا نهاية له.

أمضيت الليلة وأنا أتفاوض على هدنة مع مكانتي الجديدة، أتقلب من جانب إلى آخر تحت الأغطية. كانت أشباحي تحسب أرقي طاحونة ؛ فتتلكأ على شكل سلاسل ومسبحات لا تنتهي من التنهدات والشتائم التي لا يمكن كبحها. إن الشناعة لا تكمن في الفظاعة التي نكتشفها، ولا في الفعل الذي يبلينا بها، لكنها تكمن في المعاناة التي نكابدها. كان الألم يمزق أوصالي بسبب فراشي الحقير، والألم يعتصر أفكاري التي راحت تجيش على غير هدى. كنت أترقب بتهيج معذبٍ ساعة الخلاص، انبلاج الصبح الذي سيخلصني من الأشواك التي أنطرح عليها. كنت متلهفاً للانصهار داخل الحشد، ومراوغة الاكتئاب الذي يحث الخطى لمعاكستي، مستغلاً غرارتي كطفل، بما يشبه خدشة تُقتلع قشرتها فتنتهز الفرصة للتوسع أكثر فأكثر... أعلن المؤذن

قدوم الفجر كما يدق حارس مهووس ناقوس الخطر. خرجت إلى الشرفة على أطراف أصابعي فاشخاً فوق إخوتي وأخواتي الراقدين على الأرض. بزغ النهار مُكرهاً على حي الفقراء. وهاهو الضجيج الوضيع للعامة يُنَشّزُ نداء المؤذن : "حي على الصلاة، حي على الفلاح". في بتي لاك يأتي المرء كما يذهب، دائماً بخفي حنين، لكن بعزيمة لا تفتر أبداً.

أول زيارة لي للحي كانت فشلاً. كان هناك سوق على بعد فرسخين أو ثلاثة من عمارتنا. منذ نعومة أظفاري، ما فتئت الأسواق تسحرني. فجوها الاحتفالي يعيد إلي فلكلور قبيلتي البائدة، ويغمسني في أصالتي. كانت أيضاً وسيلة من بين وسائل أخرى للهرب من هواجسي. كلما ناءت بكاهلي صروف الزمان، أقوم بجولة في سوق -أيّاً كانت-فيهدئ ذلك من روعي في الحال. وبالإضافة إلى مفعوله العلاجي، فإن السوق تمثل قبل كل شيء الجزائر العميقة، القاسية والمستعصية والفائرة والمتعنتة، الواعية بجنوحها بلامبالاة، تجد نفسها أكثر ارتياحاً بين أحمرتها وعرباتها، منها قرب الشاحنات، وأكثر اهتماماً بصعاليكها ومشعوذيها، منها بالقواعد الأساسية للنظافة ؛ جزائر ارتدادية، تكن عداءً باطنياً للتنسيقات والتصحيحات، وتعجز عن التفريق بين الانضباط والعبودية، والرضى بالاستسلام، وترفض أن تعتبر الاعتذار شيئاً آخر غير اعتراف بالضعف والنفاق. كانت سوق بتي لاك تشبه كلّ هذا. ما عدا أنها تبالغ في ذلك. كان هناك عالم مجنون يتجمهر حول البسطات النتنة المملوءة بالدجاج وقطع اللحم المشبوهة ولفائف الأقمشة ومواعين البهارات ومنتجات السباخة. كان بائعو المأكولات الخفيفة يقترحون سندويشات قاتلة، وآخرون وجبات حقيرة ومشروبات تسبب

أضراراً تعادل تلك التي تسببها جرعة من محلول منظّف. وكان لدى النشّالين عمل كثير، يُعرفون من عيونهم المتحركة ومن طريقتهم في الالتزاز الشديد بالمتغافلين. وكان الشحاذون يرتلون دعواتهم هنا وهناك، بينما تندس يد خبيرة في قفة المارة، لترمي المؤن المسروقة في قلنسوة قندوراتهم. ولم يكن يجرؤ أحد من أعوان الشرطة على المخاطرة في النواحي. فلم يكن النهّابون يتورّعون عن شيء، ولا يكمن خلاص فريستهم إلا في يقظتها وسرعة ساقيها. عند نهاية إحدى الجولات الشواشية، اعترضني أزعران وتهجّما علي. أحدهما وضع سكيناً تحت حنجرتي، بينما راح الآخر يفتشني بدراية. لم أكن أحمل شيئاً. ومن خيبة أملهم، أوسعاني ضرباً قبل أن يتلاشيا في الزحام. ومن حولي، كان الناس منشغلين بأعمالهم وكأن شيئاً لم يكن. ما عدا بائع كريه يعتمر عمامة، ويَلوك عوداً من عرق السوس، راح يضحك وهو يتأرجح بتكاسل على كرسيه. ضبطتني أمي في نفس اليوم وأنا أدس سكيناً في حزامي. حاولت ردعي، دون جدوى. رجعت إلى السوق للبحث عن اللذين تهجما علي. كانا قد تبخّرا. بقي هذا الحادث المزعج غصّة في حلقي. أجرجره كالإهانة. فكنت أذهب كل صباح إلى السوق، وأنا على أهبة الاستعداد لإشهار سلاحي. كنت في غاية الحنق وتتملكني الرغبة في أن أحسم الموضوع. لم يكن ذلك الحي البائس يوحي لي سوى بالغضب والاحتقار. لم أعد أخشاه.

انقضى أسبوع كامل وأبي لم يأت. كنت وهواري في أشد الشوق إليه. لم نكن نجرؤ على الابتعاد عن العمارة أو أن نتلكأ في مكان ما خشية أن يفوتنا. في النهار كنا نحوم حول الجوار بعين ترصد الأشرار وأخرى صوب بيتنا. وفي الليل

نجلس في الشرفة نتفحص الأفق. كانت شمس المغيب تعمي أبصارنا دون أن تتمكن من إزاحتنا. ثم، يرخي الليل سدوله على المدينة وعلى قلبينا. في تلك اللحظة بالذات تعود إلينا حيرتنا غير منقوصة. لتصبح ملاذنا. العشاء يجافينا. والنعاس يرفض استضافتنا. فنأوي إلى فراشنا الحقير يداخلنا شعور بأننا قد ارتكبنا خطأً فادحاً.

كان العيش في بيتنا لا يطاق. تتوافد عليه خالاتنا دون انقطاع، وتبالغن في حركات متهيجة نصيبهن من الخبل. كن يدنسن حميميتنا بهذرهن وسمومهن، ويفردن كل وقاحتهن ولا يفتأن يلكن همومهن إلى درجة قتلنا ضجراً. ويتفنن في ملء رأس أمي بحيل انتقامية. فينصحها بعضهن برفع دعوى وجرجرة الزوج غير المحتشم أمام المحاكم وتمريغه في الوحل. بينما تعدّ الأخريات على أصابعهن الأولياء البارزين القادرين على إرجاعه إليها، متباهيات بفعالية شراب العشق الذي يحضرونه، وبمعصومية تعويذاتهم والنجاعة السحرية لحروزهم. كنت أشعر بالغثيان عندما أسمعهن هكذا يغتابون أبي ويوصين له بأكثر الإكسيرات تدميراً. كانت أمي متعبة. لم تتلقّ أبداً كلمة طيبة ولا نصيحة صائبة، بل وابلاً عاصفًا من التوصيات المغرضة إلى حدّ مذهل. أحسّت أمي وكأنها على وشك أن تفقد صوابها. فكانت تنتابها في بعض الأحيان سورات غضب تجعلها تطرد الجميع خارجاً. وفي اليوم التالي، تعاود قريبات أخريات الكرة، كمصلحات في البداية، لكنهن سرعان ما تبدأن في نفث سمومهن بعنف مطردٍ، وتقلّبن المواجع بغدر :

— لو كنت مكانك، لتزوجت ثانية. بكل تأكيد. ولبعثت له بجرائه - هكذا يقدر مبلغ الضرر الذي ألحقه بك -

ولاخترت من بين الأقرباء رجلاً رائعاً أنتقم به من إهاناته. لماذا تطأطئين رأسك؟ لا زلت صغيرة. والحياة أمامك. ما عليك إلا أن تمدي يدك لتقطفي.

لم يكن بوسعي أن أعترض. ففي تقاليد آل دوي مينيا لا يرفع المرء صوته أمام من يكبره سناً. ولا يثبت فيه النظر. سواء كان محقاً أم مخطئاً، فهذا لا يعنينا. وحين لا أقدر على احتمال المزيد من الدعوات الشريرة لهؤلاء وتحريضات تلك، كنت أخرج لأجتر سعاري على الرصيف ولا أعود إلا بعد انصرافهن ؛ لأجد أمي منهوكة. كانت أحياناً تنهار بالمرة وتسقط في حالة غياب تغرق بدورها إخوتي وأخواتي في الاضطراب. وأحيانًا أخرى كانت تكتفي بسكب دمعة ونسيان الموضوع إلى غاية الاستنزاف المقبل. وعندما سألها أخي أخيراً إن كانت تنوي الزواج ثانية، كادت أن تخنقه :

— أبداً. إن كان للأخريات زوج واحد، فأنا لدي أربعة : أنتم. إياك أن تنسى ذلك.

أوشكت الإجازة على الانتهاء ولم يظهر أبي. فهم هواري بأنه لم يعد هناك من داعٍ ليقوم بدور المترصد. يوجد من الآفاق ما لا تخطيء. ذلك الذي سكن أفكارنا لم يكلّف نفسه عناء المجاملة. ولكن لم يكن لهواري طول أناة العنيدين. ولم يكن كبرياؤه يؤمن بالتنازلات. فضل أن يلتجئ عند أعمامي في فيكتور هيغو. أصبحت تقلبات مزاجه تنكد علينا في البيت. وصار يعاند أمي ويطعن في حقوقي كأخ أكبر. كان ينقض بحنق كالحيوان الجريح على كل من يناوئه أو لا يعجبه، مما يعقد الأمور بالنسبة لنا. وكان يعي ذلك ولهذا السبب بالذات قرر أن يريحنا. بحيث لا نجده في الصباح حين نستيقظ ولا يعود إلا في آخر

الليل. وحيداً. وحيداً بكل معنى الكلمة. مبدياً علانية رفضه لأي لوم. كان يود أن يثبت لنا بأنه كبير بما فيه الكفاية ليفعل ما يحلو له. في ركن ما من قرارة نفسه كان يحتقرنا أو يحقد علينا، وفي كلتا الحالتين، كان يرفضنا. سمعت بأنه يرافق الزعران ويخالط أولاداً مشبوهين. ويهيم في البؤر القميئة بنظرات وقّادة وقبضات على أهبة الاستعداد. وما إن يراني حتى يفر هارباً وهو يقذفني بالشتائم البذيئة أو يرشقني بوابل من الحجارة. وكان ينفطر قلبي وأنا أراه على هذه الحال مطلقاً ساقيه للريح وسط البسطات والسيارات وكأنّه حيوان مفترس يائس.

أما أنا فلم أكن في حالة أحسد عليها. إذ كنت مصعوقاً من جراء ثرثرة القريبات وحالة التداعي التي تفتت عائلتي. استمر أبي في تجاهلنا. قررت أن أذهب لرؤيته. كم من مرّة استجمعت شجاعتي وقطعت المدينة مشياً على الأقدام لكي أذهب إلى شوبو؛ لكنني بمجرد وصولي أفقد كل ثقتي. كان شارع أريستيد بريان يهشم دوافعي إرباً إرباً، ويتملكني الخوف فجأة من أن ألتقي برفيق سابق أو بأحد المعارف القدامى. كنت خجلاً مما إلت إليه، ولم أكن أشعر بأن لدي من القوة ما يجعلني أتحمل تلك النظرة الحزينة التي يُخَص بها الأطفال المعوقون. فلا أجد نفسي إلا وأنا أتسلل بين الزوايا المعتمة للأزقة على رؤوس أصابعي كالسارق كي أعود أدراجي في الحال بمجرد رؤية سور فيلتنا.

لهذا فقد تنفست الصعداء عندما استقبلت عمي أحمد الذي كلفه أبي باصطحابنا إلى المشور.

5.

ثلاث جولات كانت تثير حنق الأشبال : المنصورة، حيث ينتابنا قنوط علني ؛ وغابة لالاّ ستي، بسبب الجهود الجبارة التي تتطلبها منّا الدروب الوعرة للجبل. لكن المكان الذي كنا نكرهه أكثر من أي مكان آخر كان الحوض الكبير أو الصهريج ؛ وهو عبارة عن حفرة شاسعة أعيدت تهيئتها لتصبح ساحة للعب وسط حي كبير من العمارات المخصصة لذوي الدخل المحدود. كانوا يحشروننا أسفل جدار شاهق من الأحجار المشذّبة تحت شمس حارقة، ويجبروننا على متابعة مباريات لكرة القدم تجمع بين فرق عسكرية محلية مقتنعة تمام الاقتناع بأن الرياضة هي مسألة عدوانية ولكزات أرجل خطّافية. كانت اللقاءات تجري في جو من اللامبالاة العام، ما عدا حين تنفجر مشادات متفرقة إثر تصفيرة جزافية أو ضربة مشينة. ومن على الأسوار العتيقة يتظاهر رهط من المدنيين الجاثمين فوقها بالاهتمام بالمباراة. كانوا، في حقيقة الأمر، يراقبوننا نحن الأشبال، ويرمون لنا من حين لآخر أكياساً من السكاكر وقطعاً من العلك لا يلتقطها أحد. كان ذلك ممنوعاً. والحوض الكبير كان خالياً من الأشجار والمقاعد والصخور. كنا نجلس على الأرض مضطرين للتنازع على خيوط الظل الواهية التي يتفضّل بها علينا المكان. اخترت أنا ومومن وسوريسو تجويفاً محفوراً في الجدار. كان سوريسو قد وصل لتوه من نانت حيث يعيش مع والديه. ولد في الثامنة من عمره، هزيل ودميم، بفك مدبّب وأذنين كبيرتين مفلطحتين. كان يفضل صحبتنا لأنّ الآخرين يجعلونه أضحوكة بسبب جهله التام للعربية وطريقته في نطق

الكلمات النابية التي كان بعض الأشقياء يلقنها له. كانوا ينقضون عليه بمجرد أن ينفرد بنفسه، ويجبرونه على ترديد الفظاعات التي تجعلها لكنته المهجرية مثيرة للضحك إلى حدّ كبير. كان معنا واثقاً بأن أحداً لن يضايقه. كان مومن ولداً طيباً. هيبته الفتية ترفعه إلى مصاف رئيس عصابة. وسداد لكماته يبعد الصبية الأشرار عنا. كنا نغفو وعمرتنا على وجوهنا لتحجب عنا الشمس. ننتظر بفارغ الصبر شدّ الرحال. وفي غضون ذلك كانت يدي تحفر بشرود ثقوباً في العشب. هكذا اجتثثت قلادة رائعة من النحاس تزينها ميدالية تمثل نجمة خماسية. دسستها في جيبي لواذاً، عاقداً العزم على الاحتفاظ بها لنفسي. وفي المساء، تكوّمت في ركني في المهجع وأخرجتها لتأمّلها. باغتني رقم 118 وأنا أهمّ بإخفائها، وقال:

— ماذا تخبئ هكذا ؟

لأ لاشيء.

لأ رأيتك تدس دراهمَ في جيبك.

لأ ليست نقوداً.

— ماذا إذن؟

— الأمر لا يعنيك.

دار رقم 118 حول سريري متتبعاً نظراتي. تسمّر أمامي وقبضتاه حول فخذيه. كانت تلك الوضعية تقلقني في الماضي، إذ كانت تظهر بوضوح نوايا الشر وكنت أنا في الغالب من يقصر الشر. أطأطئ رأسي، وأنا أتراجع. في ذلك اليوم لم تؤثر فيّ، لم أجد فيها سوى أمرٍ واقعٍ عليّ أن أجابهه إلى النهاية. لم يكن قلبي يخفق بشدة. ويداي لم تكونا ترتعشان. كنت هادئاً وواعياً، وعلى أهبة الاستعداد.

— أفرغ جيوبك في الحال.

— كلاّ.

— سوف أغضب.

— إنها مشكلتك.

نهض كلّ من مومن وسوريسو من مؤخرة المهجع، كانوا يرون جيداً بأنّ 118 كان على وشك الانقضاض علي وأنا لا أجاريه قوة. في حين أن لهجتي الرتيبة وإصراري أثارا شكوكهما. كانا قد لاحظا التغير الكبير الذي طرأ عليّ منذ عودتي من الإجازة، وبأني أسدلت الليل على سحنتي. وأصبحت منغصاً للأفراح، أكثر شروداً من ذي قبل، ولا أظهر استعجالاً كبيراً للتجمعات، ولم أعد أنتشي بروايات مومن. كان رقم 118 قد لاحظ أيضاً تضاؤل اهتمامي بالدروس وباليد الجوّالة لزميلي في المقعد. وذلك يطمئنه بصواب أعماله ويقلقه أيضاً. اقترح علي 118 قائلاً:

— سنقوم بعملية تبادل، أهديك جديلتي السلكية (سكوبيدو) وتريني أنت حاجتك. أعدك بأني لن آخذها منك... إلاّ بموافقتك.

— محال.

وجّه إلى لكزة خفيفة على ربلتي ليجس النبض. شجعه سكوني، فانتصب على كعبيه نافشاً صدره، وقال بتبجّح :

— في المرة الماضية زرّقت لك عيناً، هذه المرة سأزرّق الاثنتين، حذار.

اعتدلت لمجابهته. دون عداوة ظاهرة، بل لكي لا ينظر إلي من عليائه فقط. انفجر ضاحكاً أمام قصر قامتي ونحولي. وبيد قوية أمسك بعنقي وأطاح بي نحو الحائط. تكمّشت قبضتي وأحسست بأنفه يتفلّق بين أصابعي. أطلق

في البداية صرخة من عمق ذهوله وجثا. ثمّ ارتفعت قدمي بدورها لتهشم ذقنه. أحاط مومن يديه بخصري محاولاً إبعادي عن ذلك الولد الشقي لبودغن. كان هذا الأخير يئن وهو يتأمل يديه المخضبتين بالدماء. وقف على قدميه وهرب وهو يصيح كما لو كان طريدة الشيطان. صاح سوريسو متعجباً :

— هيه، ما هذا يا صاحبي، لقد أفسدت له خلقته إلى الأبد.

ثم انبرى مومن معاتباً :

— هذا قبيح، لقد بدأت تخيفني أنا أيضاً. منذ عودتك من العطلة لم أعد أعرفك. ماذا كانوا يطعمونك في المنزل، كلاباً مسعورة ؟

كانت تلك المرة الأولى التي أكون فيها السبّاق إلى الضرب. عادة، لا أرد حتى الضربات. لم أكن من الصنف المتهور أو من الخرق المبللة. كنت أكره العراك وأتحاشى المشاكسين الذين يمكن أن يخلقوا لي المشاكل. كان مومن على حق. منذ عودتي من العطلة أصبحت شخصاً آخر. كانت الأوامر ترتدّ على حائط صممي. وفي الصباح لم تعد الاعوجاجات على سريري المشدود تقلقني. ولا تأنيبات وتهديدات الممرنين أيضاً. لقد ضقت ذرعاً من كل تلك المسايرة. أخذت هوة لا تفتأ تكبر تبعدني عن محيطي شيئاً فشيئاً. جزيرة تتنصّل من أرخبيلها وتمشي في مهبّ الريح. لم يكن جنوحي يقلقني فقد كنت واثقاً من بلوغي القرار، ولا يعنيني الطفو إلى السطح. وما كنت سأجد؟ حطام سفن، أو ناجين آخرين من الغرق؟ عندما نجتاز نقطة اللارجوع لا تبقى لنا سوى فكرة واحدة ثابتة : انتظار ما يأتي. لا مجال لأن

نعود أدراجنا، ولا مجال لتعديل الدّفة. لن يجدي ذلك نفعاً، ثم هل كان بإمكاني ذلك ؟

انتشر خبر انتصاري على 118 عبر كلّ المهاجع. وصارت اقتحاماتي تقطع دابر المناوشات. فجأة أصبح الكل يخشى ردود فعلي. غيّر رقم 118 مكانه. وصار يراقبني من الجهة الأخرى للقسم بطرف عينه. لم ينبس أمام العريف ببنت شفة حول كدماته الزرقاء، لكنه كفّ تماماً عن التلكؤ حولي، ولم يعد يخاطر بإقحام خشمه المشمشم على مقربة من ضرباتي.

اعتباراً من تلك السنة بدأت ألتجئ إلى الكتب. كان كل عنوان يمنحني شقا أنسل عبر تعاريجه إلى خارج المشور. والحكايات تدفعني إلى قلب عالم أخّاذ، وتحميني، لوقت تستغرقه قراءة، من التأثيرات العدمية للقلعة. كنت أنتهج الصفحة كما يُنتهج سبيل، وأسترسل على رسل السرد. أختار أصدقائي من بين الشخوص، وأحفر بيوتي في معاقل اللصوص وأوكار الساحرات، بينما تتبنّاني الأغوال المزمجرة، وهو أمر لم يفلح الممرنون فيه بسبب تعجرفهم. وبما أنني كنت من كبار هواة الأشرطة المرسومة قبل ترحيلي، فقد بدأت بتجميع الكتب الصغيرة ذات الأغلفة المقواة التي تمتد رسومها لتعبر أحلامي وتملأ رأسي بضجيج خريرها وأدغالها وزقزقاتها. كنت أحنّ بالتأكيد إلى تان تان، والأرجل المصفّحة، وبيم بام بوم - كتب ممنوعة في مملكة ميداس- لكن اكتشافاتي الجديدة كانت تفي بغرضها بشكل باهر : كانت تساعدني على الفرار من الجندية.

عندما كنت صغيراً، كنت أقضي جل أيامي جرياً وراء شيء ليس له شكل محدد. ما كان يهمنّي هو أن أستوحي منه إلى حد التماهي. أمضي ساعات بأكملها تحت ظل شجرة وسط

أحد الحقول أو أهيم على وجهي من طرف المدينة إلى طرفها الآخر دون الاكتراث بالعالم المحيط بي. كان البعض أحياناً يستوقفني، ويهزّني؛ فأجفل للحظة لكي أعود في الحال إلى ذلك الشكل من التسرنم حيث لا أشكو برداً أو جوعاً، وحيث لا أعاني من أي ألم، بل لا أشعر أصلاً بالحاجة إلى التملّص منه. كنت أحس فيه وكأنني في بيتي، طليق ولا أطال. كان بوسعي أن أنبت لنفسي أجنحة، وأن أهذر بصوت عالٍ، ولا يضيرني أن يسخر مني الآخرون. كنت قانعاً داخل خادرتي المنيعة، تارة يرقة في طور التحوّل، وتارة فراشة رائعة، وكنت أعرف أفضل من أيّ كان كيف أتنصّل من الضجيج ومن الشواش دون استئذان. كم من مرة سألني والدي إن كنت أنصت إليه، مطرطقاً أصابعه ليعيدني إلى جادة الصواب، مفزوعاً من فكرة أن يكون ابنه الأكبر متأخراً عقلياً مثل أخي الأصغر عبد السلام. وحين أبتسم له، تسترخي أعصابه، ويأخذ بيدي ويضمّها بقوّة إلى صدره، معبراً بذلك عن شكره لكوني عدت إليه. لم أكن طفلاً تعيساً؛ بل كنت ولداً مدللاً، ولم يكن علي إلاّ أن أصوغ أمنية لأشهد تحقيقها. لكنني كنت منطوياً بعض الشيء، لذا كنت أبدو حزيناً دون أن أكون كذلك فعلاً. لا يوجد في كلّ صوري لتلك الفترة أي أثر لابتسامة على وجهي، ما عدا ذلك الارتخاء الخامل لشفتي وتلك السحنة الغامضة التي تبدو وكأن شيئاً لا يجدي في إبهاجها. كنت دوماً أخال نفسي مختلفاً، وأرى بأني أترعرع في عالم موازٍ. لم أكن أنظر إلى الأشياء بنفس منظار الصبية الآخرين. فما كان يجعلهم يركضون جميعاً لا يجرّني إلى متابعتهم. كنت أفضل أن أحفظ حدودي، كأن أستغرق في تأمل عود من القصب، وأن أجد في شبكة العنكبوت بعضاً من الجنائن

المعلّقة. أغار من الحباحب دون أن أعتبر نفسي سخيفاً. كُان لدي، على ما أظن لحد الآن، عالم مصغّر نُحت على مقاسي بالضبط. مكتفياً بذاتي، لا أنشد شيئاً سوى وحدتي، أملأ أوقات صمتي بتغريد عصافير الجنة وبألحان مجهولة تتفتّح على طرف لساني كما يفعل السحر. ومع أنني لم أكن سوى قطرة ماء في المحيط، إلاّ أني كنت مقتنعاً بأنها تلك التي تفيّض الشاطئ لتنسكب على الأنواء القصيّة، ليس في غمرة عاصفة هوجاء، لكن كقطرة ماء متلألئة حملتها هبّة ريح أو صيحة نورس. أكان ذلك هو الشعر؟ أبي لم يكن يفقه الشيء الكثير في أمور الشعراء. كانوا بالنسبة له أناسًا هامشيين وغريبي الأطوار؛ ومع أنه كان يتباهى بكونه هو بالذات ابن ناظم صوفي، غير أنه كان يتحرّج بدوره عن إنجاب جالم محبط وكسول. كان مصراً على رفعي إلى مصاف الرجال، أي أصحاب القرار والثراء. ومن جهتي كنت أرفض التخلّي عن ذلك الشيء المستعصي الذي كان يهدهد روحي ويحفظني من كل شيء بما فيه هشاشتي ؛ ذلك الشيء الذي يجعلني أنظر إلى السماء بطريقة متميزّة. عندما كنت في الكتّاب، كنت أتواصل تقريباً مع قلمي. وكان خطّي يبهج الطالب. كنت الأقل تعرضاً للفلقة من بين كل العيال. وكان الطالب حين يمسك بلوحتي بين ذراعيه، يبدو وكأنه يشهرها كما لو كانت قصب السبق. كان لشدة فخره بكتابتي يغفر لي طواعية استظهاراتي العرجاء، ويجد بأن لي "يد جواهري"، وموهبة تستحق التقدير بقدر ما تستوجب التساهل. ذات يوم، بينما كنا نرتّل جميعاً أمامه سوراً من الذكر الحكيم، باغتني وأنا أخربش أسفل لوحتي. لم تكن آية ولا جملة عادية، بل دزّينة من الكلمات المبتورة تنتهي أواخرها بنفس الصوت. نزلت

عصاه على كتفي كالصاعقة. في اليوم التالي، ودون أن أدري، جاءت كلمات أخرى لا تقل غرابة عن بعضها البعض لتتقفّى سراً على ركن خفيّ من لوحتي... كانت تلك أولى الكلمات المطاردة لذاتي، أول أبيات جسورة، لأنّها محرّمة، لـ"منفاي".

تيقّنت أنني أملك هبة من السماء، لكني أجهل تماماً كلّ أفضالها. كنت أعتقد بأني أكيّفها حسب ما أحب، وكان ذلك جزءاً طفيفاً من قدراتها. ساهمت مدرسة الأشبال إلى حدّ كبير في تعريفي بهذه الموهبة. كنت أرى جيّداً بأنني أضيع في ذلك الفضاء السجني الموحش، لكني رغم ذلك أعرف كيف أستشفّ السحر في تحليق لقلق، وأن أستشعر صمتي في صيحة بومة، وأن أستوحي من خيباتي بحصافة كشخص علّمته الحياة. وكنت أغفر -للّه ما كنت أغفر. كان ذلك بالنسبة لصبي في العاشرة من عمره دليل قوة شخصية، ونضج فائق. لا أظنّ أنه كان لي منهما أكثر من الآخرين، بالنسبة لي لم يكن لذلك أي علاقة بتلك الاعتبارات. وكصبية مبهوتة بأول طمث لها، كنت أكتشف تكويني الحقيقي. لم تكن معاناتي تسحقني، بل كانت تفيّقني إلى نفسي، وتجعلني أعي بانفراديّتي. كنت ذلك الذي يعرف كيف ينظر، والذي يحس بآلام رفقائه. وما كان ذاك الشيء الذي يتقوّى في ذاتي ويسكنني إلاّ ليساعدني على تحقيق موهبتي. لم أتفطّن إلاّ بعد قراءة عقلة الأصبع، التي نزلت عليّ نزول الصاعقة وكأنها الوحي. تلك كانت هبة السماء : الكلمة. كنت قد ولدت لأكتب. حين فتحت الكتاب الجميل، وقلّبت صفحاته المزدانة برسوم رائعة، اتضح قراري في الحال :تأليف الكتب. بعدها التهمت كتباً أخرى بشراهة لا تقنع ؛

"ثليجة البيضاء ؛ ليلى والذئب ؛ الأميرة النائمة، وحكايات لافونتين". كان ذلك خرافياً. لكن انبهاري الحقيقي، لم يكن بالحكايات ولا بالشخوص ولا بالموهبة الفذّة للرسامين. ولم أعرفه إلا عندما حاولت بدوري أن أكتب : كنت منبهراً بالكلمات. تلك التجميعات لحروف ميتة لا تلبث أن تدبّ فيها الحياة فجأة بين فراغ ونقطة، لتصبح جملاً ولتصبح جمهرة ولتصبح قوة وفكراً. عرفت في الحال منتهى مبتغاي : أن أكون ريشة في خدمة الأدب، ذاك الإحساس البشري الفائق الذي لا يضاهي سمّوه سوى هشاشته ؛ تلك الطيبة القصوى التي لا تزال تبقى إلى اليوم آخر حصن لخلاصنا، وآخر معقل لردع الحيوانية الذي لو حدث أن تداعى فسيردم تحت أنقاضه كلّ شموس العالم، وعندئذ، أهلاً بالليالي الحالكات... كان أول نص لي هو اقتباساً لـ عقلة الأصبع باللغة العربية. وحكايتي تروي قصة عائلة فقيرة أجبر ضنك العيش الوالدين على التخلّص من أبنائهما السبعة. باغت محمد الصغير والده وهو يسرّ لأمه بمشروعه البائس، فملأ جيوبه بحجارة بيضاء علّم بها طريق الغابة. وعندما تخلى الوالدان عن أطفالهما في عمق الغابة، شرح "محمد الصغير" لإخوته كيفية العودة إلى البيت. كان الوقت ليلاً، والأحجار تلمع في الظلام كدود براّق. وما كان على إخوته سوى تتبّع طريق الحباحب. لكن "محمد الصغير" لم يأخذهم إلى البيت، فقد رفض الرجوع إلى أبوين ناكرين، وغاص في قلب الغابة ولم يعد منها أبداً. حطّ نصّي في البداية على مكتب معلّمي قبل أن يؤول إلى مكتب الملازم ميداس. كان لذاك النص الفضل في أن يكتب اسمي للمرة الأولى في قائمة "المُكَافئين"، أي الأشبال الذين أبلوا بلاء

حسناً طوال الأسبوع والذين كانوا يأخذونهم بعد ظهر السبت إلى ملعب المدينة تقديراً لهم.

كان ذلك في العام 1966.

في نفس السنة، جاء دور أخي "سعيد" ذي الست سنوات، وابن عمي "قادة" ذي الأربعة للالتحاق بصفوف الجيش. كانا طفلين لا يتعدى طولهما شبرين، تائهين لا يستطيعا حتى العثور على المباول من دون أن يهيجا التجمع بأكمله. كنت أحياناً أراهما عندما تباغتهما حاجة ملحّة وهما يجرجران الخطى بخجل، وقد اتسخ سرولاهما وراء ممرن متذمر.

بعد سنوات من ذلك، قال لي عمي أحمد :

— عندما تنجب أطفالاً ستقدّر ساعتها فقط عظمة الأولياء.

أعطاني الله ثلاثة أطفال.

ولم يعط الحق لعمي.

ثم جاء الصيف بشمسه الساطعة وجوّه المرح. كان مدير الدراسات العجوز يقول لنا بصوته المسبّح "اسرحوا وامرحوا وانطلقوا، كونوا سعداء فأنتم أهل لذلك". فنرمي بكراريسنا في الهواء ونمزّق كتبنا، ونتحول ثانية إلى أطفال. حتى يقظة الممرنين تتراخى عند غلق الأقسام؛ ويذهب البعض منهم إلى حد تقبل ما كانوا يصفونه بكل نفور رفعاً للكلفة. استبدلنا بذلات التمرين بثياب الاصطياف التي خلّصتنا من سحن جراء الذئاب المحتجزة. وعوض الجزمات والعمرات أعطونا صنادل وقبعات شمس مدنية بواقية أمامية طويلة لتحمينا من الوهج القاطع للقيظ. ثم لم تلبث الحافلات أن احتلت الفناء المدرسي وعلت أصوات أبواقها. كانت ستقلنا إلى المخيم الصيفي على شاطئ البحر. كان ميداس مسروراً ونحن أيضاً. والجميع يغني. نقلونا إلى "مرسى الحجاج"،

وهو مركز تخييم صيفي يبعد بحوالي خمسين كيلومتراً عن وهران غرباً. كان معسكراً يمتد عبر غابة صغيرة مملوءة بالعقارب، يحتوي على أكواخ مهوأة وساحات لعب وإحساس عظيم بالسكينة والحرية بالمقارنة مع ما كانت تفرضه علينا الأسوار المنيعة للمشور. كان الطعام وفيراً بالإضافة إلى عشاء دسم وزجاجات من الصودا مع الغذاء. وتوجد فيه أيضا استراحة للجنود بها مختلف السلع حيث كنا نشتري البسكوت وعلب الشكولاطة المحشوة بالبندق وعصير الفواكه وطوابع وبطاقات بريدية. كنا نمضي فترة الصباح على الشاطئ الشاسع للقرية برماله البيضاء وكثبانه العالية التي كنا نعشق التدحرج فوقها منقسمين إلى فرق كاملة، نقوم أثناءها بعمل بهلوانيات مذهلة. وبعد القيلولة الإجبارية، كانوا يصفوننا على طوابير اثنين باثنين وينزهوننا عبر التلال المحيطة. أحياناً كنا نذهب إلى مزرعة مهجورة لنتأمل البحر والقرية في الأسفل والشمس وهي تؤول إلى المغيب. وكان الممرنون يعلموننا أغنيات مضحكة وألعاباً مضجرة في بعض الأحيان. وعندما يحل المساء، وبعد الانتهاء من العشاء، يسمحون لنا بالسهر حول النار أو متحلقين حول مهرج. كنا نرتجل تمثيليات قصيرة ونتنكّر مستعملين مناديل قديمة أو ستائر وورقاً مقوى للتسريحات والقبعات ومكانس للشعر المستعار. وضحكاتنا تدور مع الحشرات المحتجزة في المصابيح، وترتطم فوق انحناءات الأمواج، وتملأ الليل والغابة الصغيرة بهدير رائع. لم يكن في المركز أي بوق ليعلن عن إطفاء الأنوار. صحيح أننا لم نكن نسهر إلى ساعة متأخرة، لكننا لم نكن مجبرين على الذهاب إلى النوم والنهار لم يأفل بعد، ولم يكن الممرنون يقلبون

فراشنا رأساً على عقب إذا تلكّأنا في النهوض صباحاً. كنا في مرسى الحجاج في عطلة فعلاً، وكان كل طاقم التأطير من جندي السخرة إلى الملازم ميداس يبذلون قصارى جهدهم لكي لا ينكدوها علينا.

جاء أبي لزيارتي. بدا وكأنه صغر في السن. موفور الصحة ببدلته المكوية بعناية، وبنجمتي القائد اللتين بدتا كمذنبين يدوران حول ابتسامته. بدا كتفاه أكثر عرضاً واتخذت نظرته حدّة لم أعهدها فيه. هزّتني زيارته، كما لو أنّ نصلاً من البرق اخترقني من جانب إلى آخر. لكنني تمالكت نفسي. كان لا يزال يحتفظ في مكان ما من ذاتي، دون أدنى شك، بمكانة الإله التي كانت له في الماضي، لكني كنت للأسف قد فقدت الإيمان.

لم يكن بمفرده. كالعادة. كانت هناك إلى الخلف قليلاً امرأة حامل ترقبني. جميلة. ومع أنها كانت منهكة بحمل متقدم، إلاّ أنّ وجهها يشعّ بالارتياح. كانت بكل تأكيد امرأة ترفل بالسعادة. تراجع أبي خطوة لكي يمسك بيدها ويطمئنها ؛ حركة عديمة الفائدة ومتكلّفة. لا أقول أن ذلك لم يعجبني، بل خدش حيائي. كان أبي يبتسم لي. يبتسم المرء غالباً عندما يكون محرجاً. تصرّفي أفقده تماسكه بعض الشيء، ولم يعرف كيف يفسره : كنت قد حييته بالتحية العسكرية ووقفت في وضع استعد على بعد ستة أذرع منه كما تنص عليه الأحكام، وذراعي ملتصقين بخاصرتي، وذقني "مسحوج"، ونظري إلى الأمام. استدار جهة زوجته متصنّعاً الابتهاج بالحس الانضباطي الذي كان يبديه نجله، ثم تنازل وقبّلني على خدي. تاهت ذراعه حول عنقي. لم أرد قبلاته، ولا قبّلت زوجته. ولفترة طويلة، بقينا ثلاثتنا ننظر إلى بعضنا في صمت. صمت

محرج، مزعج. ابتلع أبي ريقاً من حلق ناشف لكي يسألني إذا ما كنت أعامل معاملة حسنة، وإذا ما كان لي رفقاء طيبون وإذا ما كنت أستمتع بوقتي جيّداً. أجبت بإيماءة من رأسي لعدم قدرتي على التلفظ بحرف واحد. مجرد ارتعاشة طفيفة. لا أكثر. لم أكن أحقد عليه، كلاّ ؛ كل ما هناك، أني كنت أعتقد بأنه لم يعد لأحدنا ما يقوله للآخر. وكنت حزيناً لذلك، أكثر منه حزناً بكثير، أكثر حزناً من العالم أجمع. ثم حطت يده على كتفي ثانية، وعبثت بشعري. لم أحرك ساكناً. بقيت أحدّق في أفق بعيد، مانعاً نفسي من النظر جهة زوجته. وفي الأخير، أعلن لي قائلاً :

إنها "شريفة" أمك الثانية.

كانت هي إذن ذلك الإغراء الذي لا تستطيع قوى الأرض حياله شيئاً. تفرّستها لواذاً، في غمضة عين، وعدت للتحديق في نقطة في الأفق. كان صخب الأشبال يصلني من كلّ جانب ؛ وكانت ضحكاتهم وجلبتهم تناديني. سعت ابتسامة والدي جاهدة لتحويل انتباهي. مستحيل. لم تكن تلك ابتسامة بالنسبة لي، بل تكشيرة مضطربة لا أكثر ولا أقل، ولم تعد تعنيني. عالم قد اختفى، وعمر قد ولّى. وفجأة، دون أن أترك له الوقت لاحتجازي، قمت بخطوة إلى الوراء، ورفعت يدي إلى صدغي بتحية تامّة، درت نصف دورة وعدت إلى ممرني، إلى عائلتي الحقيقية... كان قلبي قد غيّر مربط خيله، معسكره.

بعد بضعة أيام، التحق بنا أشبال بشّار الذين لم ير أغلبهم البحر في حياته. كانوا أقل تجهيزاً منا، وأضعف تأطيراً، لا ينضبطون بالنظام وكثيري الجلبة. بالنسبة لي أنا، كانوا يحملون نفحاً من مسقط رأسي، من رائحة الصحراء وحرون الأسلاف. كانوا أولاداً نفورين وذوي حساسية من كل شيء،

أسرع إلى استعمال قبضاتهم من الاعتراف بأخطائهم. وبالموازاة مع ذلك كانوا يقيمون الصلوات بحذافيرها وذوي أمانة لا تتزعزع. بدأ التعايش بشكل سيئ. حدثت المجابهة على ملعب لكرة القدم. كانت المقابلة واعدة : المدرسة الوطنية لأشبال الثورة لبشار ضد المدرسة الوطنية لأشبال الثورة لتلمسان، حدث لم يسبق له مثيل. من بداية الانطلاق، وبعد بعض المزاحمات، أخذ الخصوم يصيحون : اقرضو، اقرضو (إضربه، إضربه على عظمة الساق). وسرعان ما تحولت المباراة إلى معركة طاحنة. توجهت الضربات في البداية على عظم الساق والكواحل، ثم وصلوا إلى الشتائم، ثم الأيدي. تطلّب الأمر تدخل الملازم ميداس شخصياً ليهدئ من روعهم. ثم تمّ تجميع الفريقين في فناء وأيديهم وراء ظهورهم، بعضهم بأعين مزرورقة وآخرون بخياشم راعفة. وبدأ البحث عن المسؤول. أشبال تلمسان يوجهون أصابع الاتهام لأشبال بشار :

— هم الذين لجأوا إلى الضرب. كانوا يصيحون اقرضوا! اقرضوا!..

وما كان إلاّ أن خرج صبي من بين الصفوف وهو يعرج، وتفرس في الممرنين وفي الملازم ميداس وفي فريقنا واحداً بواحد وأعلن برباطة جأش قائلاً :

— اقرضو هو أنا. هكذا أُدعى. إنها كنيتي.

بقي سوء التفاهم ذاك أحد ألطف وأرق النوادر في تاريخ مدارس الأشبال على الإطلاق. فقد وارى الضغائن إلى غير رجعة. ووطد عرى أجمل صداقة بين أشبال بشار وأشبال تلمسان. لا زلنا أصدقاء لحد الآن، وسنبقى كذلك مدى الحياة... ما عدا ربما، ذلك الصبي الصغير الذي كان يشبه الفنك، والذي كنا نحبه ويحبنا، ولا شيء في العالم كان يعِدّه

لمصير بتلك العبثية. كان مربوعاً، قصير الرقبة بسنين ناتئين على واجهة فمه. لم يكن أكثر ذكاء من رفقائه ولا أقل عفرتة، كان ما يمكن أن يسمى ولداً عادياً، منعزلا قليلاً لكنه لا يمكث وحيداً أبداً. اسمه سعيد مخلوفي، الذي حرر بعد عقدين من الزمن بيان العصيان المدني الذي أصدرته الجبهة الإسلامية للإنقاذ، قبل أن يصبح أول أمير وطني للأصولية المسلحة. هو يصغرني بسنة وأسبقه بصف. في العام 1975، بعد حصولي على شهادة الباكالوريا تم توجيهي إلى الأكاديمية العسكرية لشرشال لكي أصبح ضابطاً في سلاح المدرعات. التحق سعيد في السنة التي تلتها بجامعة الجزائر التي كانت في ذلك الوقت بوتقة حقيقية لكل أشكال التعبير المتطرف والخطب الملتهبة. لم نر بعضنا إلى أن اكتشفته أثناء إحدى المهمات الاستكشافية في مكمن بن عمار، وهي قرية قميئة تائهة في الحمادة. كان برتبة ملازم ويتقلد منصب محافظ سياسي ضمن وحدة من حرس الحدود. وجدت رجلاً محبطاً لكنّه كتوم. قضينا الليلة في غرفته إلى الصباح ونحن نتحدث عن خيباتنا وعن أحلامنا الموؤدة وعن الطريقة التي كان الجيش يعامل بها أولاده الشرعيين : الأشبال. كان على علم بكبواتي كروائي عسكري وشديد التأثر لها. بعد بضعة أشهر جاء إلى مكتبي في وهران ليحيطني علماً بقرازه في التخلي عن مهنة الضابط. كان ينوي أن يمتهن الصحافة. حاولت أن أثنيه عن عزمه لكن عبثاً. تم فصله نهائياً من الصفوف خلال تلك السنة...

ثم كان أكتوبر 1988، وتلته التعددية الحزبية.

رأيت سعيد ثانية في التلفزيون، في استوديو مراد شبّين الذي كان ينشط الحصة اللامعة : أمام الصحافة. "تم تقديم

سعيد على أنه رئيس تحرير جريدة المنقذ اللسان الإعلامي والدعائي للجبهة الإسلامية للإنقاذ. كانت له لحية عدوانية وحاجبان هابطان والأسئلة المسمومة التي كان يطرحها على ضيف الحصة الدكتور سعيد سعدي من التجمع من أجل الثقافة والديمقراطية أنبتت الشوك في بدني. في عام 1990 وبينما كنت أقوم بتربص الأركان في الأكاديمية، لاقاني سعيد مخلوفي على باب مركز البريد لشرشال. كان برفقة شخص مريب ذي سحنة يعلوها شعر مشعث. سألني بعد أن صافحني بحرارة وعانقني :

كيف الأحوال، سيدي القائد؟

أشرت إليه إلى ما يحيط بنا. الساحة وقد غزتها القردة الصيّاحة لابسة القميص ؛ والعصيان المدني على أشده والإضرابات والاعتصامات تشل البلاد. فقال لي مبتسماً :

— ماذا؟ إنها الديمقراطية، أليس هذا ما تريدون؟

أجبته قائلاً :

— الديمقراطية؟ أنتم لا تؤمنون بها أصلاً. إني أتساءل إلى أين ستقودوننا في سيركم هذا.

— إلى دولة إسلامية يا سيدي القائد.

— إذن، لِمَ كلّ هذه الانبعاثات الكبريتية حول المساجد يا سعيد؟

— اتّقد صاحبه شرراً. صافحني سعيد ثانية وابتعد. لم نر بعضنا بعد ذلك أبداً. وإثر إيقاف المسار الانتخابي في شهر جانفي 1992 دخل سعيد مخلوفي في التمرّد المسلح، وقاد الحركة الإسلامية المسلّحة، ثم الجيش الإسلامي للإنقاذ. وخصصت مكافأة للعثور عليه تقدر بثلاثة ملايين دينار، وكانت بذلك رأسه الأغلى ثمناً والأكثر طلباً. أثناء الحرب، كنت قد خططت لكمينين

للقضاء عليه، الأول في الورسنيس والثاني في منطقة عين الصفراء الواقعة في الجنوب الغربي للبلاد. لم يكن حاضراً في الموعدين. عنتر زوابري أمير الجماعة الإسلامية المسلحة هو الذي تكفّل بتصفيته. أرسل له فرقة بحجة عقد تحالف. رفض سعيد حتى بعد خلعه ومطاردته وجرحه - فقد القدرة على استعمال ذراعه - أن يعلن الولاء لشخص يصفه بالانحرافي وبالمعتوه تماماً. وأُعدم في الطرف المغربي من جبل "قروز" غرب "فيقيق".

6.

جرى امتحان السنة السادسة في ثانوية بن زرجب، إحدى أشهر المؤسسات المدرسية في تلمسان، والمعروفة بالنوعية الممتازة للتعليم الذي يُلقن فيها. كان التنافس حاداً بينها وبين مدرسة الأشبال التي كانت تتجاوز نسبة النجاح فيها، سنة بعد أخرى، التقديرات الأكثر تفاؤلاً. كان ذلك بالنسبة لنا فرصة ذهبية لدحر الخصم في عُقر داره، وهو أمر لم يكن باليسير. كنا ننتظر هذا الامتحان برهبة كبيرة يزيد من تفاقمها كونها تجري لدى المدنيين حيث ليس بحوزتنا أي مَعْلَم. لم تكن الثانوية تشبه مدرستنا في شيء. كانت صغيرة بفناء تحتويه راحة يد ؛ وكانت أبنيتها الأكثر زينة من بناياتنا تشعرنا بالغربة،كنا نحس فيها بالاكتظاظ، ونخشى ألا نتمكن من التركيز جيداً في الأسئلة.

تفطن ميداس لقلقنا. فجمعنا عشية الامتحان في قاعة كبيرة لكي يرفع من معنوياتنا، وأخذ يضرب على الطاولة بأصابعه ويكرر دون كلل بأننا كنا الأفضل وبأنه يعتمد علينا لتمثيل المؤسسة العسكرية أحسن تمثيل بحيث إنّ مستقبلها مرهون بنوعية أدائنا الشخصي. أيقظنا الممرنون بهدوء بالغ في الصباح الباكر. كياستهم غير المعهودة التي كان من المفروض أن تبعث فينا القوة، ثبّطت من عزائمنا. كان من الصعب علينا أن نثق بوداعتهم دون تشكيك، ولا سيما في ذلك الصباح الحاسم حيث تُأجج أقل التغيّرات نرفزتنا، لكنهم مع ذلك استمروا في إبداء تفهمهم لحالتنا النفسية، لدرجة أنهم كانوا يتظاهرون بعدم سماع الدمدمات المتذمرة للمتلكئين. حظينا في فطور الصباح بوجبة فاخرة : عجة بيض بالسكر، والمربيات من كل الأنواع، وشطائر خبز مقرمشة ومطلية بسخاء بطبقة من الزبدة وبفواكه الموسم. كما سُمح لنا حتى بمضاعفة حصتنا من الأكل، واغتنم الكثير فرصة هذا التنازل وأفرطوا في النهم. أما أنا فقد كنت أحس بأنني لم أكن على ما يرام. كان الخوف يمزق أحشائي ؛ واكتفيت بعضة من شريحة خبز وبجرعة من الحليب بالشكولاطة وغادرت الطاولة كي أجوب في الممرات بخطى مترنحة. كنت أرتعش من مفرقي إلى أخمص قدمي رغم تشجيعات مومن. واختلطت في ذهني الدروس التي أنهكت نفسي في مراجعتها طوال أسابيع. وأحسست بعجزي عن القيام بأبسط عملية حسابية في الضرب. أبدى سوريسو تأسفه لتصرفي وقال بأني كنت أضخم الأمور وبأنني سأنجح في الامتحان بتفوق ودون عناء. لم أكن بالتأكيد تلميذاً نجيباً في القسم، لكني كنت أضع نفسي ضمن المتوسط المقبول. المشكل هو أنه كانت

تعوزني الثقة بالنفس. وفطنتي تتوقف عند حد طاولتي، وأمام السبورة أفقد في الحين كل مَلَكَاتي. شرح لي مومن بأن ذلك طبيعي، وبأني لست الوحيد الذي يصاب بالهلع في مثل هذه الظروف ؛ وكل ما في الأمر هو أنه في الامتحان يجب الاحتفاظ برباطة الجأش، والباقي، مثل الشهية يأتي مع الأكل. وكان مُحقاً. فقد تحررت عندما تخطيت الاختبار الأول. أبليت بلاءً حسناً في اللغة العربية والحساب والاستظهار، غير أنني أدركت في نهاية المطاف للأسف بأنني أخفقت في امتحان الإملاء باللغة الفرنسية. فقد كتبت « sucait les eaux » بدل « sucait les os » ونسيت عدداً من حروف « s » وأضفت حرف « e » لعبارة « four banal » التي كانت فوق كل ذلك عنوان النص. الأمر الذي نكّد عليّ إلى حد كبير، وتصورت نفسي راسباً قبل إعلان النتائج، مما جعلني مكايداً لدرجة أن مومن وسوريسو خاصماني لفترة طويلة من الزمن. كنت قد علّقت كل آمالي على هذا الامتحان، والنجاح فيه كان يعني الخلاص، وضمان تسريحي الجزئي ؛ كان المنفذ الوحيد الذي يوصل إلى المدرسة الوطنية لأشبال الثورة في القليعة، في منطقة الجزائر العاصمة والتي تلهج الألسن بمديحها. يقال بأنّها تتوفر على مرافق أفضل، ويُعامل فيها التلاميذ كما يعامل الكبار، وأن إطار الحياة فيها أكثر انشراحًا، وبالتالي كان التسامي ممكناً ؛ بالإضافة إلى ذلك، فقد كانت همزة وصل أو بالأحرى سبيلاً لا يمكن تفاديه بالنسبة لمستقبلنا في الجيش : ضباط، أعني، بالنسبة لأصحاب الجدارة ؛ وضباط صف بالنسبة لمن دونهم في المستوى ؛ طريقان متوازيان ولا ينفصلان، لكنهما طريقان على طرفي نقيض : الأول مبشر بالطموحات والامتيازات والثاني منذر

بالنكران والأذى. كنت متلهفاً لأن أجرب حظي في القليعة، وأن أتخلص من التأثير المُنْقص للمشور. لم يكن يوجد شيء بالنسبة لي في ذلك الوقت أسوأ من تلك القلعة التي تعود للقرون الوسطى، حيث يقسم الأشبال أنهم في ليالي العواصف الهوجاء يلتقون أشباحاً تهيم في الممرات ويسمعون صراخ المواليد خلف المراحيض. كانت تلك الإشاعات تروج في تلمسان بإلحاح وتقاطع جعل الكثير منا يفضل أن يبول في فراشه على أن يجازف بالذهاب إلى دورات المياه بعد منتصف الليل. كنا نسكن في أبنية جديدة، لا تشبه في شيء المهجع القديم بممراته المبهمة وأدراجه الخطرة، لكن الهلوسات كانت حاضرة في حفحفة الستائر وفي طقطقة السقوف وسط الأطياف العابرة التي تبرز عند مقدمة أسرّتنا، تساعدها في ذلك النواصات الحمراء التي تنزف في مؤخرة المهاجع، مجبرة الآرقين على التقوقع حول وسادتهم إلى غاية انبلاج الصبح.

لم يكن الأمر يقتصر على تلك الليالي الجهنمية ؛ فقد كنت أريد مغادرة المشور إلى غير عودة. كنت أكره بابه وأسواره وكآبته وأشجار الدلب فيه ومطعمه والاستعراضات التي كنا نقوم بها تحت وابل البَرَد ورتابته ؛ كنت أكره مكبر صوته المخنن، وأيام الأحد المضحكة ورحلاته المنهكة، وابتزازه لنفوسنا. كنت متيقنًا من أنني بعد قضاء أربع سنوات بين جدران سجنه في التعفن واليأس، سوف أنهارُ تماماً إن حدث ورسبت في امتحان الشهادة الابتدائية. كانت القليعة أفق الطير المهاجر الذي كنت أحلم به، وولادة جديدة تحت سماء أقل ظلماً، وانطلاقة جديدة، ولم لا، وصل ما انقطع من وشائج مع حظ ما فتئ يدير لي ظهر المجن. لم أكن أفكر في الهروب من قدري الذي كنت متيقناً من أنه كان مكتوباً

بأحرف دامغة : غير أنه طالما أن الذهاب لا مفر منه فالأجدر أن يكون المسير بقدم راسخة. في تلمسان، لم يكن يخامرني شعور بأني أسير نحو مصيري، بل بأنني كنت أُجر إليه جراً كالخراف تساق نحو المسلخ.

نُشرت النتائج في الصحافة. كان ميداس في غاية السعادة : أثبتت مدرسته لمرة أخرى بكل جلاء أن سمعتها لم تكن هذراً. فقد حطم معدل النجاح كل الأرقام القياسية. جمعنا القائد غزيل في الساحة الكبيرة، وانهال علينا بخطبة رنانة. كان منبهراً. وجلجل صوته الجهوري في أرجاء القلعة، كصوت سيد مستنير يدعو رعاياه الشجعان ليتبعوه إلى جهنم. وكم أغدق من حركات التبجيل وكم تحذلق بمخارج الحروف. كانت بنيته المهيبة تضفي عليه وقار الزعماء. ضخم الجثة مقوس المنكبين مزلزل الصرخات، ذا صدر متين كجدار حامل. وكانت عظمة القائد لديه تتماشى دون أي عقدة مع هيئة هرقل الاستعراضي، مما يجعل منه شخصاً مقبولاً. قلما كان يخرج من عرينه، إلا إذا كان لا بدّ من تدخله : عادة من أجل التذمر من أفعال التخريب التي يقترفها مرسلي الشيطان وطغمته. في حين أنه لم يكن يلكم الصبية الأشقياء. مرة واحدة فقط رفع يده على شبل صغير ارتكب خطأً فادحاً عن غير قصد. كان يريد للطمته أن تضاهي في قوة ردعها غضبه المستشيط. لكنها كانت أكثر من ذلك بكثير، فقد خرج الصبي بحول في عينيه صدمنا جميعاً، وكان الضابط أول المصدومين. أعطى نجاح دفعتنا تلك السنة فرصة لمدير المدرسة كي يكفر عن سيئاته في نظرنا. فقد هنأنا واحداً بواحد بضمنا إلى صدره، ونوه بشجاعتنا ومقدرتنا، وباركنا واعداً بأن يكون إلى جانبنا حيثما كنا.

كنت أسبح في الغمام فرحاً.

أرى نفسي قبل الأوان في القليعة. أمسك بزمام أموري. كادت شدة فرحي أن تجعلني أغوص في حالة انتشائية، لو لا أنه، هناك، على معزل من الغبطة الجماعية، كان مومن المختفي بين الشجيرات يلوك حزنه بصمت. فهو لن يرافقنا إلى الجزائر. لم يرد اسمه في قائمة الخريجين. يا للروع. كان علي أن افترق عن أعز أصدقائي، عن ذلك الذي دافع عني وأحبني كأخ أكبر. تقطعت نياط قلبي حسرة. كان سوريسو المقرفص بجانبه يحاول التخفيف عنه. نجح سوريسو في الشهادة الابتدائية غير أنه أخفق في إيجاد الكلمات المناسبة لمواساة زعيم شلتنا. دنوت منه مضطرباً، يغمرني شعور بالذنب لكوني سرت بمحاذاة الفخ الذي وقع فيه. هدأ من روعي بغمزة من طرف عينه، ثم نهض بعظمته المشهودة ومد لي يده مصافحاً ليهنئني قائلاً:

— أرأيت؟ لم يكن الأمر بهذه الصعوبة.

أطرقت مرتبكاً.

— هل أنا منغص للأفراح يا محمد؟

— بالطبع لا.

— إذن لم تقول عني بأني منكد المسرات؟ لا أريد أن أفسد فرحتك، أتفهم؟ إن كنت تبدو حزينا في حين أن من حقك أن تطير فرحاً فهذا بالتأكيد بسببي أنا. ليس ذنبك أني رسبت. لم أعمل جيداً، وعلي ألا ألوم أحداً سوى نفسي. أؤكد لك أنه لا يضيرني أن أعيد السنة. على الأقل سوف أكون الأكبر سناً، وربما رئيس الطاولة. سوف أقوم بجمع الكراريس وأساعد المعلم أثناء الدرس. كنت أحلم بذلك دائماً، ألا تذكر؟ ثم ماذا تعني القليعة، وما تعني مهنة

الضابط؟ لم أختر أن أكون جندياً. عندما أبلغ السنّ التي تسمح لي بالمطالبة بحقوقي دون أن آخذ الفلقة، سوف أسدد مصاريف المدرسة وأعود إلى داري. السنة السادسة أو الخامسة، الأمر عندي سيّان. لم أختر أن أكون هنا. فليحمدوا ربهم أولئك الذين احتجزوني هنا كخردة حقيرة أنني لم أجرجرهم أمام المحاكم.

كان متأثراً جداً، على قاب قوسين أو أدنى من أن يجهش بالبكاء. لكنه لم يذرف دموعاً. لم يكن ذلك من طبعه. بل على العكس،تجاوز محنته وأصر على أن يبقى إلى النهاية مومن الذي أُوقره! مومن ذو الشخصية القوية، عزيز النفس مستقيمها، الذي لا يرهبه سوط ميداس ولا المسطرة الحديدية للمعلم، مومن المسؤول الذي يعترف بأخطائه في الحال ويسهر على عصابته الصغيرة كما لا يسهر أب على أبنائه.

انتقل أبي شخصياً إلى تلمسان. اخبره كاتبه بأن اسم شخص يدعى مولسهول مذكور في جريدة الجمهورية. بهت في البداية، لكنه سارع إلى شراء خمسين نسخة لتوزيعها على زملائه. كانت تلك المرة الأولى التي يظهر فيها اسم مولسهول في يومية. وكان ذاك الاسم اسم ابنه. ما كان لقوى الأرض أن تكبح جماحه. فقفز في سيارته وسار بتهور نحو المشور. كان يود أن يهنئ ابنه المعجزة شخصياً، أنا فخور بك، لا يمكنك أن تتصور إلى أي حدّ أنا فخور بك، لكن سرعان ما خبت سعادته. فعندما طلب أن يأخذني إلى البيت قوبل برفض قاطع من طرف الضابط غزيل. إذ أفهموه أنه بما أنني كنت تحت وصاية أمنا، فمن غير الممكن أن يسلمونا له. جرب أبي حظه عند ميداس الذي كان يتفاهم معه تماماً.

فأعرب له هذا الأخير عن أسفه. انتابت أبي نوبة غضب يؤرخ لها ؛ ولم يخفف وعيده ولا احتجاجاته من صرامة القيادة. وبعد أن لانت عريكته، امتثل وطلب الإذن باصطحابي إلى مطعم في المدينة. منح الإذن بالنسبة لي أنا فقط. لم يلح. ودعاني إلى مطعم شعبي في الوريط، وهو مكان يشتهر بشلالاته الجوفية، وطلب لي أسياخًا من اللحم المشوي، وفجأة، أجهش بالبكاء، هكذا أمام الزبائن والنُدُل. لم أدرِ وقتها إن كان ذلك بسبب الانفعال الذي أثاره نجاحي في امتحان السنة السادسة أم الندم الذي قرع سنه. تألمت من أجله. بعد انتهاء الوجبة، عرض علي نقوداً، فرفضت بإيماءة من رأسي. كنت قد قبلت دعوته حتى لا أُحرجه أمام ميداس. لكن الآن وقد انتهينا من تناول الغداء، كنت متلهفاً للعودة سريعاً إلى القلعة. كنا سنذهب في عطلة الصيف في اليوم التالي، وكان الشوق إلى أمي يغمر كياني.

كان لأمي جريدتها أيضاً. أهداها إياها أحد أبناء إخوتها. ألصقت الصفحة المباركة على الحائط في الصالون بين أيقونتين رخيصتين اشترتهما من سوق الخردة، تمثلان سيدنا علي وهو يجهز بقضه وقضيضه على الكفار. بتلك الطريقة كانت الزائرات سيكففن حتمًا عن الإيعاز إليها بأنها بلا زوج، بلا رجال.

كم ازدادت أمي جمالاً، سمنت بعض الشيء، وعيناها استعادتا تألقهما السابق. وجلجلت زغاريدها في العمارة كالتعويذة. بدأت تصدق نبوءة سيدة مكناس. لم يكن محمد هو الذي يمشي في النور، بل كان النور ينبجس منه. ضمتني إلى صدرها وأبقتني بحرص بين ذراعيها. كان الموقف محزناً جداً لدرجة أن هواري الذي كان ينتظر دوره ليُقبّل تمنى لو أن

المشهد الذي نعرضه أمام ناظريه لا ينتهي أبداً. هناك لحظات تستحق اهتمام العالم أجمع ؛ وتلك التي كنا نعيشها كانت تستحق أن تتوقف لها الأرض عن الدوران. لم تبك أمي. كانت قد منعت نفسها من البكاء. ولدها ملك يمسك بصولجانه بيد وبالأخرى يد الله. كانت تقول ذلك لأخواتي، وتقوله لإخوتي وتقوله للجدران وللبلاط وللأبواب وللستائر. ولكل من تأبط كفناً لوأدها.

كانت عطلة رائعة. لم تكن لدينا الإمكانات للذهاب إلى الشاطئ. لكن ذلك لم يكن ليضيرنا. فقد بقي لنا الصيف. الصيف في الجزائر سعادة بحد ذاته. بطالته الهانئة لذة، وعُذرية سمائه روعة. وبما أنّ المصطافين قد هربوا من المدينة، فقد استحوذنا على الشوارع والأراضي المهجورة. كنا نلعق واجهات المحلات وننتشر في المقاهي المفروشة في الساحات، حيث تقدم لنا أكواب كبيرة من عصير البرتقال مقابل دريهمات زهيدة. كنت آخذ هواري وسعيداً ؛ وعبد السلام إلى الحديقة العمومية وإلى الملعب أحياناً لمشاهدة فرق أحياء تحاصر مرامي الخصوم. كان عبد السلام يتلكأ في عالمه الموازي. ولم يكن يدرك مدى الدهشة التي يثيرها من حوله. أحياناً يسألني بائع التذاكر إن كان أخي نوعاً ما... فأجيبه بأنه كان بالفعل نوعاً ما، ما عدا أن له الحق في حصته من الوجود. كانت توجد قاعة سينما للأطفال في سانت أوجين، تسمى شاشة الصغار، تعرض فيها أفلام الرعب أو ملاحم الآلهة الإغريقية : هرقل وأورسيس وأوليس وماشيست التي كان هواري مغرماً بها. ولأني لم أكن أملك من النقود ما يكفي لشراء تذكرتين،فقد كنت أشتري تذكرة واحدة، أحضر بها لمشاهدة الأحداث الإخبارية، ثم أعطي

تذكرة الدخول وقت الاستراحة لأخي هواري كي يتمكن من مشاهدة الفيلم. وكان في نهاية العرض يحكي لي القصة. وذلك يكفيني. عمي مبيريك كان يسكن شارعاً بلا اسم في حي فيكتور هوغو. يعطف علينا ويضع تحت تصرفنا القليل الذي كان يملكه. كنت صديقاً لابنه حميدة، الذي كان يقتسم معي وجباته ونقوده. كان عمره أربعة عشرة عاماً. عند انتهاء السنة المدرسية يتحول إلى بائع لثمار الصبار. فكان يصنع عربة صغيرة تجرها دحروجات معدنية يجوب بها أرجاء الحي. وفي المساء، يأخذ قلاّمة أظافر ويجهد في استئصال عشرات الأشواك الصغيرة المغروسة في يديه، ويخرجها الواحدة تلو الأخرى... ثم، كانت هناك ابنة العم ك، جميلة كرذاذ البلّور ؛ وكانت تحبني بقدر ما كنت أحبها. كانت تقول بأن الخانة التي تزين خدي تناسبني بشكل رائع. كنت بالنسبة لها أمير الفتيان ولا أحد يضاهيني ؛ كل شيء فيّ كان يسحرها. مع أنها كانت تكبرني بثلاث سنوات، إلا أنها لم تكن تتصور مستقبلها دون أن تمنحني فيه مكان الصدارة. في الواقع، كنت أمثل مستقبلها وحلمها ومشاريعها وأغلى أمنياتها. على الرغم من أن شيئاً ما كان يحدثها بأنها لن تكون امرأة حياتي. ومحتدها الفقير جعلها لا تجرؤ على تخيل يدها الملبسة بقفاز أبيض تلتف على ذراع ضابط. إذ أنها لم تنل حظاً من التعليم ومهاراتها كطباخة متمرسة لم تكن تشكل بالضرورة معايير جازمة. في كثير من المرات، وبينما كنت أتصفح وإياها مجلات للنساء، كانت تضع إصبع حورية الجنة الذي كانت تملكه فوق عارضة أزياء حسناء وتقول لي : هذا هو صنف الزوجة الذي يليق بك يا محمد، كان صوتها إذّاك يخرج حزيناً، وتتعلق عيناها بيأس على

عيني لترى إن كانت الفكرة تناسبني. كانت تبالغ في الاعتناء بشخصي، تحضر أكلي وترتب سريري وتكوي قمصاني وترتق جواربي ولا تحتمل أقل تكشيرة في وجهي. وتمكث أثناء العطلة في بيت أمي. وفي الليل، تفرد أغطيتها قرب سريري وتسهر على نعاسي كالنجمة. كم من مرة جعلتها تعيسة لمجرد حردي عليها؟ كم من مرة حطمها رحيلي المتكرر؟ كانت من صنف النساء اللواتي يخدمن رجلاً بتفان مطلق، واللواتي كان الحب لديهن بنفس قوة الإيمان. لم تقاوم غادتنا قوانين التقاليد. فقد كانت موعودة منذ صغرها لابن عم آخر، تزوجها بعد بضع سنوات. بلغني الخبر عندما كنت في القليعة. كان يوماً أسودَ.

كانت عودتي إلى المشور بمثابة توقف مؤقت. فقد رجعت لأودع القلعة ولأرمي سبع حصوات بيضاء من فوق كتفي كي لا تطأها قدماي ثانية. جاء منخرطون جدد لتعزيز الصفوف المفرغة: أولاد لا تتعدى قامتهم أشباراً ولا يزال أثر حليب أمهاتهم على أسنانهم. كانوا مصطفين كيفما اتفق، وهم يلعبون بأصابعهم محدقين في الأجواء الجرداء التي تحاصرهم مثل جراء جمعتها مصالح البلدية ورمتها دفعة واحدة في حظيرة كلاب. كان المساعدان بحوص ومنديل يرافقانهم؛ وفي الأمام جعل المساعد الأول توفالي الجالس تحت إحدى أشجار الدلب، يحول ألقابهم إلى مجرد أرقام. سارعت للالتحاق بمقري. في المهجع كان الجميع ينهي حزم الأمتعة. تبادلنا القبلات. وتركنا الحوائج المُلبّكة للأصدقاء الباقين. بعد قليل، سيقلنا قطار إلى منطقة الجزائر العاصمة، وسيمكننا انطلاقاً من عربات القطار أن نستمتع بمناظر البلاد. أهديت مومن صندوق صوري وساعة معصمي.

استحسن بادرتي، ودسّ بدوره في جيبي حافظة صغيرة من الجلد تختزن قوة تعويذية. جاء صوت الصفارة ليذكرنا بأن وقت الوداع قصير. فرفعت كيس سفري وغادرت المرقد دون أن ألقي نظرة على الأسرة المتناضدة حيث ترقد أشباحنا.

في الفناء، بدأ صبر الراحلين ينفذ. وقف سوريسو وأخوه حميد في الصف الأول، ووراءهما يهيج أشبال آخرون. كانوا من الراحلين هم أيضاً،إلا أن طريقهم يتوقف في البليدة. نجاحهم في الامتحان لم يحقق آمالهم. إذ اعتبروا كباراً في السن بالنسبة للقليعة، لذا تم توجيههم إلى مدرسة ضباط الصف.

كان ميداس يخفي دموعه تحت نظاراته الشمسية. أولاده كانوا سيرحلون إلى وجهة بعيدة. وسوف يفتقدهم، لكن بما أنه احتفظ بسوطه في مكتبه، فذلك لم يبلبلهم.

وصلت الحافلات. انتهى كل شيء... انتهت، قاعة المناداة، - في القليعة التي تبعد بحوالي خمسمائة كيلو متر عن بيتي، كنت متيقناً من أن أحداً لن يأتي لإزعاجي - وانتهت الفلقة، والشوربة العسيرة الهضم، والمشاوير الإجبارية، انتهت الطفولة المخذولة - كان بلوغي يورّم ثديي، وألمه يشملني...

بقي مومن في المرقد وراح يرقبنا من النافذة. وجهت له إشارة وداع صغيرة ؛ لم يلحظها. اتخذت مكاني على مقعد قرب السائق. في الخارج، كان الممرنون يرموننا بتهكمات ساخرة لم تؤثر فيّ. لم أكن أريد سماع شيء. كنت أنتظر بحرقة أن يفتح الباب المقيت فمه الكبير ليلفظني خارج أحشائه النتنة. من ورائي كان الراحلون يغنون وهم يقفزون على مقاعدهم. كان صخبهم يهدهدني...

لم أكن أحمل في صدري أي ضغينة.

بالنسبة لي، انفتحت صفحة جديدة. وبما أن الصفحة الحالية لا تناسبني، فلم يكن لدي أي سبب كي لا أطويها. كانت الأسوار تسترسل على يساري. في بعض الأماكن تستوقفني ذكريات لتسائلني : سرير يقلب رأساً على عقب ؛ صبي ينسج أقاصيص ؛ آخر يرفض أن يغفر لي ؛ سي الطيب يبحث عن طقم أسنانه في الوحل ؛ طيف ؛ أغنية. أو كنت أنا من يدندن؟، اقفزوا يا أطفالي، العبوا، اركضوا، أنتم تستاهلوا، كما انطلق الصوت المتحمس الجهوري لمدير الدراسات العجوز.

كلا، لم يكن المشور جهنم ؛ كان مجرد عالم لا يتلاءم مع وضع الأطفال. لقد أحبونا بوسائلهم المتواضعة، في حين كنا نطالب بحب العالم بأسره. غير أني احتفظت للمشور بزوج من الذكريات صاحبتني طوال حياتي المهنية كضابط. الأولى تحمل الرقم 18، والثانية لقب بيبي روز. بقي هذان الصبيان إلى جانبي حيثما حللت، يمنعاني من التخاذل ويزوداني بالشجاعة التي لولاها لما أصبحت الرجل الذي أنا عليه اليوم.

لم أتمكن أبداً من الاقتراب من 18. كانت سحنته الغاضبة تثبط عزيمتي. أول مرة رأيته فيها كان محصوراً بين ممرنين بدا وسطهما بحجم عفريت قزم، هزيل كالخيط بجبهة ناتئة وشفة مقلوبة على الذقن، كان يبدو وكأنه حانق على السماوات والأرض.

همس مومن في أذني وكأن الأمر لا يحتاج إلى تعليق :

— إنه 18!

— ثمانية عشر؟

— نعم، هو بالذات، لقد قبضوا عليه،لكنه سيطلق ساقيه للريح ثانية. لا شيء سيمنعه من الهرب.

هكذا شرح لي مومن الذي كان يُكِنّ للغريب إعجاباً شديداً.

كانت تلك المحاولة الرابعة لثمانية عشر في الهرب. لا يردعه رادع، ويتنصل دوماً من الرقابة المشددة المفروضة عليه. ذات يوم،عبأت إدارة المدرسة مجموع المجندين لتفتيش أسوار القلعة شبراً شبراً على أمل العثور على شق أو ثغر ينفذ منه. 18 لاشيء. لم يكن ينقص البناء العتيق حجر واحد، وداهية الأدهياء من كان يستطيع أن يفسر كيف يقوم صبي في التاسعة من عمره في التحايل على حراسه والتبخر في الفضاء. كان هو نفسه يلتزم الصمت. لا تخامره سوى فكرة ثابتة : الهرب... يختفي لعدة أيام، ويلقى عليه القبض، وما إن يعود، حتى يشرع في التنظير لخطة جديدة للهروب، وفر! فص ملح وذاب. في المرة الماضية عُثر عليه في الغابة، على بعد كيلومترات من تلمسان وقد كاد أن يموت من الجوع والبرد. بمجرد أن استعاد عافيته، قفز من نافذة المستوصف وركب جناحي النعامة. ولم يتمكن أحد من الإمساك به. علمني هذا الولد الحرون مبدأً أساسياً رافقني طوال حياتي : الإيمان بشيء ما ،معناه أولاً وقبل كل شيء أن لا نتخلى عنه أبداً.

أمّا الولد الآخر، المسمى بيبي روز، فقد تعرفت عليه في المستوصف الذي دخلته بسبب مرض عادي. بيبي روز لا يبرحه منذ مدة طويلة ويشعر فيه وكأنه في بيته. كان يتسكع في الممرات وهو متسربل بمنامته المخططة، دون أن يعطي إحساساً بأنه سائم. عنده كومة من كتب الحكايات موضوعة

على طاولة سريره، وأكياس لا تنضب من السكاكر ذات المذاق الحامض التي تودعها يد مجهولة في درجه، ولعبة العائلات السبع المرتبة بعناية في إحدى زواياه. كان سريره مكوراً إزاء النافذة التي أحب أن أراقب منها المساجين وهم يضربون بأقدامهم العربات النائحة. كان بيبي روز يترك لي كرسيه الصغير أو يدعوني للجلوس على حافة سريره. ننظر معاً إلى السماء دون أن ننبس ببنت شفة. كان كل منا يستغرق في التخاطر مع غائبيه. وكنا نتصفح الكتب دون تبادل الملاحظات، فلم نكن نهتم بأوراق اللعب أو بألعاب اليد. وغالباً، عندما يثير هدوؤنا شكوكنا، نذهب لنتأكد ما إذا كنا لا نزال موجودين في ذات المكان، ومن عدم وجود شيء مريب في غرفتنا. حتى المرضى الآخرون كانوا يتحاشون الانضمام إلينا، ويجدوننا على الأرجح عديمي الأهمية. كانت تلك العزلة تسمح لنا بتلمّظ همومنا وسكاكرنا بكل طمأنينة. وفي انتظار وقت الأكل، كنا ننسى أنفسنا ونحن نتأمل السحاب. ومن وقت لآخر، يلامسنا مرور لقلق لمساً خفيفاً. كان ذلك رائعاً. في الجهة المقابلة، ارتفعت مئذنة المسجد التي كانت الأسوار الخسيسة للقلعة تسعى جاهدة لتمويهها في ظلها. كان الأشبال بعد الصلاة يأتون لزيارتنا، ويحدثوننا عن آخر المقالب العفريتة لمرسلي الشيطان، ذلك الولد النفور الذي لا أمل في إصلاحه والذي جيء به من تنس واستهبل الممرنين والمعلمين. آخر نكباته كانت العزل التام للمدرسة عن الهياكل القاعدية العسكرية الأخرى للمنطقة ؛ لم تكن من وسيلة للاتصال بالخارج، فقد تعطلت كل شبكة الاتصالات، مما أسفر عن هيجان شديد كاد أن يؤدي إلى حالة استنفار. وذهب الرائد عباس غزيل إلى حد الشك في عمل تخريبي يهدف إلى

تعريض مؤسسته لاعتداء مسلح محتمل. والحقيقة هي أن مرسلي الشيطان لم يجد خيراً يفعله سوى اقتلاع الخطوط الهاتفية في أماكن متعددة من المدرسة لكي يصنع لنفسه جديلات سكوبيدو وأشرطة مضفورة. أعطاه ميداس فلقة العمر وحرمه من التحلية ومن الاستراحة ومن السينما ومنعه من التخاطب معنا منعاً باتاً. ولم يكن مرسلي ينهي قضاء نصف عقوبته إلا ليعيد الكرة من جديد بمقالبه الشيطانية الأكثر فظاعة من سابقتها. وكأنه لم يأت إلى هذا العالم إلا ليعيث فيه فساداً. حتى أنه وردت فكرة إرجاعه لذويه، لكن لم يكن له أهل. كان يترأس عصابة من خمسة صعاليك، ويمارس القرصنة على المركز بمثابرة مثبطة للعزائم، وتعلم الممرنون أن يبصقوا تحت قمصانهم لإبعاد التأثيرات الشريرة حالما يُبلّغ عن تواجده في مناطقهم.

سأل أحدهم من النافذة المجاورة :

— ما الذي فعله ذاك الشقي أيضاً؟

— لحد الساعة لم يظهر له أثر.هكذا الحال معه دوماً عندما لا يكون مرتاح الضمير لشقاوة اقترفها. لقد عُثر على البطارية المسروقة للشاحنة داخل الصهريج فاسدة تماماً، والعريف توفالي قد أقام الدنيا وأقعدها ليمسك به.

— قد لا يكون هو الفاعل.

— هل تعرف أحداً آخر قادراً على المخاطرة في حظيرة السيارات في عز الليل وإفساد غطاء محرك شاحنة بقضيب حديدي وسرقة بطارية لمجرد رميها في الماء؟

بعد ذلك، يسألوننا عن أحوالنا، وعما إذا كنا نحتاج لأي شيء وعن الوقت الذي بقي لنا في التخمر في جناحنا الذي كان يفوح بالميركركروم والملاءات المعقمة.

كان البعض الآخر يصفنا بكل مودة بالمتمارضين وبالمحظوظين. فكنا نرمي لهم بالسكاكر وعلب الشيكولاطة لنشكرهم على مجيئهم لمواساتنا. ولد مومنة الذي كان "متأثراً" بكرمنا، كان يركع فوق الحصى ويرفع يديه إلى السماء ليتوسل إلى اللّه كي يشفينا سريعاً ويعيدنا إلى فصائلنا حيث سيجد المساعد فرّاح نشوة قصوى في سلخ جلدة مؤخرتنا بحزامه المسمر؛ ثم يقوم بشقلبة بهلوانية مضحكة ليسلينا. كان بيبي روز يبتسم. أما أنا فكنت أضحك ملء شدقيّ. كان ولد مومنة مهرجاً كبيراً، ينحدر من عوف وهي دوّار أسطوري يقع في نواحي معسكر، فتصرفاته الفلاّحية الراسخة وكلامه الذي يخرج كالحمحمة يفرج عن كربة محتضر. كان عمره ثلاثة عشر عاماً. وكان غير ثابت ويمشي بخلاعة، وعندما يتنازل ويقوم بمجهود صغير، يظهر ذكاءً ملحوظاً لا يضاهيه سوى استهتاره. ورغم النقاط الممتازة التي كان يجنيها في القسم، إلا أنه يتدبر أمره كل مرة لكي يكتب اسمه في قائمة "أغبياء الأسبوع"، الذين يشهرون صباح الزيارات الأبوية فوق لوحات مهينة على مدخل قاعة المناداة، كي يعرف الزوار سبب معاقبتهم. ويمكن للمرء أن يقرأ على اللوحات التي يعلقها الأشبال المعاقبون على رؤوسهم عبارات بالفرنسية : "لكمت زميلاً" ؛ "أنا مخرب، كسرت زجاج نافذة" ؛ "أنا كذّاب"... على لوحة ولد مومنة كانت نفس الجملة تتكرر على مدى الآحاد، لدرجة أنه لم يعد هناك من داع لمسحها : "أنا أهرج ولا أضحك أحداً".

بعد رحيل زملائنا، كنت أرقب مع بيبي روز الجنود وهم يدخلون إلى المطعم. كانوا يعبرون الفناء بصفوف متراصة، وبخطوات رياضية، وصدورهم تصدح بأناشيد وطنية. وخلف

الفصيل، يقف رقيب بالغ الهمة حاد الخُلق وهو يزعق على من يود تصديقه، بأنه لن يتردد في لكز قفا المتقاعسين الذين يمسك بهم. كان ككل أصحاب "الرتب" الدنيا المزهوين بأنفسهم، يمسك عمرته بيده - وهو أمر ممنوع -، ويضع حزامه حول كتفيه، وبدلته مشرعة على كرش سكير يقمّطها قميص داخلي بشكل مضحك. يسعى من خلال إشهار وإعلان لامبالاته المتعالية أن يثبت بالدليل القاطع بأنه ليس مغفلاً، وبأننا لن نرهب الأعداء بزي فتيات الاستعراض. كان في منتهى الفخر ببدلته المبهدلة، مما كان يعني للكثير من قادة الدرك الأسفل علامة ظاهرية للسلطة والتبجح. كانت تلك التصرفات غير اللائقة تثير سخطنا نحن الأشبال. فأن نرى صاحب رتبة يمارس تماماً عكس ما يطالب به مرؤوسيه كان يعد بالنسبة لنا من أنكى السفاهات والمخالفات لنظام الجيوش. خاصة وأنه عندما يكون لأحدنا ياقة متصلبة أو رباط حذاء مفكوك فإن ذلك يعرضه للمثول أمام مجلس التأديب...

وعندما يحل المساء يغط الفناء في الخمول. وفيما عدا استبدال الحرس الذي كان يتم كل ثلاث ساعات تخوى الساحة إلا من السكون والفراغ. ويتهالك الليل على المكان، ثخيناً، يستنفذه بالكاد هنا وهناك صرير أو زعشات اللبلاب المنزعج من لمسات النسيم. على صوت نافخ البوق، تطفأ الأنوار؛ لكننا لم نكن مجبرين على الخلود إلى الفراش. شم الهواء الطلق وما كان يتبعه لم يكن يعنينا. كنت أمكث مع بيبي روز على حافة السرير نعد نجوم الأثير. في تلك اللحظات كنت أتفاجأ بنفسي وأنا أحكي له عن الطفل الذي كنته قبل المشور. أحدثه عن مزرعة كانت تديرها جدة مجاهدة، على طريق سان كلو شرق وهران، حيث تتعايش أشجار الرمان

والمشمش والإجاص واللوز، وحيث كنت أعشق رؤية الخراف ترعى على جنبات التلال المزغّبة. كان المكان يرشني بالشمس. نتجول في الهواء الطلق وعلى الرأس قبعة من القش مدكوكة للأذنين، وفي اليد هراوة بسبب الثعابين التي تتكور تحت الأجمات أو لمضايقة الفأر القابع في عقر جحره. كانت المزرعة الأكثر قرباً تقع في آخر الدنيا. وكل البساتين ملكنا. لم يكن للعطلة هناك مثيل في أي مكان آخر.كانت توجد أرجوحة وراء الإسطبل يتغازل عليها أبناء وبنات الأعمام على منأى من لوم اللائمين؛ وكوخ مهجور نبحث فيه عن كنوز مخبأة وحوض يغص باليرقات التي كانت التواءاتها التشنجية تنومني تنويماً مغناطيسياً. كان بيبي روز يستمع إليّ بعينين ملؤهما الانبهار. فقد جاء من المدينة، عالم من الإسمنت والحديد والطرقات الإسفلتية والأبنية التي تحجب الشمس وتكسر أشعة النهار كسراً. لا يعرف شيئاً عن الريف الذي يخلط بينه وبين العصور السحيقة المليئة بالبؤس والصعاليك ذوي الأسمال والنتانة. وصفت له المسكن بقاعاته الفسيحة والمشمسة وشرفاته الرائعة المغطاة بالفسيفساء، والسطيحة التي يمكنها احتواء قبيلة بأكملها، وأغاني الفجر التي تملصنا من أسرتنا في أوقات غير معقولة كما لو كان ذلك بفعل السحر، والريح التي تنفخ قمصاننا بينما كنا نجري فوق أطراف الروابي مقلدين الأحصنة، وضحكاتنا التي تحلق عالياً بين زقزقة العصافير؛ فردوس، حيث كل شيء يواتينا، وحيث تطرح الأشجار لنا ثمارها عندما لا تضعها رأساً بين أيدينا. كان يوجد نبع غير بعيد عن الإسطبل في جوف وهدة تسهر عليه شجرة زيتون عتيقة ووحيدة.في ذلك المكان،كانت العائلة تجتمع لتناول الغداء. أكل مفترشين العشب حول

مشواة تُصنع مما حضر. وأبي يهتم بنفسه بالشواء، وهو الذي يُعرف بأنه قادر على إعطاء محتوى محفظة نقوده طواعية مقابل قطعة لحم منهوشة. كان بارعاً في السيطرة على أكثر النيران معاندة، بصبر وحذق يبهراني. وبينما الحطب يتأجج بطنين مفترس، كان يلبس بحركة أسطورية أسياخ قطع اللحم المُعد للشواء بدوائر من البصل وشرائح رقيقة من الطماطم وخيوط من الفلفلة الخضراء ؛ ويضرب بها الهواء على طريقة مصارعي الثيران حين يشهرون مناخسهم، ثم يسكنها بكل أبهة وسط الجمر، على رنين ضحكات ربة البيت المفعمة بالحبور، والتي كان وجود الضابط - وهو المفضل لديها من بين أبناء إخوتها - بحد ذاته يشكل بركة وسروراً ما بعده سرور. كانت أمي وخالاتي تحضرن سلطات الخس وسلال الفاكهة. بينما كنا، نحن الأطفال، نشكل حلقة حول المجمر، ونشم الروائح الشهية للشحوم المشوية ولعابنا يسيل مثل جراء الذئاب في الرسوم المتحركة. كان بيبي روز لا يفتأ يحملق عينيه الملائكيتين وهو يفرك يديه. ووجهه يشع بتسام باطني. لا يتكلم ولا يقاطع ولا يسأل شرحاً أو تفصيلاً. وينهل من سردي دون حراك. كان ولداً رائعاً، وديعاً كالملاك. تحيط خصلات شعره المقصبة محياه الصبوح بهالة كالشمس المخرمة، مما يضفي على جماله تألقاً إضافياً يثلج صدورنا. فقد كان محبوباً من الجميع دون استثناء ؛ من الممرضة إلى المنظفة، ومن الرقيب الأول إلى الطباخ. كان عمره تسع أو عشر سنوات، وكان يصعب علينا أن نقر بأنه يمكن لأولياء أن يتخلوا عن ملاك بمثل ذلك الجمال وفي منتهى الوداعة. ربما كان يتيم الأب والأم لا أذكر. إذا لم تتناهَ إلى مسامعي رنة صوته الآن وأنا أكتب، فذلك لأنه قلما كان يتكلم. كانت مجرد

ابتسامة، خجولة وخاطفة، تلخص قبوله أو استكانته. وتتخضب وجنتاه لأتفه الأسباب فينغرس قُذاله كمن تهدده لطمة. كانت له غمازتان رائعتان ترسمان حفرة صغيرة على خدين مستديرين ورديين ؛ وكانت عيناه بصفائهما البلوري، تتبخران تحت نظرات الآخرين. وعند انتهائي من سرد قصصي، كنت أتوقع أن يأتي دوره في السرد. لم أكن أعرف إلا القليل عنه، وكنت أطمح إلى معرفة شيء عن والديه، ومدينته، وحياته من قبل، وأيضاً، ولم لا؟ عن أسراره الصغيرة. كان بيبي روز يواصل الابتسام في الظلام، ووجهه صوب النافذة وأصابعه متشابكة على ركبتيه. يبدو مستغرقاً في حكاياتي ولا يريد التملص منها.طرح عليّ سؤالاً واحداً طيلة مكوثنا في المستوصف : "ما هو شكل الجنة"؟ - كيف هي الجنة؟ - أجبته بأنها مكان جميل، باخضرار على مدّ البصر، وحيوانات صغيرة متعددة الألوان وأناس سعداء. لا أظنه كان قد سمعني. ارتسمت ابتسامته، ولم تتعد كلمة واحدة حواف شفتيه. كان يبدو موفور الصحة. لا أذكر أني وجدته يوماً طريح فراشه أو شاكياً من ألم ما. لكننا نعرف بأن مرضاً خبيثاً يحتجزه في المستوصف أسبوعاً تلو الآخر ؛ وكان تحويله باستمرار إلى مستشفيات تلمسان ووهران لا يدع مجالاً للشك. بيبي روز كان يعاني من مشكل إمساك خطير. وأنا في ذلك الوقت أجهل ذلك. وكان شديد الخجل كي يُفصح عنه. لكن الأمر لم يكن ليقلقه فوق اللازم. والأطباء يطمئنونه إثر كل معاينة بأن المرض طارئ ودون خطورة فعلية، ما هو إلا محفز بسيط ويعود كل شيء إلى نصابه. وبيبي روز يومئ برأسه موافقاً وهو مطمئن. إذ كان في توافق مع نفسه وفي توافق مع الجميع. زد على ذلك أنّ الحياة بطولها كانت أمامه

لينجو.. ذات صباح، عُثر عليه في دورة المياه غافياً فوق المطهرة. اختطفه منا الموت في الوقت الذي لم يخطر بباله أن يداهمه فيه. رحيله المبكر، المباغت وغير المعقول سيؤثر فيّ مدى الحياة.

وصف لي قصاصون كبار امرأة ضامرة، ملفوفة برداء أسود وهي تحصد الأرواح بالآلاف بمنجلها الفضي، وحدثني آخرون عن ساحرة زعّاقة تتسلى بمغزل كلما انقطع منه خيط زُهقت روح؛ وآخرون جعلوا عربة مثيرة لغيوم من العجاج تتوقف فوق المحتضرين لتحملهم إلى العالم السفلي ؛ بالنسبة لي، كان للموت ولوقت طويل، وجهٌ لطيف من الخزف لصبيٍ رائع يستحق من الاعتبار بقدر ما يستحق من الفرح، ولأنه حُرم من العيش بين ذويه، رحل خافقاً جناحه ليهز نجمة ساهية لم تحسن السهر عليه.

لا أعتقد أني صدمت بشكل خاص لفقدان بيبي روز. بالنسبة لي، قد لبّى صديق نداء ربه. كان أمراً مؤسفاً، لكنها الحياة. في حين أن ما هزني هو انعدام التمييز لدى الموت، ولم أكن أعرف كيف أبرر كونه يتهجم أيضاً على أطفال صغار تفتحوا لتَوّهم. حتى لو أن هؤلاء، على غرار الملائكة، مآلهم الجنة، كنت أجد نهايتهم منافية للطبيعة، ولم أقدر على تقبلها.

بعد أن فقدت الثقة التي وضعتها في أبي، هاأنذا أصبحت أرتاب من الحياة ذاتها. الآن، وقد بات باستطاعتها أن تفتك مني توقيرها، أي آمال كان علي أن أنمي؟ لم يعد للغد أي مصداقية في نظري ؛ وصار الوجود يبدو لي عرضياً جداً كي يستحق عناء معاناته.

أصبحت قدرياً إلى النخاع.

لم أكن أسعى لمعاكسة الصدف ولا لتحويل السبيل الذي شقه لي أقراني. ولأني لم أكن أعرف ما ينتظرني، فقد اخترت أن أتقبل الأمور كما تطرأ ؛ بهذا الشكل، سيكون عزائي - كما فكرت - بأني لن أحمل نفسي مسؤولية خيباتي. لذا لم أتمرد على سوء استعمال السلطة - التي لم تثن، على أي حال، وفي أي وقت من الأوقات، عزم الضابط الذي أصبحت -، ولا على سخرية القدر، التي بهدلت كما طاب لها الروائي الذي كنت أحاول أن أكون ؛ لكنني في المقابل، تحليت إلى النهاية بصبر أيوبي كي أجعل ما لا أستطيع أن أصل إليه يأتي إلي. سيكون ذلك صعباً، وأحياناً قاسياً، لكنني سوف أصمد دون أن يداخلني شك ولو للحظة واحدة في معاناتي. سوف يكون لثمانية عشر ولبيبي روز فضل كبير في ذلك. لا أعرف مصير الأول، ولا إن كان الثاني سعيداً حيث يوجد. إلا أنني أعرف بأنهم أعطوني الشيء الأهم : الشجاعة في أن أتقبل قدري، وأن لا أتخلى عما أعتبره أقوى من القدر، ألا وهو موهبتي ككاتب.

الفصل الثّاني

جزيرة القليعة

إنّ الخطيئة الأصلية للفن هي أنه أراد أن يقنع ويعجب، تماماً مثل الأزهار التي تنمو على أمل أن تنتهي في مزهرية.

جان كوكتو

كتب ألفونس دوديه في. *Tartarin de Tarascon* : "صاح السائق : البليدة، البليدة".

ثم برزت البليدة في لفتة منعطف.

كانت مدينة جميلة جداً، أنيقة وعطرة، مزدهرة في قلب البساتين والحقول المتلألئة. تسمى "مدينة الورود"؛ وكانت أكثر من سلة مزهرة. تبدو وكأنها مستلقية تلفحها الشمس، تشبه سلطانة أسقمتها لواعج الهوى، وقد غطى ثوبها الأخضر بالسحر سهول المتيجة. وراءها انتصب جبل الشريعة كطواشي متزلف ومتنبه، يتلقف تنهداتها ورأسه مغمور بالسحاب. كان المنظر الذي يمنحانه لنا معاً من الروعة بحيث لم نكن نحس بلهاث القاطرة. بدا القطار وكأنه قد التزم الصمت، كما لو أنه كان يدوس الأجواء الندية لمقام مقدس. ومع انعكاسات النور السرابية التي يحدثها الصيف كدنا نخال أنفسنا في مكان ما من الجنة. كنت أتأمل، ووجهي ملتصق بالنافذة، روعة المناظر التي تترامى على مد البصر، المكللة بمزارع متألقة، وبرتل من أشجار السرو والشرارات النجمية. في لحظة ما، وبينما كان ذلك الجمال المفرط يهدهدني، ظننت نفسي ألمح مومناً يهمز بغله الأبيض وينهب الأرض نهباً لنجدة محبوبة، الله أعلم من تكون. كان ذلك رائعاً. وكان رقم 53، الجالس على درجة القاطرة والنسيم يعبث بشعره، يبرز لي إبهامه كناية عن افتتانه. وانحنى أشبال آخرون نحو الخارج بحثاً عن البرودة، وقد نفخ النعاس أعينهم، وأنهكت الرحلة تقاطيعهم. كانوا يفغرون أفواههم

على اتساعها ليتمضمضوا بالريح المتسارعة وهم يضحكون، في حين كان أولئك الذين لم يتمكّنوا من الوصول إلى نافذة المقصورة يتناحرون بالمرافق ليكونوا في الصفوف الأولى. عدّل سوريسو بدلته ومسّد عمرته ليلصقها بصدغه، كان يصر، وهو النرجسي شديد الاهتمام بالتفاصيل، أن ينزل على الرصيف نزلة الفاتح. كانت المحطة تعج بعائلات تكدست فوق بقجها من فلاحين عائدين من الأسواق، ونساء ملفوفات كالمومياء بألحفتهن الغبشاء التي لا تترك سوى كوة صغيرة في الرأس ترقب منها عين واحدة الزحام والجنود الرازحين تحت عبء أكياسهم البحرية. ثم، انتصبت أمام الحشد لجنة الاستقبال التابعة للمدرسة الوطنية لأشبال الثورة بالقليعة مظهرة بتحذلق هيبتها. كان الاستقبال حاراً. رحب بنا الملازم ورآد "في بلاط العظماء" ودعانا للركوب في الحافلات التي كانت تنتظرنا في الموقف. كان رجلاً أشقر مكتنزاً تجاوز الأربعين، متغطرساً بعينين زرقاوين؛ يتكلم الفرنسية دون لكنة وبطلاقة فائقة جعلتنا نحسبه رومياً.

تقع القليعة على بعد عشرين كيلومتراً من البليدة. كان الطريق الذي يوصل إليها كالسراط المستقيم. وقد استرسلت على جانبيه السهول التي يشقها وادي مزفران بتعرجاته الكسولة وفيضاناته غير المتوقعة. كان هناك أطفال يتسابقون عبر البساتين ووراءهم كلابهم. وشيخ عجوز يمتطي حماره متوقلاً الدرب وعمامته محلولة. وهنا وهناك، زمر من المزارعين العاملين في الحقول. ومن بعيد، رهط من النسوة ينسكب على ضفاف النهر، وصغارهن يتخبطون في الماء. رأيت طيف أمي على زجاج نافذة الحافلة. كان ذلك عالمها المفضل. وأنا، المصعوق في مقعدي، كنت أفهمها. لو كان

لي أن أختار بين نفخ البوق ورنين الجرس، لما ترددت في الانصياع جهة عنزة كي أراها ترعى في أكمة بطوقها الرنان تحت لحيتها. لكنت أعطيت كل ثروتي ونياشيني وميدالياتي مقابل غفوة تحت جذع شجرة بمنأى عن جنون البشر ؛ لكن ثروتي لم تكن تتجاوز بضع قطع من النقود ، ولم يكن يزين بذلتي لا ميداليات ولا نياشين. بجانبي جلس 53 وهو يبتسم. كان مسروراً. وطمأنني قائلاً :

— سوف ترى، إنها مدرسة جيدة. لا تشبه المشور في شيء. لا توجد أسوار حيث نحن ذاهبون، بل مجرد سياج من الأسلاك يمكن لأي كان أن يتسلقها بقفزة واحدة. أخي الأكبر مصطفى يوجد في القليعة منذ سنوات. أحس من كثرة ما حدثني عنها بأني أعرفها شبراً شبراً. حتى أنه توجد غابة أيضاً. صدقني، غابة نصل إليها مباشرة من ملعب كرة القدم. وهذا ليس ممنوعاً. أؤكد لك بأنك لن تصدق ما ستراه عيناك. لا وجه للشبه مطلقاً مع المشور. على أي حال، لا أعتقد أنه يوجد مكان في العالم أسوأ من المشور. كلا، لا أظن ذلك لا أظنه على الإطلاق. أتدري بأني كدت أن أفقد عقلي هناك ؟ يا للبؤس... كانت حياة تعيسة.

7.

أنا الرقيب الأول عكاشة. عريض المنكبين، ضيق الذهن منيع من الخلف، ومتوثب من الأمام. أولاد البغاة يلقبونني كلوفيس. أظنها كنية أحد كبار الأوغاد. سوف أسعى كي أكون أهلاً له. أحكم في الفرقة الرابعة دون تحفظ ودون شراكة. من الآن فصاعداً أنتم تحت سلطتي. الأجدر أن أحذركم في الحين : أنا معتوه تماماً، أي أنني عسكري من ألعن الأصناف، متعنت ووغد. ولدي حساسية ضد روح الفكاهة والمزاج الرائق. أتقاضى أجري كي أثير سخطكم، وأعشق ذلك. وأخصص لكل واحد حصته من الملذات. نلت من التعليم ما ناله سائق الطنابر، وهو السبب الذي يجعلني أضطر لأن أستعمل قبضتي كي أفهم، والاثنتين كي لا أكرر. باختصار، أنا شخص فظ. أستعمل رأسي كي أعطي ضربات دماغ، ويدي كي أسلخ جلدة إليتكم، وقدمي كي أدوس عليكم. لم أطلب فرزي إلى هنا، وبما أن أحداً لم يجبرني على اختيار البدلة العسكرية، فأنا لا أناقش الأوامر. ولن تناقشوا أوامري أنتم أيضاً. حديقة الأطفال لتلمسان وبشار وقالمة حكاية قديمة. هنا لا يوجد أحد ليمسح قفاكم عندما تنتهون من التغوط، وليلف الرياقة حول أعناقكم ويلقمكم بالملعقة الصغيرة. هنا، أرض الصناديد، بخلاف أنهم يلبسون بردعة ويضعون غمامة. سيكون الأمر صعباً، صعباً جداً. لاحظتم أنه لا توجد أسوار حول المدرسة. هذا ليس بسبب تقشف في الميزانية. ما على الخرق المبللة وأشباه النساء إلا أن يفسخوا أسلاك السياج ويهربوا إلى أبعد مكان ممكن. والأفضل لهم ألا يلتفتوا وراءهم. أما الباقون فليحترسوا. هذه

ليست نصيحة، إنه إنذار... آمل أن يكون كلامي واضحاً مفهوماً ودقيقاً. أكره الدردشة ؛ ذلك يهيج حنجرتي، وبعدها لا أستطيع أن أعب الخمر كما يحلو لي. إذن، يكفينا هذراً اليوم. شعاري من أبسط ما يكون : لكزة في الدبر خير من ألف خطبة، وسحنة مهشمة خير من ألف موعظة. خلاصة القول، وبما أننا بين رجال، الأولى أن أكون صريحاً معكم : أنا ابن زانية قح. أعطتني الطبيعة قضيباً للقيام بمهمتين فريدتين : أولجه في دبر المهرجين، وأبول على أوصيائهم. لا فرق عندي بين ابن ذوات وابن فقير، لا يوجد سوى خراف أجزها كما يحلو لي. هل فهمتم جيداً أم علي أن أكرر؟

زعزعتنا خطبة الاستلام تلك. كنا نتوقعها، لكننا لم نتخيل أبداً بأن رئيساً، من المفروض أن يكون قدوة في كل الظروف يمكنه أن يستبيح حق التكلم بمثل تلك اللهجة البذيئة وتلك الغطرسة المنتفخة. لم يعودونا في المشور على كلام من هذا النوع. كانوا يعاقبوننا بشدة، ويعنفوننا دون أن يسمحوا إطلاقاً للبذاءة بأن تختلط مع التعنيف. كانت من نوع : "سوف أسحقك أيها الوغد الصغير" ؛ "اقترب قليلا من هنا لأريك أيها الحقير"، لكن دون شتائم ودون بذاءات فجة. كان الرقيب الأول عكاشة يبدو فخوراً بمفرداته، لا تضيره السوقية في شيء ؛ بل الأدهى من ذلك أنها كانت تلائمه حفراً وتنزيلاً. كان رجلاً ضخم الجثة مدكوكاً، بذراعين يصلان إلى الركبتين، وذقن مشقوقة إلى نصفين بغمازة مفترسة. كانت له عينان زرقاوان مخيفتان تحت جبهة عريضة وسافرة، وسحنة وغد تذيلها تكشيرة سحالي. كان يبدو بين الثلاثين والخامسة والثلاثين من عمره، بقبضتين منكمشتين حول غضب في حالة تأهب مستمر. وكنت تخاله وهو رابض بثبات

قدم مصارع وكأنه منحوت في شجرة سنديان لما كان يعطي من إيحاء بأنه قادر على الصمود في وجه الأعاصير. كانت له طريقة فظيعة في معاملة محيطه، وكأنه يتمالك نفسه كي لا يدمره. وكانت عداوته تطفر من حدقتيه ومن فمه بنتانة تضاهي نتانة المجاري، كما لوكانت متأهبة لتمزيق كل من ينسى نفسه في متناولها.

وتعبيراً عن رضاه في أداء قسمه، تنحنح والتزم دقيقة صمت، ما يكفي من الوقت كي نهضم سمه الزُعاف. ذهولنا أرضى غروره. فقد أصاب الهدف من الضربة الأولى ؛ انفرد حاجباه وانفرج ثغره قليلاً. أمرنا أن نقف في وضعية استعد، ووجد بأننا لا نضرب بقوة كافية على كعابنا، فجعلنا نعيد العملية أكثر من عشر مرات إلى أن انتظم صوت جزماتنا في صفقة واحدة. ثم قام باستعراضنا وصدورنا منتفخة وأذقاننا مشرئبة عالياً، وتوقف أمام كل واحد منا متفحصاً كسرات سترتنا، ونظافة ياقاتنا ولمعان أُحذيتنا. وإذا برز شيء ما خارجاً، كان يعدله بيد جافة أو يكنسه بنقفة، حسب ما تواتيه الوجوه. كان على ما بدا، يكره المزهوين بأنفسهم والبشعين ويكن قرفاً مستميتاً للشعر الأجعد.

عندما وصل إلى مستوى الصغير غالمي، ازدرد بتشنج. كان لغالمي إحدى عشرة سنة وطول يربوع.

طفل نابغة وهامشي، يهمل نفسه كي لا يكرسها سوى لشغفه المفضل : مؤلفات كونتيسة سيغور وأغاني جاك بريل التي كان يكتبها على أوراق منفردة مهترئة. كان يتيماً واستعصى عليه تفسير زواج أمه ثانية، وهي التي كان يبجلها بكل تفان. دفعه كلوفيس بإصبعه كي يتمكن من التفرس فيه، وحك بعض اللطخات الجافة من على كتّافتي

الشبل، ورفع ذقنه وأجبره على مد ذراعيه. كان غالمي مهووساً بأكل أصابعه إلى حد النزيف. فقد تقريباً كل أظافره وكادت أطراف أصابعه أن تختفي تحت أشلاء صغيرة من اللحم المنهوش حتى الشبع.

— ما اسمك ؟

— عبد الحفيظ غالمي، سيدي.

— من أين أتيت ؟

— من المدرسة الوطنية لأشبال الثورة في تلمسان، سيدي.

— هل أنت متأكد من ذلك ؟

— نعم.

— وأنا أقول لك بأني لا أشاطرك الرأي. أنا أعتقد بأنك برزت لنا من أحد المستنقعات. أطراف القوارض أقل تنفيراً من أطرافك. لماذا تتحامل هكذا على كماشتيك يا سي غالمي؟ ألا تكفيك حصتك من الطعام، أم أنك تترك جيرانك في الطاولة يسرقونها منك ؟

وبهزة محكمة، جذب كلوفيس الصبي خارج الصفوف، وقدمه إلينا وقد أدار ظهر يديه باتجاهنا.

— انظروا إلى هذه الأطراف. والله لن يرضى بها أكتع - ثم قبض على أذنه وشد عليها حتى كاد أن يرفعه عن الأرض. واستأنف قائلاً :

— أظن أن هذا التصرف يمارسه الجميع في تلمسان. لم تعودوا في تلمسان. عندي أنا لا أحد يقضم أظافره. من اليوم فصاعدا، أريد أيد نظيفة كأيدي مدلك الحمام، مقلمة بعناية قصوى. وإن حدث وأمسكت بأحدكم وإصبعه في فمه أو في أنفه - وهو أمر غير مقبول على الإطلاق - فلسوف أدسه له في ثقب دبره إلى أن يتحلل في الداخل تماماً.

وما إن انتهى، حتى أطلق سراح المعذب الذي انضم إلى الفصيل وأذنه محمرة من شدة القرص، لكن كبرياءه منعته من الإمساك بها.

— الآن، انصرفوا وبصمت.

تفرّقت السَّريّة تتملكها رعشة خفيفة : على زمر متفاوتة، منهم من ذهب إلى الفناء وآخرون اتجهوا نحو المراقد. انضم رقم 53 إلي في المهجع، حيث اصطفت على جانبي العنبر أسرة متناضدة، تفصل بينها خزانات حديدية ضيقة. جلست فوق فراشي، وتهالكت على ركبتي. وفي آخر القاعة، انتهز غالمي الظلمة السائدة لكي يدلك أذنه وهو يدمدم. حاول عبد الوارث أن يواسيه ؛ لكنه رفض الإنصات إليه.

همس 53 في إذني وهو يراقب الباب :

— لا يبدو شخصاً ليّن العريكة ابن الزانية القح ذاك.

تدخل بن جفال، وهو شبل يكبرنا سناً، كان يزور أجنحتنا بانتظام ليستقصي عن حال أخيه الأصغر الذي كان ولداً متمرداً ذا ضحكة غير طبيعية، وقال بلهجة آمرة :

— بدون كلمات نابية، من فضلكم.

— هو الذي قدّم نفسه هكذا.

— وليكن، هذه ليست ذريعة. لسنا في ماخور. عفواً، في بيت للبغاء.

انفجر الجميع حوله في ضحكة مكتومة. نرفزته زلة لسانه، فضرب على الأرض بعصا مكنسة ليستتب الضمت، واستأنف قائلاً :

— قد يكون أزعرَ. لكن ما يتفله من فمه لا يخص أحداً سواه. نحن أولاد مهذبون، ويجب أن نبقى كذلك. عموماً، ليس لسليطي اللسان سوى ما يتسع له نطاق هذرهم. يوجد

قانون هنا، وفي حال ما إذا تجاوز صلاحياته، سوف نتقدم بشكوى لدى الضباط.

كان بن جفال ولداً عاقلاً. يرأس في تلمسان زمرة التلاميذ، ويتمتع بسمعة شبل مثالي، قويم في علاقاته، ومثابر في دروسه. قُتل أبوه أمام ناظريه، تاركاً له أماً معوزة وأسرة كبيرة تتضور فقراً ويأساً في قرية متداعية بنواحي تلمسان. أراد أن يصبح ضابطاً للتكفل بذويه ؛ وقطع على نفسه عهداً بأن لا يخيب ظن الشهيد فيه. كان وهو في الخامسة عشرة من عمره، ينتحل من قدواته تلك الهيبة التي كانت تميّزه عن بقية بني جلدته، مطبقاً بكل حمية قواعد اللياقة، وتلك التي تضبط ممارسة المسؤوليات. كان ذا ولاء ونخوة وتضامن وتواضع. لكن للأسف أحبط عمره "المتقدم" كلّ مشاريعه الكبرى فيما يتعلق بترقيته. إذ لم تعمل لصالحه كلّ الامتيازات التي كان يحصدها في القسم والجدارة التي كان يُعترف له بها. وفي ربيعه الثامن عشر، تم توجيهه إلى مدرسة لضباط الصف، وقُتل في سيناء إبان حرب 1973.

لم يكن للقرى الكثير مما تتباهى به على مدرسة القليعة. كانت ساحتها مزدانة بالحدائق وأعمدة الأنوار، وكانت لها لوحاتها الإشهارية، ومكتبتها، وقاعة للحلاقة، وصالة للحفلات، واستراحة للجنود، وحجرة البياضات ؛ كانت تشتمل على أكبر عدد من المرافق لضمان راحة قاطنيها. ولا وجود لأي وجه للشبه بينها وبين المشور. حيث ينتصب في الجهة السفلى، بعد جناح المراقد ذي الأبنية المشمسة والساحات المعشوشبة، جناح الدراسات : بنايتان عريضتان بطابق واحد تبهجان النظر، بنوافذ كبيرة وممرات واسعة ولماعة. كان الفناء المفروش بالإسفلت يستعمل كملعب لكرة

اليد أثناء التظاهرات الرياضية. وكانت الباحة شاسعة ذات طراز مبتكر. يوجد على الجانب الأيسر مقر مديرية الدراسات. وقبالتها، في الطرف الآخر من الساحة انتصب مطعم ضخم محاط بالشبابيك الزجاجية. وفي الخلف، يتعايش ملعب للكرة الطائرة مع ملعب لكرة السلة، يفصل بينهما سياج معدني مغطى بالأوراق والأغصان الكثيفة. بينما كانت تترقرق مياه المسبحين تحت ظل لوحتي الغطس المتعاليتين. وفي مكان أوطأ، يمتد ملعب تقليدي لكرة القدم مفروش بالفُليس، وعند نهايته بالضبط تبدأ الغابة، جميلة وغامضة مثل بعثة استكشافية أمازونية.

تنفست الصعداء. خيل إلي بعد أن تخلصت من الأسوار وأبراج مراقبتها بأني أولد من جديد. مع أن القليعة لم تكن سوى مدرسة داخلية. ما يشبه حظيرة يحشد فيها أطفال اجتثوا من موطنهم، وليس لهم من مطلب سوى استرجاع حريتهم وطيش عمرهم. ربما كنت قد تخليت عن ذلك، وعندما فهمت بأنني قد سلكت الطريق الخاطئ في مشوار الحياة، اقتصرت على الاختيار بين أحلى الأمرّين. على كل حال، لم أكن ولداً مشاكساً وبما أنه كان بمقدور عائلتي الاستغناء عني تماماً، فقد كنت أحس بأني قادر على الاستغناء عن بعض الأشياء، التي منها الطيش والحرية. كانت تنازلاتي جسيمة ؛ لم يكن عندي أفراح أخرى لرهنها. ومهما يكن من أمر فقد كنت شيئاً لا يحسب له حساب. ضامر الجسم والذهن. لم يأخذ مني القدر إلا ما وهبني. مثل الدائن المرابي يشدد علي الضغط ويستغل سوء طالعي. لم أكن أتذمر. هكذا كان الحال وما علي إلا تقبله. كنت مقتنعاً بأن الأنكى قد فات -، لا يوجْد أسوأ من أن يُنكر المرء بعد

دلال. كان من حقي أن أفكر في ذلك. كل دبّة تليها هبّة. والتظاهر بالموت سخافة، وحفر قبر خساسة. سيأتي يوم أطير فيه، على غرار فراخ العصافير المرتعشة والمنتوفة التي تصيح ملء حلقها بتعاسة في جوف أعشاشها. كانت الطبيعة تعلمني : البذور تنتش تحت التراب، وذات صباح، هوب كالسحر تنبجس نحو الشمس مثل النبع الفوار. الشتاء - دائما هو - لا يفسد روعة الربيع، بل يجددها. كان من البديهي أن لموسم طفولتي نهاية، فقد آل الألم، بالاستنزاف، إلى الإعياء من شدته. وإلا لكان علي أن أختار نهج صديقي حدو الذي ذهب لانتظار القطار في قلب السكة، لأنه اعتبر بأنه قد عانى ما يكفيه وهو في الرابعة عشر من عمره. وعلى عكس صديقي الراحل فقد اكتفيت بأن أستقل القطار وهو يسير. حصافة كانت أم مكابرة، لكني لم أكن أسعى للارتماء على حصى الرصيف ولا أن أجذب ناقوس الإنذار. كان لابد أن تكون هناك محطة أخيرة في مكان ما. لم استباق الأحداث؟ لم أكن آمل إلا أن أجد في نهاية النفق فسحة حيث لا يسعني أن أندم على شيء. كان الأهم هو الإيمان. وقد كنت قليل الحيلة والحول ؛ أمر طبيعي، بما أني كنت طفلاً، وليس للأطفال من فضاء كاف وراءهم كي يتراجعوا، وعليه فليس لهم إلا أن يتقدموا...

تم تغيير رقمي. من رقم 129 أصبحت أحمل رقم. 561 لكن كان لنا في القليعة امتياز أن ننادى بأسمائنا ؛ شكل ذلك أول رد للاعتبار. ثم سُجلت في السنة السادسة المزدوجة اللغة، مع سوريسو وأخيه حميد ورقم 53 واسمه الأصلي محمد يخلف. تمثل التغيير الجذري الآخر في وجود نساء ضمن سلك الأساتذة. لم يكن لدينا في تلمسان سوى ممرضة واحدة، أم

لشبلين اسمهما مجداوي. كانت سيدة حنوناً للغاية. لكن العرض لم يكن ليستطيع أن يلبي السيل العرم من الطلبات. كان عددهن في القليعة يناهز العشر حمامات يلتقين بنا في الصباح، أنيقات ومتألقات. مما كان له أثر في تحفيزنا على الدراسة. من بينهن جزائريتان فقط، في ريعان الشباب وتمام الأناقة. أما الأخريات فقد كانت أغلبيتهن من جنسية فرنسية، زوجات لأساتذة، ومن ضمنهن امرأة روسية عزباء، كادت أن تموت من الخوف في مدرستها النائية في نواحي القوقاز، عندما تم إبلاغها بأنها ستذهب إلى الجزائر. كان بلدنا في نظرها، رغم كونه يقع في شمال إفريقيا، يشكل أدغالاً كثيفة آهلة بأقزام سامة وقبائل آكلة للحوم البشر. لم تكن قادرة على تصور نفسها وهي تعلم القراءة والكتابة لصغار متوحشين ذوي مناخر عُلقت فيها عظام صغيرة وصدور تنوء تحت ثقل عقود من أنياب الحيوانات المفترسة أو مخالب غوريللات. وقد اعترفت لنا فيما بعد قائلةً : "أنهيت قبل أسابيع من رحيلي مخزوناً كاملاً من المهدئات، ولم أستطع أن أغمض عيني لحظة في الليل. أقل خرخشة تزعزع أوصالي. كنت أرى نفسي في كوخ في قلب الأدغال. وثعبان البوا ملتفاً فوق سبورة مرتجلة، وقردة معلقين بالأشجار. كانت تلك البعثة تمثل بالنسبة لفلاحة تسكن الجبال الشاهقة، ولم تتخط قدماها حدود كولخوزها، كابوساً من أرهب الكوابيس". كان أستاذ اللغة العربية من جنسية سورية. يرتدي كل يوم بذلة من لون مختلف. يمشي متصلباً كالعصا، مركزاً كبهلوان يسير على حبل، بنظرة ثابتة ووجه كتيم. كان يتجاهلنا كلية. وحين يحدث ويكلمنا، لا نفقه إلا نصف ما يقول ؛ فقد كانت حذلقته تفوق حدود المعقول. كان رجلاً تعيساً، ربما كان لاجئاً

سياسياً، أو مثقفاً في حالة قطيعة مع ماضيه، ولم يجد لدينا توأم روحه أو شخصاً متغطرساً على شاكلته. وكان أستاذي للغة الفرنسية تونسياً يدعى السيد جويني الذي كانت تخلفه من حين لآخر السيدة بلقايد زوجة مدير التربية الجزائري الأخنّ والسليط، الذي كان يعض على لسانه بقوة عندما يعنفنا. كانت صرخاته المجلجلة عبر الممرات تنصب شعر رأسنا. والبائس الذي يُستدعى إلى مكتبه لا يخرج منه سالماً. ولا يفكر في العودة إليه إلى حين. وكان السيد لوفيفر يعلمنا مبادئ الرياضيات والرسم. رجل متقدم في السن، طويل القامة فكه النفس. كان من قدماء المبشرين البيض، ومتزوجاً من جزائرية من منطقة القبائل اعتنقت المسيحية، وله بنت في حدود العاشرة من عمرها تسمى جويل. كان لجويل رشاقة ظبية، بشعرها الأسود المتدلي على ظهرها، وبخدين متألقين كطلوع الشمس. كانت ذلك الجرس الثمل الذي يرن في صدورنا. وكنا جميعاً غارقين في حبها. لكن محبوبتنا كانت مغرمة بجمال، شبل من سنها ذو وسامة فتانة تُثبط عزائمنا كلما أمسك أحدهما يد الآخر. خفف تواجد العنصر النسوي من عبئنا. وبفضله تعلمنا كيف نحلم بطريقة أخرى. كنا قادرين على الحب، وكان ذلك رد اعتبار ثانٍ، لا يُستهان به. في نهاية الأسبوع نأخذ راحتنا، على الأقل "لغير المعاقبين" ؛ إذ كان أولئك يقضون عقوبتهم داخل المعسكر وهم يتخمرون في الأقسام أو يضبطون خطواتهم أثناء الاستعراضات التأديبية المتواصلة. أما الناجون فقد كان أمامهم متسع ست وثلاثين ساعة ليفرجوا عن أنفسهم ؛ فيذهب الذين يسكنون في المنطقة إلى ديارهم. أما البقية فيتهافتون على قاعتي السينما المتواجدتين في المدينة، حيث تعرض أفلام هندية أو

أفلام الويستيرن الإيطالية. كانت القليعة مدينة جميلة وهادئة، بقصبتها المحتشمة، وأحيائها ذات البنايات السكنية الشعبية. تقع على بعد بضعة أميال من البحر، مما يضفي عليها لمسة استجمامية راسخة. لم يكن لأهلها الحرارة الأسطورية لسكان وهران، غير أنهم رغم خمولهم ولهجتهم الصائتة، كانوا ذوي شخصية وغيورين على قيمهم التليدة. أناس أتقياء ومهذبون، لكن دون أن يمنحوا الآخرين كامل ثقتهم. يمكن اعتبار حسن ضيافتهم المشكوك فيها في بعض المواضع كرماً مهما كان الحال. وهم تجار مهرة يتقنون بيعنا أشياء تافهة، ويتظاهرون أحياناً بالنظر إلى السقف لكي لا يردوا لنا الباقي من النقود. ولم يكن أشبال بشار وتلمسان يجرؤون على المطالبة به. في حين أن أشبال قالمة كانوا يكسرون الدكان لسبب أتفه من ذلك. كانوا مرهوبي الجانب إلى حد كبير. وكنا نقوم معاً بدوريات في السوق قبل أن نغزو الدكاكين حيث نتلذذ بما قيمته خمسون سنتيماً بأكل كسرات بدوية ونعب معها كأساً من الرائب. كنا نتقاضى بمثابة بدل طعام عشرة دنانير شهرياً. والغريب أن هذا المبلغ كان يكفينا لشراء تذاكر في السبلانديد، وحلويات من عند الجلواني التونسي، وإن حالفنا الحظ نبتاع أيضاً سندويشات المرقاز من عند سحنون. وبما أنّ مومنًا لم يكن معي فقد اتخذت أصحاباً جدداً، أحدهم يسمى بلخيدير الملقب بفولفو بسبب الشكل المضحك لجمجمته، وابراهيم يوكس لي بان، ولد عفريت مكتنز، كان من الواضح أنه تربى على يد سرية من النمامين لشدة ما كان يحتقر كل شيء. في الواقع، كنا جميعاً أصدقاء. وإذا حدث وشكلنا مجموعات، فذلك تفادياً لخلق الازدحام ليس إلا. لم يكن أحد منا مقصى، وكان لكل واحد منا أن

يختلط بأي زمرة كانت ويتصرف فيها بكل حرية. كنا نحب بعضنا حباً جماً ؛ مدركين بأنه ليس لعائلتنا الكبيرة إلا ما تمنحه لأفرادها من حرارة حيال قساوة الحياة. لم نتخل أبداً عن أي واحد منا. كنا حوالي مائتي غرير انضموا إلى الأربعمائة القدماء المتواجدين في القليعة. وكان تلاميذ السنة الثانية والثالثة ثانوي رجالاً تقريباً، ذوي وجنات أنهكتها الحلاقة اليومية، وشوارب مهيبة ؛ كانوا يمكثون بعيداً عنا، ولهم حياتهم الخاصة، ولا يقبلون الضيم. أحياناً يتمردون على الممرنين، ويصل بهم الأمر إلى العراك بالأيدي. وكان الرعناء منهم يعملون كمجموعة واحدة. ويدخلون الرهبة حتى في قلوب الضباط. كنا نسميهم الفيكينغ. وغالباً ما كانوا يتخلفون عن الدروس، وعند سنوح أدنى فرصة يندفعون نحو الغابة، دون أن يجرؤ أحد على تقفي أثرهم. لم يكن الآخرون يبدون أقل فظاظة، ماعدا أنهم لم يكونوا يثيرون الشغب. إذ كانوا غير مبالين أو محبطين يعوجون محافظهم تحت إبطهم، ويصلون متأخرين إلى التجمع، ويتوجهون بتلكؤ إلى الأقسام، في حين كنا نُدفع بخطى رياضية ؛ وفي المساء، بعد إطفاء الأنوار، يستحوذون على المقاعد في الحديقة غير مكترثين تماماً بالرقباء. كانوا عموماً يتفادوننا، لكن كان منهم من يحوم ليلاً حول مراقدنا بطريقة مريبة، مما يحث مراقبينا على مضاعفة اليقظة.

يصدح صوت الرقيب قائلاً :

— ماذا تريد ؟

ويرد عليه الحائم :

— وما دخلك؟

— ممنوع التلكؤ هنا.

— ألم يعد لدينا الحق في التنزه، الآن؟

— احك هذا للمغفلين. انصرف من هنا في الحال، وإلا سأبلغ عنك القيادة.

ثم ينفث الحائم شتيمة من بين شفتيه وينصرف دون إلحاح. أما نحن فكنا نخمن نوايا المترصد، فنضيق على حزامنا ونغفو بعين واحدة. وفي اليوم التالي تتحول محاولات التسلل الليلية إلى مداعبات، نضحك عليها ملء شدقينا.

انقضى الفصل الأول دون مشاكل. كنا خاضعين لظروف مضبوطة. كل منا يعرف مكانه من الأحجية، وحدوده التي إذا تخطاها لا يلوم إلا نفسه. كان الضباط لا يراوغون في معاملتهم. يدللون العقلاء ويقهرون المتهورين. كان للملازم وراد لكمة يمنى ماكرة ومقنعة. وسرعتها الخاطفة تأخذنا على حين غرة. ومهما حاولنا أن لا نسهو عنها، تستبقنا دائماً. بينما كان الملازم بوشيبة عصي الذهن، بديناً ومشعراً، يذكر بدب أشعث. كان في البداية قد خدعنا بابتسامته التي كنا نحسبها دليل حسن مزاجه. ويغرنا بهذا التصرف فنطلق أنفسنا على أعنتها، ونفاجأ بدورنا بانفراج ثغرنا عن ابتسامة، لكي نكسب تعاطفه أكثر. وكم كنا مخطئين. إذ كانت عصاه المخبأة بعناية خلف ظهره تنهال علينا كالبرق، وترتد كيفما اتفق على أكتافنا، وعلى رؤوسنا، وتهشم لثتنا. قطعنا على أنفسنا عهداً بأن لا تخدعنا المظاهر ثانية. كان الملازم نقاز يحكم مجموعة التلاميذ. وهو رجل مهذب يتكلم الفرنسية بتفخيم وهو يمسد بحذلقة كرشه. كانت توبيخاته منمقة، وملبسة بالكنايات والمحسنات بحيث كنا نتمتع بالاستماع إليه وهو يعنفنا. أما الملازم بوجمعة المجاهد الذي التحق بالصفوف من الشرارة الأولى، فقد كان يزعق طوال الوقت ولأي سبب كان، لكنه لم

يرفع قط يده علينا. كان يعلق في مقبض ساعته الرصاصة التي كادت أن تزهق روحه إبان أحد الاشتباكات. كان يقول بأنها تنبهه كلما هم بتوجيه لكمة. وأقسم ألا يضرب أحداً. غير أنه كان يجعلنا نزحف إلى أن تنزف مرافقنا. حتى أنه هو نفسه لما كان يقر بخطإ اقترفه إزاء أحد ما، يملأ حقيبته بالحجارة ويرميها فوق كتفيه، ويعاقب نفسه بالزحف أو الجري عبر ملعب كرة القدم كالمعتوه.

حتى لو كنا تعساء، فقد كنا نخفي ذلك جيداً. كان الأشبال يخلقون عالمهم، كل يبذل جهده الخاص، وذلك يثلج صدورنا. مآثر النجباء تزيدنا همة، وطيش الأغبياء يسلينا. لم يكن هناك بليدون بيننا. كان أساتذتنا منتقَيْن من بين الأكفاء. والعرفاء يتابعون خطانا عن كثب، مع أنهم كانوا أميين لا يفكون الحرف. وهؤلاء يحثوننا على المواظبة. ويحرسوننا طيلة الفترة المسائية للمطالعة، ويحرصون على أن نراجع دروسنا. كان المزاحون يستغلون جهلهم دون خجل. فيصعدون فوق المنصة ويشتمونهم بكل أسماء الطيور، متظاهرين باستظهار دروسهم. وكانوا ممثلين بارعين يُتبعون سيل الشتائم المقنعة بحركات مسرحية مؤثرة، كما لو أن سلسلة أفكارهم قد انقطعت ؛ بينما الحضور المقابل يهمس لهم بفيض من الترهات باللغة الفرنسية فيتلقفونها منهم بامتنان، قبل أن يهرقوها على العريف المتأثر بكل ذلك الإتقان. لكي لا نخون زملاءنا أمام السبورة، نحتمي تحت المقاعد ونستغرق ضحكاً جاحظي الأعين وأيدينا على أفواهنا. وأحياناً، كان العرفاء يجعلون أنفسهم أضحوكة من شدة تعنتهم في أن يبرهنوا لنا بأنهم كانوا متعلمين ؛ فكانوا يأمروننا بأن نفتح كتبنا ونقرأ عليهم المقاطع التي

يختارونها. وهنا، كنا نكيل لهم ما تستحقه رتبهم، ولم الحرج إن كانوا هم المستفزين ؟ كاد تدخلهم في بعض الأوقات أن يؤدي إلى عصيان. فذات مساء، بسبب صورة فتاة على غلاف كتاب من كتب المكتبة الخضراء احتدم عريف وصاح : "ألا تخجل من قراءة هذه الموبقات؟" فتمادى معه الشبل "المتلبس بالجرم". وأوشك سوء التفاهم أن يتفاقم. فيما عدا تلك المشادات الخفيفة، كنا نتدبر أمرنا كي نساند بعضنا البعض. كنا متضامنين إلى حد بعيد، ولا زلنا كذلك. لنا زعماؤنا وحكماؤنا الذين يفصلون في الجدل بشكل قاطع عندما تبرز الخلافات بيننا، كما كان لنا سحرتنا وجواسيسنا وفكاهيونا. وهؤلاء يقطعون أنفاسنا من الضحك. فقد كانوا بالفعل مهرجين بالفطرة. كنا نستمر بعد إطفاء الأنوار بوقت طويل في الضحك تحت أغطيتنا، ونعيد استرجاع تمثيلياتهم الهزلية التي يرتجلونها من وحي الساعة، انطلاقاً من لا شيء، على مرأى ومسمع المراقبين. من بين أولئك النوابغ كان يوجد مصطفى حوس - هو اليوم مواطن فرنسي اسمه ميشيل. كان ذلك الصبي الهزيل والحيوي، ذا الأسنان العشوائية، شخصيةً حقيقية من شخوص الرسوم المتحركة، وكأنه قد خرج لتوه من أحد أفلام تيكس أفري. حركاته امتداد لحركات الأرنب باغس باني، وإيماءاته تطرحنا أرضاً من شدة الضحك. كان يرافق كل ما يقوله بصرير فرامل أو بصفير قذائف وينهيه بدوي قنابل، أو أصوات صخب كوارثي. كنا نتمتع معه كل ليلة بفيلم من أفلام الكارتون. بالطبع كان من بيننا من هم عكيرو المزاج ومنغصو الأفراح ؛ أشبال يعتقدون بأن المكان ليس ملائماً للفُرجة. وكانوا في أغلب الحالات أولاداً متحمسين يتحرقُون

شوقاً لتجاوز المراحل ونيل نجمة ضابط صف. كانوا مجتهدين ويلوموننا على زعزعة تركيزهم. وبما أنهم كانوا متعنتين وذوي خبرة في الشجار، فقد كانوا يجبروننا على النوم قبل العرفاء. تشاجرت مرة مع واحد منهم ؛ ولم يكن ذلك نزالاً ودياً.

ميز نهاية السداسي الأول حدث فاجع. جلب انتباهنا في الصباح ضجيج صادر من حول البناء الإداري. كان الممرنون مكفهري الوجوه. وبعضهم يمسك رأسه بكلتا يديه. وفي القسم، بدا الأساتذة مضطربين. وصلتنا الإشاعة باحتراس شيئاً فشيئاً. شيء فظيع حدث في مدرسة تلمسان. سقطت حافلة تقل خمسين شبلاً عائدين من رحلة في واد. مات منهم سبعة عشر حرقاً، وجرح عدد كبير آخر. أكد لي الملازم وراد بأنه لا يوجد اسم أفراد عائلتي في أي قائمة. ومع ذلك، فقد انفجرت دون أن أدري بالبكاء في تجمع الظهيرة. في نفس المساء، علمت أن ابن عمي قادراً وأخي هواري كانا من بين المسافرين، وبأن الأول يعاني من صدمة في الجمجمة، واحترق وجه الثاني.

كنت شبلاً عاديا، أستحق من حين لآخر مكافأة على عمل جيد ؛ بينما تحرمني هفوة من الخروج في نهاية الأسبوع. لم أكن أتألق بإتقاني ؛ ولم أكن أتألق بغيابي أيضاً. كان لدي يخلف دائما برفقتي ؛ لم أكن آمل كل هذا. كنا نتفاهم جيداً، وكنا زملاء في الطاولة، وفي المقعد والغرفة. ويجدني ظريفاً، وأجده رائعاً. كان يسرق مني سندويشاتي، وبما أنني كنت أحبه كثيراً، لم أكن أسمح لنفسي بالشك فيه. كنت أخبئها في أماكن منسية لا تخطر على بال، ومع ذلك. عند عودتي لم يكن بوسعي سوى تقدير الخسائر. كان يخلف يتعاطف معي.

وكان أسفه من الشدة بحيث يجعلني أسارع إلى مواساته. استمر في مراوغتي إلى غاية اليوم الذي قررت فيه بعد يأسي، أن أترك قضاماتي في المطعم. لم أكن أبله القرية. كنت شخصاً يبحث عن نفسه، ولا يعير أهمية سوى لما يستحق. كان ذلك يلهيني، ويجعلني أبدو في أعين الآخرين ساذجاً. لم يكن ذلك يضيرني، طالما أنه غير صحيح. ثم، قبض المساعد الأول عكاشة على أخ بن جفال الأصغر وهو يهرج في المرقد. فاقت العلقة التي تلقاها كل احتمال ؛ كانت ضربات ضابط الصف خبيثة، ووحشية. ومن شدة ما كان الصبي يعاني، توسل إلي أن آتي لنجدته. ارتميت عليه لحمايته. لم يصدق كلوفيس ما رآه. واعتبر الأمر إهانة له، فأخذني إلى مخزن، وأدار المفتاح في الباب مرتين، ثم شمر عن ساعديه :

— سوف أهشمك أيها اللقيط، ولن تتعرف عليك أمك الفاجرة.

كانت نظرته ترهبني، وبطني يهدد بالانفلات.

— استعد، يا ابن الكلبة.

امتثلت لأمره والفزع يعتصرني. طرحتني صفعته الأولى أرضاً. أما الصفعة الثانية فأفقدتني توازني. واستأنف ساخراً :

— هل أنت سكران أم ماذا ؟ اعتدل.

اعتباراً من الصفعة الثانية فقدت الإحساس بوجودي. كنت أترنح من حائط إلى آخر، ولا أسمع بذاءات ضابط الصف، ولا أحس لطماته على وجهي. أتذكر بشكل مبهم أنني لم أتمكن من العثور على طريق غرفتي. وكان من الممكن أن أهيم طوال الليل لو لا أن يخلف جاء ليأخذني... بعد مضي يومين، قام

والدي الذي كان في مهمة في العاصمة بزيارة للقليعة. صُدم للآثار التي كانت تحزز وجهي. وطلب أن يرى جلاد ابنه. هزول عكاشة بخطى حثيثة خانعة لدى رؤيته لوالدي. امتقع لونه كالخشخاش. كاد كلوفيس الرهيب أن يلوث سرواله من شدة الهلع. اكتفى والدي بالنظر إليه بازدراء، ولم يقل له شيئاً. لم يكن ذلك ضرورياً. كان يكفي رؤية فزع المساعد الأول وسحنته المخذولة. وفي الحين، كففت عن رهبته، واحتقرته. لم يكن في نظري إلا حشرة حقيرة مزيفة تتخفى وراء مُجعجع، شخصاً وضيعاً كان يخيف أطفالاً دون حماية. وفي المساء، عندما غسلت أسناني أمام المرآة، لم تعد الخطوط المحرقة على وجهي تذكرني بلباس المساجين، بل على العكس، كانت تذكرني بالوجه المزوق لهنود السيو على دروب الحرب. وبضربة واحدة، كسرت فرشاتي نصفين، كما يكسر غليون. لم يكن لدي فأس لأجتثه، غير أن ذلك لم يشكل عائقاً. وفي اليوم التالي مباشرة تحولت إلى ولد شقي لا أمل في إصلاحه.

8.

لطالما رفضت العنف، واعتبرته سبيلاً سخيفًا. سبيل الضياع. إلا أنني كنت أبدي نفوراً شديداً من كل أشكال التعسف. أصبحت متمرداً. متمرداً مستنيراً. كنت أعرف التمييز في الأمور، وأفرق بين الغث والسمين. لم يكن وارداً بالنسبة لي البتة أن أُخطئ العدو. كنت متساهلاً مع الأشبال ؛ لكن مع الممرنين، أشعلتها حرباً ضروساً. كان يكفي أن

يهددني إصبع، أو أن يعلو علي حاجب كي أنتفض بحدة كالنابض. ومن المستحيل بعد ذلك تهدئتي. كلوفيس نفسه لم يكن بمقدوره مجابهة نظرتي. كنت أتحداه علانية مكشراً عن أنيابي. وكان يتحرق شوقاً لكسر شوكتي ؛ تخلى عن ذلك بالاستنزاف. كان يدرك بأنه المسؤول عن تحولي. فقد كانت تصرفاتي واضحة وكذلك دوافعي. كنت أثير قرفه. وكان على دراية بأنني كنت أحاول بشتى الوسائل أن أستفزه، وأن أجرده من هالته، وأن أقوض استبداده بالتهريج داخل الصفوف. وفي كل مرة يزمجر فيها على الآخرين كان قصده على الخصوص هو المساس بي. لم يكن الأشبال مغفلين ولم يكن كلوفيس يجهل ذلك. وفي بعض الأوقات يشن هجوم مجابهة، فكنت أفرج شفتي بابتسامة مفترسة وأتحداه. كنت قصير القامة وهزيل البنية، ومع ذلك كنت أحس بأني قادر على سحقه. لم يكن سوى مارد بأرجل من قصب. كان بإمكانه أن يحبسني مرة ثانية في مخزن، وأن يشمر عن أكمامه ويصب وابل بذاءاته، ولكن أن يصفعني، فتلك قضية أخرى. وقد حدث وأن تعلم ذلك عريف من كيسه. عند خروجي من المطعم، وجد في جيبي برتقالة كنت أعزم أن آكلها فيما بعد، أخذها مني وسحقها تحت حذائه. قلت له : "أيها الحقير". فوجه لي لكمة. كانت ردة فعلي من العنف بحيث تطلب الأمر فصيلة كاملة لكي تهدئ من روعي. ما كان لزوبعة أن تخلف كارثة كالتي سببتها : انقلب المطعم رأساً على عقب ؛ وقلبت الطاولات والمقاعد ؛ وتهشمت النوافذ ؛ والأرض مفروشة بشظايا الأباريق. دخلت في حالة جنون. عند استيقاظي وجدت نفسي في المستوصف ؛ تملأ يدي ووجهي الجروح. وأمام سريري وقفت الطبيبة البلغارية مبهوتة : "ماذا دهاك يا بني، انظر ما الذي فعلته بنفسك ؟ لم

أقل لها شيئاً. وفي المساء، حضر العريف الذي غير القلق سحنته، ليقدم لي اعتذاراته. وبينما كان يهم بالخروج سمعته وهو يهمس للممرض : "هذا الولد غير طبيعي". اعتبرت الإدارة تصرفي غير مقبول البتة. وتم توقيفي في سجن المدرسة. كنت في الثالثة عشرة من عمري، ورجلاً قبل الأوان.

بالتوازي مع تصرفاتي المشينة، اكتشفت قدرات لم أكن أخمنها في، وكانت إيجابية. لم أكن حدثاً كما كان يحلو للضباط أن يكرروا على مسامعي. ربما كنت "صوفة طايرة"، لكني لم أكن سيئاً. لم أكن مخادعاً ولا نماماً، ولا كذاباً. كنت أرفض الخنوع، ولم أكن أطيق أن يحتقرني الكبار. ولكي أثبت بأنه كان بمقدوري أن أتألق بشيء آخر خلاف العصيان المقصود والطبع النكد، كنت أقرأ. آخذ كتاباً وأنعزل، مما كان يشكل هدنة بالنسبة لخصومي. وشيئاً فشيئاً، اتجهت نحو النشاطات الرياضية والثقافية. وافتككت مكاني كمرسّم في فريق كرة القدم لصنف الأصاغر. كان مدربنا المدعو الحياني، أحد أبطال الحلبة القدامى، الذي جاب أقطار أوربا إبان الحرب، وقاد فيما بعد الفريق الوطني للملاكمة في الألعاب الأولمبية للوس أنجلوس، عاد خلالها بميداليتين برونزيتين، كان يعتبرني من أفضل لاعبيه. كانت مراوغاتي ذكية، وضرباتي المقصية مدهشة. وسرعان ما لقبت بـ : بونس. مقارنة مع هداف أسطوري كان اسمه الحقيقي رقيق، والذي كان يصنع مجد وسعادة فريق الرابطة الرياضية العسكرية لوهران في ذلك الوقت. كان الملازم الأول وارد يقول لي : "لا شيء يربيك سوى الملعب". كنت ممتازاً أيضاً في ألعاب القوى، لا أحد يجاريني في المائة متر وفي الثمانمائة متر. ومن وقت لآخر كنت ألعب كحارس مرمى لفريق كرة اليد.

كانت اعتراضاتي تثير هتافات ملتهبة في المدرجات. حتى أنه تم انتقائي المسبق لصالح الفريق الوطني، لكن المدرسة رفضت ذلك رفضاً قاطعاً. ومن جهة أخرى كنت أرقص وأغني بكل روعة. وكنت أنتشي طرباً بمجرد أن يصدح صوت جيمس براون وأوتيس ريدينغ. ذات يوم، سمعني الرقيب الأول تيجاني - أستاذنا للموسيقى - أقلد المطربة اللبنانية فيروز، فسحره غنائي وتوسل إلى لأنضم إلى مجموعته الصوتية. لم تكن فصيلته تحظى باعتبار الأشبال. كانت بالنسبة لنا تمثل قفص المجانين. وكانت تروج إشاعات مبلبلة بخصوص العاملين معه، كالمداعبات المشبوهة والتأثيرات الفاسدة. كان ذلك بالطبع بدافع الغيرة. ولم أع ذلك إلا عندما أجبروني على الانضمام إلى المجموعة بالقوة. وبما أنني كنت عازفاً أخرقَ، فقد اكتفيت بالغناء. أحياناً منفرداً. كان لي صوت متعدد الطبقات، بحيث كنت أنتقل من فهد بلاّن إلى نجاة الصغيرة بانسيابية وشبقية مذهلتين. في الجزائر، صفق لي الحضور لمدة ثلاث دقائق في قاعة الأطلس العريقة، حيث قدمت فرقتنا عرضاً بمناسبة الاحتفال بذكرى تاريخية. من شدة جفولي، احتميت وراء الستار. عمل الرقيب الأول تيجاني المستحيل لكي يجعلني أخرج للأضواء تحية للجمهور، دون جدوى. ثم، وقعت تلك الحادثة التي لم تكن حادثة بأتم معنى الكلمة. كان المركز العسكري لدواودة ينتظر زيارة الرئيس بومدين. تم استدعاء فريق كرة القدم والمجموعة الصوتية لحفل التدشين. كانت المأدبة منصوبة وسط حديقة، يدور فيها المدعوون ولاعبو كرة القدم بتقاعس حول الموائد المزهرة. وفي المقابل، اصطف أفراد الفرقة الموسيقية على مصطبة مزينة بسعف النخيل والرايات. كنا نزقزق بموشحات بينما

كان الآخرون يأكلون بنهم. استشطت غضباً. والأدهى من ذلك، أن يخلف اللاذع كالفلفل الحريف كان يرفل بين شخصيتين مرموقتين، ويتلذذ بتلمظ كريمة الفواكه المثلجة، ويرشقني بوابل من التكشيرات القاتلة. كانت إيماءاته تقول لي : "غنٍّ، غنٍّ أيها المغفل بينما أنا أتلذذ". كان ذلك أكثر مما أطيق احتماله. فغادرت المنصة وأنا أشد شعر رأسي. ولم أطأها ثانية على الإطلاق.

لم أكن نابغة في القسم. فيما عدا شغفي المفرط بالأدب، فقد كنت متلكئاً إلى حد بعيد وراء زملائي. لم تكن علامتي في السنة السادسة، في مادة اللغة الفرنسية تتجاوز ثمانية على عشرين. مع أن أستاذنا سمح لنا أثناء اختبار آخر السنة بأخذ ما يلزمنا من الوقت لتنميق موضوعنا الإنشائي، الذي كان يتمثل في وصف سوق. كنت قد ذهبت لسوق القليعة كي أستلهم منها. النتيجة : 0 على 20. رفض الأستاذ أن يصدق بأنه بوسعي أن أكتب موضوعاً بهذه الجودة". هذا موضوع منقول بحذافيره عن مولود فرعون. "ولم تغير احتجاجاتي من الأمر شيئاً. وبدل أن أتمتع بعطلتي الصيفية كما ينبغي، وجدت نفسي في مخيم صيفي في شاطئ الشنوة لتلقي درس استدراكي مطول. تقبلت الأمر برحابة صدر ودون أن أتأفف من هذه الغرابة. في السنة الخامسة، كان السيد ديفيس العملاق الهادئ واللطيف، يحتفظ بانتظام بورقاتي مع أفضل ثلاث مواضيع إنشائية أخرى. وكان يسلم الورقة الممهورة بستة عشر لمستحقها، والخمسة عشر لمن يليه، ثم، يشرع كمن تكهرب بعملي، في مناقشته بحركات تلويحية. في تلك اللحظات، كنت أعتقد بأني قد فزت بقصب السبق، وتتملكني اللهفة لإطلاق صرخة الانتصار". خيالك في منتهى

الخصوبة يا سيد مولسهول، لكن لغتك الفرنسية ركيكة، وهذا مؤسف... 8 على 20. كم كان أسفي عظيماً. لم أحظ ولا بلوحة شرف واحدة. كان معدلي متذبذباً". مقبول "في التاريخ والجغرافيا"، يمكن أن يعمل أفضل "في اللغة الفرنسية"، غير ثابت "في العلوم"، ضعيف جداً "في الهندسة". كان أستاذ الرياضيات غالباً لا يتنازل حتى بوضع علامة على ورقتي لشدة ما كانت طريقتي في الحل تثير أعصابه؛ فكان يكتفي بأن يخط بالقلم الأحمر على عرض الصفحة كلمة : "أبلـه". في حين كنت متفوقاً جداً في اللغة العربية. فكنت أحصد علامة 17 على 20 بكثرة، وأحنق عندما ينال آخر علامة 17,5 على 20. كان أستاذي السيد حموش نزيهاً في تنقيطه. دون أن يجعله ذلك يستحسن طريقتي في النظر إلى الأشياء ؛ كان يجد بأن لدي ميلاً واضحاً لكل ما هو خسيس. على سبيل المثال، إذا كان الريف يعني عادة الهواء النقي وزقزقة العصافير، ومناظر خلابة، وفلاحين يمنحون بحركة رائعة كوباً من اللبن الخاثر مرفوقاً بكسرة لذيذة من خبز الشعير، فذلك ما لا نجده بالضرورة في ورقتي. عندما طلب مني أن أصف قرية جاثمة على قمة جبل، بدأت موضوعي كالتالي : "كي تصل إلى الدوار لست بحاجة إلى رفع رأسك والبحث عن معالمك. إذ يتكفل تفاقم عدد الذباب واشتداد الروائح النتنة بإرشادك إلى الطريق الصحيح. وهكذا بلغت القرية بعد أن دوخني الطنين والانبعاثات. كانت عبارة عن حفرة موحلة هائلة، انشطرت إلى أكواخ جذامية وبرك ماء آسن. كان الفلاحون ذوو النظرة التي لا يضاهي فراغها سوى فراغ أيديهم، يتحللون وهم متكئون أسفل

الجدران، ولا يلحظون حتى مرورك. وإذا كان الناس لا ينتبهون إليك في الدوار ، فينبغي أن لا يمنعك هذا من أن تنتبه إلى المكان الذي تطأه قدماك. فالطرقات ملغمة بفضلات الأطفال وروث البقر، وويل للساهين. من بعيد، يظهر ديك سد منقاره وهو يتعفن تحت الشمس. وأبعد، يئن كلب ضامر يجرجر قائمته، التي من المؤكد أنها قد صعقت بضربة مقلاع". إلخ. كان السيد حموش بالطبع يحتدم عند كل فاصلة. كان يقرأ "رائعتي" على زملائي والرضاب يغسل فمه، ويستغرب كيف لم يتمكن الحمامان الأسبوعيان اللذان آخذهما من تطهير أفكاري. كان زملائي يضحكون بعبهم، وقد أعجبهم وصفي. وفي النهاية يرمي لي الأستاذ الورقة في وجهي قائلاً : "كونك قد ولدت بين المجاري، لا يعني أن الأرض برمتها تشبهها". كانت العلامة معقولة. ولم تكن نوبات الغضب تضيرني. كانت تلك طريقتي في النظر إلى الأشياء ؛ لم أكن أنتهج سبيل "خالف تُعرف" ، ولم أحاول أن أغيظ أياً كان. كنت ألتذ أيضاً بحشو نصي بحكم شخصية أنسبها طواعية لشعراء مرموقين. أحياناً كانت تمر مرور الكرام، وأحياناً أخرى تبرز فظاعتها للعيان كعين الشمس. ذات يوم، سألني الأستاذ حموش وقد ارتاب بحديث مشبوه، عن المصدر الذي استقيت منه قولاً بتلك السفاهة، و- استغفر الله - أنسبه للنبي محمد. اعترفت له دون أدنى احتشام بأن محمداً الذي نقلت عنه هو أنا. لا داعي لذكر التعقيب على هذا الكفر. من جهة أخرى كنت أتدرب بكل حماس على نظم الشعر. كنت في غضون فترة "المطالعة" المسائية المحروسة، أفتح كراس المسودة وأغرق في أبيات هائجة مائجة، كانت تبقيني في

القسم إلى ما بعد مغادرة زملائي بوقت طويل. كنت أتفنن، لتأثري بالشعراء العباسيين، في نظم قصائد طويلة تتغنى بالجمال، والمرأة والحب، وتهدهد أوهام صبي لا يُفلح معه أي من هذه الأشياء. ولعظيم دهشتي، كانت تنتاب أساتذتي للآداب العربية سورات غضب لا يجاري حمأتها سوى إبهامها، فيكرفسون أوراقي بيد مهانة ويرمونها في سلة المهملات. "هذا هو المكان الذي تستحقه كتاباتك، أيها المتغطرس. لا بد وأن أحمد شوقي يتقلّب في قبره بسبب الجرأة التي تقوّض بها أسس لغة العقاد التليدة. الأجدر بك أن تهتم بالقواعد، بدل أن تضيع لنا وقتنا وتعكر لنا مزاجنا بالخربشة البلهاء تلك". كنت أرفض الاستسلام، واستجمع رشدي، ثم أعيد الكرة من جديد بحماس أكبر ؛ وللأسف، استمرت شاعريتي المتقدمة في التهشم على جدار تعنت السيد حموش وإصراره على مقارنة الخطاب المتلعثم لتلميذ في الرابعة عشرة من عمره بالعبقرية الخارقة للمتنبي. ومع مرور الوقت، وقناعتي بأني لن أقابل لدى أستاذ اللغة العربية سوى الاحتقار والإهانة، بدأت أصغي باهتمام متزايد لنصائح السيد ديفيس. فيما عدا الرداءة التي كان يصنف فيها قدراتي بالفرنسية، إلا أنه كان يؤكد لي على أنه بالانضباط وبالبساطة، يمكن لخيالي أن يكتشف له موهبة. كان يشرح لي كيف نسير فكرة ما ونموضعها داخل نص ما، وكيف نعزّق من حولها لإبرازها، وكيف نستطيع بلوغ "الكمال" بكلمات بسيطة وصائبة. ويذكر لي على سبيل المثال، الغريب لألبير كامو أو العجوز والبحر لإرنست همنغواي. أعجبت بصبره ومثابرته. وشيئاً فشيئاً، تحول اتجاهي دون أن أتفطن لذلك. قد يكتسي الأمر غرابة كبيرة، غير أني كنت كلما سجلت

تحسناً في اللغة الفرنسية كلما نقص تفوقي في اللغة العربية. وفي نهاية السنة، حصلت للمرة الأولى، خلافاً لكل التوقعات، على علامة 12 عند السيد ديفيس.

في السنة الثامنة، كان أستاذ اللغة الفرنسية، جزائرياً من الأصنام يدعى قوادري؛ كان مدرساً بارعاً، تحول دروسه القيمة القسم إلى قاعة حفلات. كان يعشق مولود معمري لتواضعه، ويكن لمالك حداد شغفاً مفرطاً. كان شديد القرب من تلاميذه، يداعبهم ويحبهم. عندما ترن إجابة في أذنه رنيناً خاطئاً، كان يتلقفها وهي طائرة، ويفتح النافذة ويرميها خارجاً، ثم يعود إلى المنصة نافضاً يديه منها. كان كريماً مع "الضعفاء ذوي العزيمة الطيبة" ويسخر بلطف من "النوابغ". وما إن تتناهى إلى مسامعه عبارة تتشبه باستعارة ركيكة، حتى يقوم بإبعادنا بحركة من يده لكي يجابه "العبقري". وهكذا أفحمني عدة مرات، لأنني مع اكتشافي لروعة اللغة الفرنسية، كنت أخال نفسي شاعرها آراغون. كان يقول لي: "السيد العزيز مولسهول، إذا كان كلامك المبين بمثل مصداقية ترقيعك المتين فإن موهبتك ستهز أوساط النائمين. لكن الأدب، لعلمك، يمقت التلوين، وليس باختلاس جملة من المعلمين، واستعارة كلمة من السيد لاروس المعين، نصبح كاتب ياسين". كان يشك في أنني أغترف من الكتب ما يخصب نصوصي. لم يكن ذلك خاطئاً تماماً ولا صحيحاً تماماً. كان يحدث أن استلهم من مرجع ما، دون أن أسرق منه أي شيء، ولم أكن أتردد في تركيب جمل انطلاقاً من مفردات متحذلقة، أسجلها كلما صادفتني في قراءاتي. لم يكن السيد قوادري يؤاخذني على ذلك بل كان يشجعني على مزيد من الاعتدال فقط. كان يشرح لي بأن الكلمات ليست سوى

متملقات مبتذلة تعمل في خدمة الفكر، وبأن الفكرة ملكة ينبغي أن تحيا بكثير من التزلف والتواضع، وبأنه إذا ما كنت أريد أن أصبح روائياً، علي قبل كل شيء أن أتشبه بنفسي، أي أن لا أبحث لدى الآخرين عما يفترض أن يأتي مني. أي باختصار فإن الكاتب أولاً وقبل كل شيء، هو مسألة نزاهة.
كان يدعونا بعد أن يرجع لنا أوراقنا، لكي يجعلنا نحس بجمال الأشياء العادية، إلى أخذ ورقة وقلم، ويملي علينا طريقته الخاصة في معالجة موضوع الإنشاء. كان ذلك بديعاً. فالكلمات تتطاير وتحلق في القسم مثل الشرارات، وروح الفكاهة لديه ودقة وصفه للشخوص ذات لذة فائقة. لو كتب هذا الرجل، لبجلت كتبه. لقد أصبحت من بين أنجب تلاميذه، بفضل توجيهاته، وصرت أتحصل على 16 و17 بكل اعتزاز. وقد وقع اختياري عليها نهائياً كلغة كتابة بالنسبة لي. مع أنّه رغم تفوقي كنت متخلفاً وراء الشاب كمال وغنوني، شاعر يماثل بالفعل رامبو في بداياته دون منازع. كانت نصوصه تبهر المدرسة بأكملها. ويضرب أساتذة الأقسام الأخرى المثل به، وكان ضباط التأطير فخورين به، مما أشعل نار الغيرة في أحشائي وصرت أرقبه عن كثب، وأنقب في القاموس لكي أبهره، وأقرأ كتبه المفضلة، وكأن قراءته بمفردها تبرر حذقه. أدركت بأنه كان موهوباً، وأن نجاحه يرتكز أساساً على ذكائه. قررت أن أصبح ذكياً أنا أيضاً. نصحني صديق بمص أعواد الثقاب لتقوية دماغي. بدا لي الاقتراح غريباً، كان ذاك في منتهى الجدية وحلف بأنه أخذ الحيلة عن رواية لسان أنطونيو. كانت كلمة الروائي بالنسبة لي تعادل أي كلمة أخرى. اندفعت نحو بيت الجنود لشراء نصف دزينة من علب عود الثقاب، وبدأت في الحال حمية الكبريت. استغرق هذا الاستشفاء

أكثر من عام قبل أن يخبرني غالمي بأن فريدريك دار كان صاحب مقالب من النوع الرفيع، وأن تصديق مزاحاته يعتبر دليلاً على وجود حبة حمص مكان المخ. مضى علي وقت طويل قبل أن أُقر بأن توصيات معلم من طينة سان أنطونيو يمكنه أن تكون مغلوطة.

كان الأشبال قراءً كباراً في اللغتين. وكانوا أيضاً يعرفُون جيداً عبد الرحمن الكواكبي وماكسيم جوركي ومارك توين أو كوليت، ويقرؤون بنفس النهم كل ما يقع بين أيديهم من كتب المكتبة الخضراء إلى المؤلفات الكلاسيكية. كانت القراءة وسيلة الهروب الأساسية لنا. تحدثنا عن العالم الذي نفتقده، عن أناس نحب أن نتماهى بهم، وعن أصقاع نائية وحضارات ؛ وتحكي لنا عن الحروب والمآسي والفظائع التي تقترفها بشرية لا تفتأ تعيد النظر في نفسها ؛ وتشرح لنا آليات الأمجاد والانحطاط ؛ وتعلمنا أن نعتبر بشكل أفضل الكائنات والأحداث التي لا تعيرها مدرسة مثل مدرستنا أي قيمة. كنا ظمأى للعلم، ظمأى للعيش والوجود، ليس كرقم فقط، بل كفرد مع كل ما يترتب عن ذلك من انفعالات وطموحات، وإرادة في التفرد، واللبس بطريقة مختلفة والمشي بطريقة مختلفة بدل المشي بخطوات منتظمة، وارتداء نفس الزي وحمل نفس الهموم دون أن تمنح لنا إمكانية تفحص وضعيتنا أو الفصل فيها. كانت القراءة تعني بالنسبة لنا نفي الأمر الواقع ؛ وتحطيم الحواجز التي تفصلنا عن الآخرين وتحصرنا ؛ وتمزيق سترة المجانين التي تجمدنا وتبقي علينا بعيداً عن الأشياء البسيطة والعادية للحياة. كانت قراءاتنا فضلاً عن الحاجة الملحة للتواصل مع الخارج، ومحاولة التشبه بكل أطفال الكرة الأرضية، طريقة واضحة

لكي نثبت أنه بالرغم من منفانا، كنا قادرين على أن نفهم ونحلم بأرض البشر. ومع تطور معلوماتنا، بدأنا نطمح إلى الغوص أكثر في أعماق أبحاثنا، لدرجة أن قراءتنا تحولت دون وعي منا إلى تنافس حاد يجمع خصوماً أشداء وينتج مآثر مذهلة. كنا نتسابق على من يقرأ مؤلفات أكثر من غيره في ظرف أسبوع، ويتصفح مجلدات أكبر، ويسجل أكبر عدد من الكلام الجامع. وكان الأحسن أداء في هذا المضمار يثير الإعجاب بقدر ما كان يثيره أفضل لاعبي كرة القدم أو الرياضيين. كان لكل واحد منا كناش صغير بنابض نكتب عليه مراجع الكتب المقروءة. ونراجع ضبطه وكأنه جذاذية محكمة التصنيف. كانت كتبي المفضلة في ذلك الوقت، هي سلسلة الرفاق الستة التي يقترحها جان - جاك بونزون ضمن المكتبة الخضراء. كنت شغوفاً بها لدرجة أني رحت بدوري أكتب مغامرات المتلازمين السبعة، التي نجد فيها نفس شخوص مؤلفي المفضل، وكذلك كلبهم، وكأنها قد شُقّت شَقّاً. وأرسم على غلاف كراريسي أبطالاً يتصارعون مع ظلال مخيفة، وأكتب من فوق بأحرف كبيرة اسمي ولقبي وعنوان النص الذي أسطر تحته بالأحمر، ثم أذكر في الأسفل بقلم ألوان غامق المكتبة الزرقاء، وكأنها اسم مجموعة. كنت شديد الفخر بمؤلفاتي. وبعد عدة حلقات، بدأت أغزو نوعاً من القراء. كان أول المعجبين بي يسمى عبد الله سبوح. ولد في الرابعة عشرة من عمره، ضخم الجثة، أصله من غزوات. كونه ابن شهيد جعله بانتظام عُرضة لاعتداءات عصابة من الأولاد الأشقياء الذين يسيرهم ابن أخ أحد الوجوه البارزة للثورة الجزائرية. كانت تضم ما يناهز الأربعين شبلاً ينحدرون من نفس البلدة ويجتمعون بشكل عفوي بعد أوقات الدراسة

لتدبير مقالب للممرنين. كان زعيمها مدللاً إلى حد العبادة. واقتراحاته طلبات، وأوامره أحكامًا نهائية. كان يكره النعاج الضالة والمترددين ويشن ضدهم حرباً لا هوادة فيها. كان سبوح من هؤلاء. ولد يفضل الدراسة على ركب الأهواء. ولأنه رفض الانضمام لصفوف القبيلة والانضواء تحت لواء الغورو، كان يعذب في الليل وفي النهار، ولا يرتاح إلا أثناء انزواءاته الطويلة في أعماق الغابة. وهناك، كان يقرأ. كالسجين. كان كناشه مملوءاً بأسماء كتّاب وعناوين كتب. ذات يوم، وبينما كنت أتصفحه، عثرت على لقبي. لم أصدق عينيّ. كان شرفاً كبيراً، أثر في نفسي أيّما تأثير. أفضى لي سبوح إذّاك بأنه يُكِنّ احترماً كبيراً لكتاباتي، وبأنه يتابع أعمالي منذ المشور، وبأنه متيقن تماماً من أنني كاتب بالفطرة. كان ذلك الصبي هو الشبل الوحيد الذي شجعني وآزرني إلى النهاية ؛ بينما بدأ الآخرون الذين كانوا متشككين يعترفون بمهاراتي شيئاً فشيئاً مع صقل موهبتي. لم ينتظر سبوح تأكيداً، ولم يتردد لحظة.

في عيد ميلادي الثاني والعشرين، عثرت داخل حوائجي على علبتي سجائر بمثابة هدية عيد ميلاد، بالإضافة إلى ولاعة وبطاقة تهنئة كتب عليها الكلمات التالية التي كتبها بيترول بوريل في مجلة الفنان عام : *1845* "سوف يولد عاجلاً أم آجلاً، وربما عن قريب، هذا الشاعر، طويلاً وسيماً وقوياً، ثمرة انصهار عبقريتين وتهجين عرقين نبيلين، نتاج الامتزاج السخي بين العربي والفرنسي". أضيفت عبارة تخصني في أسفل البطاقة، "هذا الشاعر هو أنت" التوقيع : سبوح. كانت تلك أول وأجمل هدية عيد ميلاد تلقيتها في حياتي.

كان إيمانه بموهبتي الأدبية لا يتزعزع. والعقبات التي علمت طريقي كروائي كانت لا تحصى، والعداوات والتنافرات متعددة، ومع ذلك، فكلما كَبَوْت، برز سبوح من العدم ليتلقفني. يحميني كالملاك الحارس، ولا يقسم إلا بموهبتي. لم يشك في لحظة واحدة، ولم تسْهُ عيناه عني لحظة واحدة. كان يجمع خواطري ومقالاتي، ويسجلها على الصفحات البيضاء للكتب ويلصقها بشكل يحفظها من أعين الفضوليين، لكن لا يفتحها، حسب وعده، إلا عندما أصبح ذلك الوحش الأدبي المقدس، والذي كان يراه بوضوح تام.

بعد أن صرنا ضباطاً، ذهب كل منا في طريقه. اختار هو حياة مهنية في سلك الكومندوس ، بينما كنت أنا أترامى من صحراء إلى أخرى ؛ أضحت طرقنا تتفادى بعضها، لكنه كان يتوصل إلى الحصول على أخباري أولاً بأول، ويتابع عن كثب محن قارض الشعر الذي كنته، في عالم جزمات وآليات مصفحة. لدى صدور أول مجموعة قصصية لي، قيل لي بأنه نظم حفلة صغيرة، وكاد يطير فرحاً. كان فخوراً بي، ويقارن بين كل المقالات التي تخصني بها الصحافة. أهديت له : القاهرة.

كان الكتاب الذي ترك فينا أبعد الأثر، دون منازع، هو : *Allons z'enfants*، لإيف قيبو. وأثرت فينا كتب أخرى مثل : الجدران العالية *Les hauts Murs*، لأوغست بروتون ؛ ومصنع الضباط، *La fabrique des officiers*، لمؤلفه H .H .Kirst، والساعة الخامسة والعشرون *La 25e H.* لفرجيل غيورغيو ؛ والضابط المُغْفَل، *L'officier sans nom* لغي دي كار، لكن لم يكن يوجد كتاب يضاهي في أعيننا *Allons z'enfants*. قرأه كل الأشبال بنهم شديد، وجعلوا منه الكتاب الذي ينامون ويصحون عليه. بعضهم حفظ عن ظهر

قلب فصولاً بأكملها. لا عجب، فقد كان يحكي قصتنا. كنا نتعرف على أنفسنا في الشخوص دون عناء ؛ فقد كنا نكابد نفس خيبات البطل كل يوم، وبالتفصيل المُمل. كان زملائي يقولون لي إنه في اليوم الذي سوف أكتب فيه عن أطفال المدرسة الوطنية لأشبال الثورة، *Allons z'enfants* سيصبح لآلامنا في نهاية المطاف معنى. واليوم، ورحى الحرب الأصولية تدور على أشدها، يتذكر الأشبال القدامى، وهم مدركون لنبوءة نهايته المأساوية، لأن عددا منهم من أبناء شهداء حرب التحرير سوف يقتلون بدورهم على الطرقات أو في الشوارع، والآخرون سيصعقون في الأدغال المليئة بأمساخ الذئاب. ناذرين بذلك أيتامهم لسخرية القدر.

كانت توجد أيضاً رواية أخرى أثرت فيّ عنوانها : الإحدى والأربعون *Le quarante et Unieme*. لم أعد أذكر اسم المؤلف، لكن القصة ظلت حية في ذاكرتي. يحكي الكتاب القصة الغامضة لعلاقة غرامية بين مقاومة روسية وسجين من الأعداء، تضطر في النهاية إلى قتله كما قتلت أربعين رجلاً قبله. لن أنسى ما حييت طلقة الرصاص التي هزتني من فرقي إلى أخمصي، وهي تهشم جمجمة السجين، ولن أنسى أيضاً سقوط هذا الأخير وقد أخرجت الرصاصة عينه من محجرها، وجعلتها تتدلى على خده. سكنت فظاعة المشهد ليالي لزمن طويل. ومن شدة صدمتي بفظائع الروايات الغربية، اتجهت للأدب العربي الأكثر خفراً وأرياً بكثير. وعرجت هكذا على توفيق الحكيم ومعروف الرصافي ويوسف السباعي وحافظ ابراهيم ونجيب محفوظ وجرجي زيدان والحسناء مي زيادة ورضا حوحو، وآل خليفة وعمالقة آخرين كُثُر. لم أكن أفهم أغلب أعمالهم ؛ إذ لم يكن تكويني يسمح لي باستيعابها ؛ في حين

أذهلتني شجرة البؤس والأيام لطه حسين. وأدركت تماماً عند قراءتها البعد الحقيقي للكُتّاب. لم يكونوا ينتمون للناس العاديين. كانوا بالنسبة لي أنبياء، مستشرفين ؛ منقذي البشريّة. كان يتعذر عليّ تصوّر الحياة بدونهم. فهم القوّة الأصليّة للبشر ؛ لم يكونوا يفسّرون العالم، بل كانوا يجعلونه أكثر إنسانية. كنت أودّ أن أنتمي إليهم أكثر من أي وقت مضى، وأن أقدّم للآخرين ما قدّموه لي ؛ أن أصبح منارة تقتحم عتمة الضّياع والانحراف. قطعت كلّ صلة مع المتلازمين السّبعة لأتفرّغ لروائع الأدب العالمي. كنت رفقة غالمي، نقضي جلّ أوقاتنا في قلب رفوف مكتبة مدرستنا رأساً على عقب. كنّا نقرأ الكتب مع بعض. كان غالمي شخصا غريب الأطوار. منحشرا في آخر القسم، آخر من يفتح محفظته وأوّل من يرتّب أدواته عندما يرنّ جرس الاستراحة. وعندما يجد نفسه في السّاحة، يذرع المكان جيئة وذهاباً ليهضم أفكاره. كان لا يولي الدراسة اهتمامًا، لم يكن يراجع دروسه. ليلة الامتحان، وبينما كنّا نشدّ بطوننا خوفاً، كان هو يتثاءب لصدغيه، ولم يكن يمنعه ذلك من التحصل على العلامات الأكثر امتيازا من غير بذل أدنى جهد. كان نابغة وينتظر بفارغ الصّبر بلوغ سن الرشد للتّحرر من المؤسسة العسكرية وللالتحاق بالفرقة المسرحية لكاتب ياسين الذي كان يقدسه. كنت أكبره بسنتين. وكان يسبقني بشوط. كان يفوقني في جميع الميادين. متقدما علي بكثير. ورغم أنه كان يرفض فكرة كونه مرشدي الروحي، فقد كنت أعتبره كذلك. لم يضعه القدر في طريقي عبثاً. جعلني أحب جاك بريل، وبوب دايلن، وساكو وفنستي، وناظم حكمت، ومارتن لوثر كنغ وأبا القاسم الشابي، بعد أن وضح لي ما كانوا يمثلون، ونبالة التزاماتهم ولماذا كان عليهم أن يؤثروا في أعماق نفسي.

كانت المكتبة تحت تصرفنا. ولم يكن يزعجنا أحد ؛ بل على العكس كانوا يهنئوننا. كان غالمي هو الذي يكتب لي وصفة العناوين لأقرأها : الجريمة والعقاب، لدوستويفسكي، والفولاذ نقعناه لنيقولاي أوستروفسكي، والأم لغوركي، والمنبوذ لجول فاليس، وكتب جبران خليل جبران - باللغتين - وألبير كامو ومالك حداد وادريس شرايبي الذي كنا نعبده، ومولود معمري، وجان جيونو، وتوماس مان، قبل أن أتهاوى مغشياً علي تقريباً أمام من سيصبح قُدوتي : جون شتاينبيك. بعد كل قراءة، كنت أمر بمرحلة نشوة وكأنني أجتر غذاء سماوياً. كنت أسبح في السحاب. وأستعد بدوري لأن أتمخض عن نص. الريشة منتصبة، والقذف مبكر، كانت الحاجة للكتابة تغشاني كهزة جماع لا تقاوم. لو كشفت ورقة بيضاء عن مفاتنها أمام ناظري، لامتلكتها في الحال. بضربة واحدة، يرتفع الحرف الأول بانجذار جامح، وتُرتجل الفاصلة لمسة، والنقطة قبلة. تتعانق عباراتي في مرح صاخب، بينما يتصبب الحبر عرقًا على حلزونيات قريحتي. لاهثاً، ومرتعشاً، ولا أدري من ملهمي أهو الملاك أم الشيطان، في كل صفحة أقلبها، كنت أُنجب طفلاً.

كنت بالفعل جالساً بمفردي في الفناء، أقوم بتنقيح قصيدة، عندما حجبت ظلال كراسي. لما رفعت رأسي اكتشفت رجلاً طويل القامة، ذا شوارب حمراء، وابتسامة متمعنة ونظرة وقورة مهيبة. وقف إلى جانبه ما يشبه الخزانة ذات المرايا، وكأنه انبجس من بدلته، ثم الملازم الأول نقاز، قائد تجمع التلاميذ. سارعت إلى الوقوف واتخذت وضع استعد. هز الرجل طويل القامة برأسه، وتلكأ لحظة على حذائي الملمع كيفما اتفق، ثم عاد ليتفرس في عيني وكأنه يريد أن يقرأ فيهما أفكاري. بسط ذراعه بحركة دائرية تقريباً وقال :

— الساحة خاوية. لماذا لم تلتحق بزملائك ؟

شرح له الملازم الأول نقاز بصوت متهدج :

— إنه شاعرنا. يحب العزلة كي يكتب.

رفع الرجل الطويل القامة حاجباً تعبيراً عن إعجابه، وقال شارداً :

— شاعر بيننا، أليس هذا رائعاً ؟

تلهوج الضابط الذي كان على ما يبدو مرتبكاً أمام الزائر وقال :

— أره نصك،

تدخل الرجل ذو الشنب قائلاً :

— كلا، ربما كانت قصيدة غزل. وقراءتها تعتبر هتكاً للحميمية.

ثم، وعندما رد لي تحيتي بحركة واهية، شعّث بأصابعه شعري، وقبل أن يبتعد أضاف بجمود : آسف على الإزعاج. لا توجد قلة ذوق في الدنيا أسوأ من قطع خيط الإلهام. ثابر على الكتابة. سأكون سعيداً لأن أقرأ لك يوماً ما.

كان ذلك الرجل هو الرئيس هواري بومدين.

كان الرايس يأتي من حين لآخر إلى مدرستنا دون سابق إنذار. يصل دون جلبة برفقة حارس شخصي وضابط مرافق، ويوقف سيارته في مركز الشرطة، ويمنع الضابط المناوب من الإعلان عن زيارته، ويشرع في زيارته التفقدية للمطابخ بخطى محسوبة، ويداه خلف ظهره وبعينين متسائلتين. كان يتفقد المراقد والأقسام وساحات اللعب والمطابخ ؛ ويتحدث أحياناً مع الأشبال، ويطرح عليهم أسئلة دقيقة حول نوعية التعليم، والتأطير والبرنامج الرياضي والنشاطات الثقافية، ويرفع حاجبه أو يبتسم تبعاً للإجابات، ثم يواصل طريقه. كان

هواري بومدين يسهر شخصياً على مؤسستنا ؛ ويعلق عليها أكبر الآمال. كنا نمثل بالنسبة له الخلف، الخلف الحقيقي الذي يضمن استقرار الأمة ويحافظ على مكتسبات الثورة. كان يكفي رؤية الحنان والعطف والثقة التي يغمرنا بها من خلال نظراته، لكي نقدر مدى تلهفه على تسليمنا المشعل. أثناء حفل توزيع الجوائز لنهاية السنة الدراسية، والذي عادة ما يترأسه، صرح لنا قائلاً : "أنتم جزائر الغد. أعرف أنكم قادرون على مواجهة كل التحديات".

لم تكن تلك أزهاراً...

سوف تأتي الأزهار فيما بعد، كي تترحم فوق قبور العهود المركومة بالمبالغة الفاضحة، وصفاقة الشعارات.

9.

كانت الحافلة تتغرغر فوق الإسفلت.

كان الطقس جميلاً والسماء الصافية تنهل من شمسها.

كنا ذاهبين في إجازة ؛ خمسة عشر يوماً للمرح والاستجمام.

كان يخلف يلمع في بدلته البراقة. واستغرق في هندامه زمناً طويلاً. كان يعرف أنه وسيم، ويستغل ذلك. كانت الفتاة الجالسة على المقعد المجاور تتظاهر بالتمتع برؤية المناظر. في الواقع كانت تترصد خيال صديقي على زجاج النافذة. وكان هذا الأخير المتظرف يهتز طرباً. إلى الأمام عجوز يُعقّد الأمور وهو يحاول أن يلف عصابة عمامة حول رأسه البيضاوي

والأصلع. وفلاح محشور بين سلتين مهترئتين، يولج إصبعاً في فمه، ويلتقط قرصة من الشمة من تحت شفته، ويرميها بعيداً بنقفة منهكة. كان السائق مشغول البال، سميناً لدرجة أنّ كرشه تدفقت على نصف المقود. يحكي حياته للجابي الهزيل الذي كان يكتفي بهز ذقنه بشكل آلي.

كان الوقت زوالاً.

قليلاً بعد، وتمد لنا البليدة نفقها الصغير ؛ وصلت الحافلة إلى الطريق الذي به اشتهرت المدينة، شارع عريض بطريقين منفصلين بأحواض من الورود المعتنى بها بعناية وتفان خارقين. نزلنا إلى الساحة. وتفرق الركاب. انتظرت الفتاة في الموقف المغطى عسى أن يعطيها يخلف إشارة. كنا اثنين لا ينفصل أحدهما عن الآخر ؛ ونظرت إلينا ونحن نختفي في الزحام بشيء من الندم.

كان من المقرر أن تصل حافلة خط الجزائر - وهران عند الساعة التاسعة ؛ كان لدينا متسع من الوقت للتسكع في المدينة. التقينا بأشبال محملين بالهدايا، وآخرين يماطلون على عتبة أحياء مشبوهة عرضة إما لخطر القبض عليهم من طرف الشرطة العسكرية، أو لحاجتهم الجامحة للحصول على شبه راحة تافهة بقدر ما هي سريعة الزوال لدى مومسات مترهلات في الماخور المجاور.

كان المكان يعرف بخطورته، تموهه أزقة متاهية تفوح برائحة البول والخمر المغشوش. كان الديوثون المريبون يعيشون فيه بكل طمأنينة، وقد جعلوا عمرتهم الباسكية على أعينهم ويدهم على حزامهم، على أهبة الاستعداد لإخراج شفراتهم من غمدها. كانت بيوت البغاء بؤراً حقيقية للنصابين الذين طفروا من ظلمات الزمن. كانت المومسات اللواتي ينعكس عليهن

النور الضعيف الوارد من اللافتات الكهربائية الملونة يتحصّن وراء خوانات وسخة، يباع فيها بأسعار باهظة بول الحصان واللوز المتعفن. كانت صاحبة المحل تسيره بإحكام شديد، وكفريّاتها تدوي كدوي الانفجار. والمومسات متهالكات على المقاعد المثقوبة ويتململن تحت شعرهن المستعار المنفر، في حين تترامى طيات لحمهن المترهل على خواصرهن. وبالرغم من بهرجتهن المفرطة إلا أنها لم تقلل من بشاعتهن، كن يدخن ويحزقن كالأوباش. وفضلاً عن ذلك، كن يسرقن.

رجونا زملاءنا أن يتخلوا عن مشاريعهم ويرافقونا إلى السينما. بعد الفيلم، ذهبنا للعق الواجهات ومعاكسة الفتيات. ويفاجئنا المساء في منعطف تعب كبير. كان الوقت قد حان للعودة إلى المحطة. قررنا أن نتناول وجبة قبل الذهاب. اقترح علينا صاحب مطعم شعبي شريف في المدينة القديمة. مقابل مائة وخمسة وسبعين سنتيماً، طبقاً كبيراً من عجة البيض والمرقاز وكأساً من الصودا. أكلنا بشهية، وطلبنا سندويشاً للسفر وأسرعنا نحو الأرصفة.

كانت دورية للشرطة العسكرية تتبختر في قاعة المحطة بلباسها الأبيض المضحك وهراواتها البارزة، تفتش أوراق الجنود وتعتقل من تظن بأنهم أفرطوا في الشراب.

وقائد الدورية المكتنز والمكرش، يبالغ في التباهي أمام الحضور، وقد زاده همةً وجود بعض الأوانس.

رفع أحد حاجبيه وهو يعاينني، وقد أثارت نظاراتي الدائرية فضوله مع أن أحداً لا يعتبرها نظارات للزينة وغير نظامية، واقترب مني وقال :

— هناك من يحسب أنه في شيكاغو؟

— أين تقع شيكاغو؟

— لهجتي جعلته يرجع خطوة إلى الوراء. اغتنم ذلك كي يعدل من حزامه ويعاود الهجمة من جديد :

— أتحسب نفسك شاطراً؟

— ذكياً.

ثم تدخل يخلف مشمئزاً :

— ما الذي تريدونه منا؟ أوراقنا نظامية. ونحن ذاهبون في إجازة، لا تنغصوها علينا.

أشار له يخلف وهو يشد بشكل ذي مغزى على عمرته :

— عندما نتوجه إلى شبل، فإننا نتوجه إلى كل الأشبال.

وهمس جندي في أذن رئيسه:

— دعك منهم، إنهم أصحاب مشاكل ، أولئك الأفراخ.

— اهتز بدن العريف برمته في عين المكان، وهددنا بإصبعه لحفظ ماء الوجه، ثم اختفى.

وصل القطار متأخراً ساعتين. يكاد يتفزر اكتظاظاً. اندسسنا فيه بعد العديد من البهلوانيات، واضطررنا للاكتفاء بهبة نسيم في ممر ممتلئ عن آخره. انطلاقا من الأصنام توقف الازدحام. واستطعنا أن نتسرب إلى مكان صغير في مقصورة تعبق بروائح كريهة لجوارب مبللة. كان هناك رجلان ينامان على حاملة للأمتعة بأفواه مفتوحة. وفي المؤخرة، جلس سكير مكفهر ملتصقاً بالنافذة، يصدر عنه تذمر كتيم، بوجه سحجته آثار كُسارات الزجاج. حدجنا بنظرات ملتهبة شحن فيها كل ازدرائه. لا بد أنه كان ذا حساسية تجاه البدلات العسكرية. كانت سترته ملطخة بالقيء، ويمسك فوق ركبتيه محفظة مهترئة تحرسها يد تلبس خاتماً ضخماً تعلوه جمجمة. وتعبيراً عن أسفه لاقتحامنا ، انحصر في زاويته لكي يرقبنا خلسةً. كان المكان يعبق ببخره المخمر.

في الجهة المقابلة، أخذ رومي يتفحصني وعلى شفتيه ابتسامة غامضة. أطرى علي قائلاً :

— طقمك جميل.

— شكراً.

تحرك السكير في زاويته، وأسمع باللغة العربية :

— رد بالك لهاد الأسئلة المعوّجة، يا ولد. هادا ما يكون غير جاسوس.

قدم الرومي نفسه على التو :

— اسمي روبرت كلارك. أستاذ للغة الإنجليزية في عزازقة.

— هل أنت بريطاني؟

— أمريكي.

انتصب لهذه الكلمة شنب السكير، الذي عدل جلسته وصار بالمرة يقظاً وحذراً :

— إمبريالي! ويمشي ويتجول دون حبل في عنقه.

تابع الأمريكي :

— أنتم صغار جداً لتكونوا جنوداً.

شرح له يخلف :

— نحن أشبال.

— ساورني بعض الشكّ في ذلك. أما أنا فإني ذاهب لزيارة الصحراء. لدي أصحاب في بشار.

دمدم السكير قائلاً بالعربية :

— أصحاب زكّي !اسأله لماذا يعاقبون المساكين السود دون محاكمة بعد أن استغلوهم أبشع استغلال طوال قرون. اسأله كم من عبد نجا من عبور المحيطات، وهم مرصوصون كالسردين في عنابر سفن تعج بالفئران. بدل أن تذبّل له

عينيك، اسأله كيف سيعاملك لو أنك حططت في منطقة نفوذه بلون بشرتك الأسمر. هذه هي الأسئلة الحقيقية.

— اسأله أنت.

ضغط السكير على فكيه وهو يرتعش حنقاً. حاولت عيناه المخضبة بالدم أن تغض نظرتي، عبثاً. أصدر تجشؤاً خائراً، وانكمش داخل كتفيه متمتماً :

— كلهم خونة.

كان الأمريكي يبتسم. لا بدّ أنه خمن بأن السكير كان يقصده هو بالذات ، لكنه تظاهر بعدم الفهم. وقال :

— أهل الجنوب رائعون من فرط طيبتهم وكرمهم. إنها لنشوة أن ينسى المرء نفسه في واحات تاغيت، وإيغلي، وكرزاز وقنادسة.

قنادسة... حدثت أصدقائي عنها، وتغنيت بها في كتبي، مع أني لا أعرف عنها الكثير. كل ما أعرفه أنها قرية ألفية تقريباً، وأن قصرها يرزح تحت ثمانية قرون من التاريخ وأربعين سنة من النسيان. وأنه في الوقت الذي تنسحب فيه الشمس خلف البرخان، يغزوها الليل مثلما ينمل الأفيون الذهن. شهدت مولدي ذات يوم اثنين 10 يناير 1955. ومنذ ذلك الحين، بقيت ذاك الطيف الذي يحل محل ظلي، ويجذبني من ذراعي كلما هممت بالتحليق؛ وتلك الأسطورة التي تغازلني عندما يغلبني الشوق إلى كل الأصوات الأخرى. ترفض هذه القرية المنتشرة على بعد ثلاثين كيلومتراً من بشار أن تكون مجرد منجم فحم منسي، وهي التي كانت أول قرية أُدخلت فيها الكهرباء بالجزائر، والتي كانت قبل مجيء الرومي بزمن طويل الحصن المنيع للعروق والرُقوق، والجسر المتحرك للصحراء الكبرى. أنتمي إلى قبيلة دوي مينِيا، وهي ملة من شعراء الكلام الجامع والفرسان المهرة

والعشاق البارعين، الذين يتعاطون الحرف والسيف كما يُنْجَبُ الأطفال. من على صهوة جيادنا ذات الأعراف الفضية، نتصدى للزوابع والسلاطين. نستعير من الأورال سموها، ومن العقارب برودة دمها، ومن الأُرويّة خفتها، ومن الغزلان رشاقتها. كالعناكب المهيمنة في أعماق القيظ، كنا نعترض القوافل كما لو كانت أسراباً من الذباب... لكن القمر لا ينمحق إلا بعد اكتمال بدره. تلاشى صدى نداء المعارك والغارات الخاطفة، وخبا صليل جوق الحديد ونفح البواسل، اندثر كل أثر لعهد المتمردين الذي كان عهدنا. ومنذ ذلك الحين، ونحن معتكفون في حنيننا الافتراضي للماضي، وقد لفت نَبّة قلاعنا رائحة عفن القبور، وأطلال أسوارنا غزت أسوار خلاصنا. قد جئت إلى هذا العالم إذن بقليل من التأخر، ومعي بالتأكيد، قريحة الشاعر ومزمار المحارب، لكني لم أعد أمتلك لا عرشاً ولا ملحمة ألملمها، ماعدا ربما، الرفض القاطع لأن أرتاح في التفاهة، تلك التي لن يدخر القدر جهداً في حصري فيها.

لا أتذكر قنادسة. حتى في أبعد ما تصل إليه معالمي، لا أستطيع أن أحرك إلا طفرات نادرة بالأبيض والأسود، باهتة وغامضة كحيلة سحرية : الوجه المنهك للعمة بحرية، يدها تعبث بخصلات شعري، والجدران القميئة للمستوصف ؛ وكبش يقرطم في رحبة حيث كان ينتظرني رجل، بمقص تحت مئزره لكي يطهرني ؛ ثم يبرز خيال باهت بين زوبعتين خليعتين، خيال جدي...

— أنا مولود في قنادسة.

— يا لك من محظوظ، ويا لها من مصادفة جميلة بالنسبة لي!

— انتمي إلى زاوية سيدي عبد الرحمن.

سأل الأمريكي وقد راقه الحديث :

— أهو من النبلاء؟

— ليس للنبالة أي علاقة بالفئات أو الطبقات الاجتماعية. إنها متأصلة في الكائن البشري، يا سيدي. الإنسان يولد نبيلاً؛ ولا يتحول إلى وضيع إلا فيما بعد، حين ينحرف عن سواء السبيل. النبالة تكمن في النظرة التي نلقيها على الآخرين. والسوقية أيضاً. أن يكون المرء شجاعا وأميناً ومستقيماً، فتلك هي النبالة. وأن يكون شرساً، وغشاشاً أو كسولاً فتلك هي السوقية.

— وفوق كل ذلك، أنت فيلسوف.

فهمس له يخلف بكل فخر:

— إنه كاتب.

— أهذا صحيح ؟

— يعني، لم أنشر لحد الآن، لكني أكتب.

— إيه، أهنئك على ذلك. أسعدت بالتعرف عليك. أتمنى أن نلتقي في قنادسة.

— للأسف لا، يا سيد كلارك. أسكن في وهران منذ الاستقلال. ولا أعرف شيئاً عن الساورة.

— يا خسارة...

زعق السكير قائلاً :

— يعطيك الصحةّ! زيد احكي له حياتك. ألا ترى أنه جاسوس؟

— كان روبرت كلارك مبهوتاً بصحرائنا. حدثنا عنها إلى أن وصلنا إلى تليلات، حيث كان عليه أن يأخذ قطار المواصلة إلى الجنوب الكبير. تبادلنا عناويننا. وتعاهدنا أن نتراسل... بالإنجليزية. أوفينا بعهدنا.

كان الظلام لا يزال مخيماً عندما حيا القطار وهران بصفيره. دعاني يخلف لتناول الغداء في مقهى صغير يقع في حي مارصو. جلسنا على طاولة قرب النافذة الكبيرة. كان المبكرون يحثون الخطى نحو مشاغلهم ؛ أخذت السيارات تهدر هنا وهناك ؛ وعجّت الطرقات تدريجياً بطقطقة النعال؛ وفي غمضة عين التحمت مجموعات حول مواقف الحافلات. لم يود يخلف أن يزعج خاله في الصباح الباكر. انتظر طلوع النهار. لم أكن مستعجلاً. حاولت وأنا اقضم فطيرتي ألا أفكر في بتي لاك؛ كان هذا الحي يفسد عليّ فرحة لقائي بأهلي.

ألهبت الشمس أعالي البنايات؛ وخفت حلكة الشارع. وضع يخلف قطعاً من النقود فوق الطاولة واعتدل منتصباً. افترقنا بعد أن حددنا موعداً في ساحة الأمير عبد القادر على الساعة الثالثة.

التحقت ببتي لاك راجلاً. كنت أحب المشي في المدينة، ورؤية الأشياء التي أفتقدها في القليعة، وأعثر من جديد على معالمي وردود فعلي الماضية. لا يبدو أن شيئاً قد تغير. بدت وهران وكأنها تتساءل أين رأت ذلك الجندي الصغير ذا الخمس عشرة سنة الذي يظهر كمن يعرفها جيداً. كان ظلي يعني لها شيئاً، أما الباقي فكان يربكها. هذا أنا محمد. ألا تذكرين؟ أنا ذلك الصبي الذي كان يطوف في سيدي الهواري، وبولانجي، وسيدي بلال، وسانت أوجين، والذي كان يعرف عن ظهر قلب دروبها الملتوية والمختصرة، الساحات والردوب والميادين وأماكن رمي النفايات والصروح والآثار ؛ الذي يهتم بنفس القوة بسائق سيارة أجرة يشغل رافعة ودهان يطلي واجهات العمارات ؛ والذي يترك نفسه تنبهر بترتيل المشعوذين وبالمهارة التي يبتلعون بها نقود المغفلين ؛ والذي كان يحب

أن يجلس على الرصيف المقابل لكي يرقب الحلاق المتنقل وهو يحلق رؤوس صغار ذوي ثياب رثة مقابل كوب من الأرزّ ؛ والذي يقوم أحياناً عندما ينهكه تيهانه الوحداني برن أجراس أبواب المنازل قبل أن يتلاشى بسرعة البرق داخل الزحام..

لم تكن وهران متأكدة، لكن ظلي كان يعني لها شيئاً.

اجتزت الحقول لكي أدور حول خردة الحمري والمقبرة المسيحية. اشتريت في فيكتور هوغو وشاحاً وزجاجة عطر لأمي، ودمية بلاستيكية لأخواتي، ومجلات الأشرطة المرسومة لأخوتي وأكياس من السكاكر. ما عرفت أبداً ماذا أهدي لعبد السلام الذي بدأ تخلفه العقلي يعرضه لقساوة الأولاد الأشقياء. كان لا يعرف كيف يدافع عن نفسه، كان أخي يعرج أمام العصابة وهو يلوح بيديه. كنت أقضي عطلتي وأنا أجري خلفه من بيت إلى دكان، ومن أرض خلاء إلى حي حقير دون أن ألحق به. كان من المشاة الذين لا يعرفون التعب، يخرج في الصباح لابساً ثياباً، ويعود في المساء عارياً تحت معطف بالٍ أخذه من الزبالة، وقد حرقت الشمس وجهه، وسخنت عيناه إلى حد البياض، والزبد يتدفق من فمه، ساقه مجروحة تارة بحجر، ورأسه مفلق بعصا تارة أخرى. كان يرسل إلينا من معتكف جنونه ضحكات مكشرة أو يغمرنا بلعناته غير المترابطة، إلى أن يقع مغشياً عليه. وفي الليل، كان يتخاطب دون توقف مع أشخاص مخفيين، ويشير إليهم بإصبعه، وهو يهدهد ذراعه الأيسر كما لو كان رضيعاً. وفي النهار يهيم في أتون هواجسه، وحيداً لا يُعان، شهيد الهذيان، طيفي ومسكون، شعره في حالة غليان وإبطاه مدخنين، وقدماه متشققتان من الإسفلت. كان يختفي أحياناً لمدة أسابيع ؛ فكنا إذاك نقوم بتمشيط محافظات الشرطة، والمستشفيات والاستعجالات ومركز

حفظ الموتى، ونحن واثقون في كل هربة له بأن مكروهاً قد أصابه. يقال بأنه مسكون. كانت بعض الثرثارات تحلفن بالمصحف أنهن قد تعرفن على هذا الجن أو ذاك في نظرته المنقلبة، ويبخرن بيتنا بالراتنج النتن، ويحشون جدراننا بالسحر، وتخفين تحت أسرتنا أفخاخًا لإبطال السحر ملفوفة بآيات يكتبها أصحاب الزوايا ؛ والبعض الآخر يبالغ في تقدير خطورته، ويحثنا على وضع مريضنا تحت الرعاية الطيبة لسيدي البكاي المبجل. ومن شدة إلحاحهم، أدخلناه خلوة عدة أولياء صالحين، وعرضناه لجلسات طرد الجن الأكثر حدة، ولم تُفلح التعزيمات ولا مشروبات العطارين ولا الأدوية التي وصفها الأطباء النفسانيون في تخليصه من عذابه.

سألت نفسي، كيف حاله؟ أي عطلة تنتظرني؟ كان يخامرني شعور مسبق بأن للأموات فقط القدرة على لمس القعر نهائياً ؛ بينما يتعلق الناجون من الغرق بحطام سفنهم ليكابدوا العاصفة بشكل أفضل ؛ وأملهم ليس إلا احتضاراً يجهل نفسه.

في ذلك الصباح، برز حيّنا بنفس السحنة المكفهرة؛ لم يكن يبدو مستعدا لأن يعيش. كانت العمارة c تغوص في تداعيها ؛ وكانت واجهاتها تتقشر بأجزاء كاملة. لم أجد أحداً في البيت. أهلكت يدي من شدة الضرب على الباب. أبلغني أحد الجيران أنه منذ ثلاثة أسابيع جاءت الشرطة ورمت عائلتي وأمتعتنا في الشارع.

— أمك عند خالك مبيريك.

وبالفعل، كانت هناك في شارع "بلا اسم"/سان نون/، في مرأب بمساحة 12 متراً مربعاً. وحوائجنا مكومة كيفما اتفق على الأرض.

شرح لي خالي :

— والدك لم يدفع الكراء.

لم أكن قادراً على الاستيعاب. نظرت إلى أمي وأخواتي وإخوتي وهم مكدسون فوق الرزم، والجدران متسخة بالهباب، وشبكات العنكبوت تغطي الزوايا ؛ وسمعت ما يشبه الضحك الساخر في الطنين الذي يتولد في صدغيّ؛ أولن ينتهي هذا الشقاء أبداً...

لم أقبل أمي ؛ كانت ذبذبات ذهولها تحيطها بالاضطرابات وتعزلها داخل نحسها. كان يفصل بيننا جدار من الزجاج ؛ باستطاعتنا أن نرى بعضنا عبره، لكن دون أن نتلامس. لم يقم أي منا بخطوة نحو الآخر. لم يكن صمتنا يحتاج إلى تعليق ؛ فالعيون القلقة أكثر مرارة من جفوة الكلام.

لطالما سئمت قاعات المناداة، لذا وضعت الهدايا على الرصيف، وتراجعت بخطوة مداها فرسخ. وضع خالي مبيريك يده فوق كتفي ؛ تهرّبت منها. لست بحاجة إلى تعاطفه. وأي نيط من نياط قلبي يأمل أن يحركه ؛ وأي دمع يحتجز؟ نرّاس من دوي منيا لا يذرف الدمع عند الألم - هذا يقلل من شأنه ؛ ولا يبكي عندما يكون حزينا. هذا غير مجدٍ. كان خالي يعلم ذلك. حتى هو لم يكن مرتاح الضمير؛ كان بمقدوره أن يكتري لنا غرفة بدل أن يزج بنا في جحر فئران يعبق بروائح الزيوت المستعملة، بستار حديدي بمثابة باب يفتح على الشارع مباشرة، عارضاً دون غضاضة مأساتنا أمام المارة.

لم أكن متألماً ولا حزيناً. كنت غاضباً غضباً رزيناً رصيناً ؛ غضب صبي واثق من أنه لم يصل بعد إلى نهاية مفاجأته.

ما الذي اقترفناه؟ هل دنسنا دون علمنا ضريحاً أو مررنا بمحاذاة ساقية ملعونة؟

كان مرد غضبي هو عدم قدرتي على تبين شق من بين الاستفهامات يمكنني أن أنفذ منه.

قفزت في أول حافلة كي أذهب لطلب استفسارات من أبي. على الحامي. لأني لو فترت فلن أجرؤ على أن أعدل رقبتي أمامه.

كانت الفيلا في حي شوبو تبدو وكأنها غير مسكونة ؛ تداعت العريشة، وتعفنت عناقيد العنب كالجثث المطروحة في العراء، أسلمت شجرتا الليمون نفسيهما لألاعيب العناكب. وهاجت الأعشاب الضارة في مربع الأزهار الصغير ؛ فقدت مملكتي الماضية كل جلالها...

وأخيراً، بان عمي الطيب وفي يده عصا.

— اسمح لي، حسبت أن ولداً شقياً يتسلى بالجرس كي يثير أعصابي قبل أن يهرب.

قبلني، ودفعني ثم ضمني من جديد إلى صدره. كان عناقه مخلصا ؛ وألمه عميقاً. كان لا يتحمل ما بلغناه من ذبول، ويؤاخذ نفسه على عجزه عن معالجة ذلك. وما الذي يستطيع أن يفعله، وهو العجوز السقيم، بخلاف حراسة المنزل بينما كان أبي يرفه عن نفسه في مكان آخر؟ الذي لا يملك سوى تكة ليشد سرواله وظل شجرة ليستر وجهه، ليس له أن يعتذر ؛ لم يبق لعمي الطيب سوى العينين كي يغضّهما واليدين كي يضرب بهما على فخذيه تعبيراً عن سخطه.

مع أنه كان قد عانى الأمرين في حياته، ذلك العجوز المشعر الذي كان ينتمي إلى الفرقة 22 لإموزر-مرموشة، حيث انخرط في الجيش نتيجة هفوة في العام 1923، وجرح في العام 1933، وترصع صدره بالميداليات والجروح، وشارك في البعثة العسكرية ضد الريف المتمرد، قبل أن يهرب من

الصفوف لكي يتطوع في حروب الأشقاء في إسبانيا، حيث جنى رتبة ضابط، وسراً رهيباً.

لم ينل حظاً من التعليم، لكنه تعلم من تراكم التجارب، وأخذ العبرة من العثرة. خريج الخنادق الموحلة، والتميزات العرقية، صار عالماً ومثالياً على وشك الانغماس في النيرفانا، أي طوباوياً كبيراً. يتحدث عن كل شيء، ماعدا شخصه ؛ وعن ماضيه الذي كان سلسلة من الإخفاقات، يجره كعاهة مخجلة. اختفى تماماً بعد انتصار فرانكو. ووضعته القبيلة ضمن المفقودين، ثم مرت سنوات صامتة ممعنة في سكوتها، فأعلن عن موته، وانتهى. إلى أن اكتشفه أبي بمحض الصدفة عام 1965، في ناحية تيارت، يعمل كُراعٍ لدى أحد مربي المواشي. كيف آل به الأمر إلى هذا الموصل؟ لن يعرف أحد السر أبداً.

كان عمي يتقاسم غرفتين للخدم مع أخته ميلودة، وراء خم الدجاج. قبل المشور، كنت أحب أن أجلس معه على الدرج، ومذياعه الصغير ملتصق بأذنه. يلتقط أخبار العالم وهو يتنهد ؛ كانت آلام الناس تفتح جروح بدنه وجروح ذكرياته. كاد أن يصاب بسكتة قلبية في اليوم الذي علم فيه برحيلي إلى مدرسة الأشبال. فلقد كان يفضلني على بقية أبناء إخوته، ويكلمني كما يتكلم مع الكبار عن الجمال الأخوي، وعن ضرورة أن يكون المرء متوافقاً مع ضميره. كنت دون شك صديقه الوحيد. و السنوات الستون التي تفصلنا عن بعضنا تقربنا أفضل من شراكة حميمة. لم أره في حياتي يعانق شخصاً مثلما كان يعانقني.

اغرورقت عيناه بالدموع وهو يبعدني كي يتفرس في وجهي ؛ ولهذا السبب سارع إلى ضمي ثانية إلى صدره.

أبلغني بأن أبي كان على علم بخصوص طردنا من بتي لاك، بأنه كان بصدد حل المشكل. لم أتأثر مطلقاً بالإرادة الطيبة لوالدي، فأمسك بيدي وطلب مني أن أجلس قربه على الدرج. كما كنا نفعل في الماضي. التحمت نظرته المحرجة مع نظرتي لكي ترفع له رأسه.

قال لي :

— ليس من عادتي أن أتوسل إلى الناس، لكن على سبيل الاستثناء، أريدك أن تقطع لي وعداً يعزّ عليّ : لا تؤاخذه. أعرف أني أطلب الكثير، لكن مع ذلك فهذا ما أنتظره منك : لا تؤاخذ أباك أبدا، أبداً. إنه رجل تعيس. لم يحالفه الحظ لا معنا ولا مع أصدقائه. تيتم من أمه في سن لا يرحم، لا يزال يجري وراء الحب دون أن يلحق به. في الثانية عشرة من عمره كان يكد في أعماق منجم الفحم في قنادسة لكي يلتقط دراهم زهيدة على أمل أن يشتري بها بخة من الحنان من أب يبدو أنه كان يفتقد إليه. لم يكن أبونا جافياً بل الزمن هو الذي كان كذلك. إذا كان الجشع يقسي القلوب، فإنّ المجاعة تحجرها. في ذلك الوقت، تفشت الأوبئة وعم القحط. كان والدك يشعر بأنه مضطر لأن يتجاوز نفسه. لم يكن قد بلغ السادسة عشرة من عمره عندما ذهب ليكون عائلتنا المتناثرة عبر العروق والرقوق بسبب العوز والمرارة. كان يعرف معنى الأسرة، ويعتمد عليها ليتماثل إلى الشفاء العاطفي. أجهد نفسه في الكد ليرتقي نحو الأعالي ويقترب من السماء من أجل أن ينتزع ذلك الاعتبار الذي طالما افتقده والذي رفضنا كلنا أن نمنحه إياه. ولأنّه كان متأكداً من أنه لن يجد لدى ذويه سوى نكران الجميل والبغضاء فقد جرب حظه مع النساء. كان يبحث عن أمه في

كل واحدة منهن، أتفهم؟ لقد راهن كل إيمانه على أمك، وأمك لم تعرف كيف تُثمر ما استُثمر عليها ، عن غير قصد، لذا انقاد إلى أول امرأة منحته ابتسامة. من الممكن أن يعطي والدك ذراعاً مقابل ابتسامة، والاثنين معاً مقابل حب مزيف. وهذا يعطيك فكرة عن تعاسته. لا تظن بأنه على ما يرام حيث يتواجد الآن. يفكر فيكم كل ليلة، وكل نهار يحاول أن ينساكم. إنه واع بالآلام التي يسببها لكم، لكن ما بيده حيلة. فهو مغلوب على أمره. صحيح أن هذا لا يبرئه، لكن يعطيه أعذاراً في بعض المواضع. إن كنت أحكي لك كل هذا ، فلأنك ولد طيب جداً. لا تكن قاسياً معه. الكراهية هي أقبح الضرائر. فهي تفرش سريرك بالشوك، وتحشو وسادتك بالأرق، وتنتهز نعاسك كي تستحوذ على عقلك؛ وعندما تتفطن تجد نفسك تطرق أمام باب جهنم. إذا كان الله قد خلق الإنسان على صورته ، فذلك لكي يتعلم أن يغفر. هل تفهمني يا ولدي؟ هل تعدني؟

كتبت في" أبيض مزدوج Editions La Baleine Double Blanc/ "ص": 1997.؛ أحببت منذ زمن بعيد جداً رجلاً. كان إنساناً طيباً. أبيض القلب كرغيف الخبز الأبيض. وعندما يضعني على ركبتيه، تطير بي الدنيا. نسيت لون عينيه، ورائحة بدنه ؛ ونسيت حتى وجهه، لكني أذكر كل كلمة من كلماته. كان يعرف قول الأشياء كما تعرف الصدفة صنع الأحداث. ويحسن إقناعي بما هو مقتنع به. ربما كان قديساً. كان متيقناً من أن بإمكان الإنسان بقليل من التواضع أن يخلد على الحيتان والمحيطات. ويتذمر كثيراً عندما يراها تبحث بعيداً عما كان في متناول أيديها. ولأنه كان يود من

صميم قلبه تغيير هذا العالم فقد مات، لأنه هو الوحيد الذي لم يتغير".

ذلك الرجل كان هو، عمي الطيب.

بعد طردنا من بتي لاك، أُعيد إسكان عائلتي في مسكن وظيفي على مستوى الحي العسكري في الدار البيضاء. بعد مضي سنتين أصبحت عمارتنا تابعة لوحدة الدرك الوطني - وقد شاءت الصدف أن أملأ استمارة الإجراءات المعمول بها للحصول على رخصة زواجي في نفس الغرفة التي كنت أنام فيها، وقد أعيد ترتيبها كمكتب إداري. تم إسكاننا مؤقتاً في عمارة أخرى تقع في نفس الحي. كل مساء، كنت أدخل إلى البيت وملابسي ملطخة بالدماء ووجهي منكمش ؛ كل صباح، تدفع إحدى الجارات ابنها المضروب أمام أمي، وتأمرها بوضع كمامة لهذا الشبل المتوحش، والذي يجدر به أن يتقاوى على من هم في سنه. كنت بالنسبة للجميع الجندي الصغير المعكر المزاج، الميفيستو ذا العمرة الزرقاء، وحش العمارة c. كنت تعيساً في دار البيضاء. كانت عطلي تترك لي هناك طعم عدم الاكتمال وجلموداً فوق القلب. لم يكن لي أصدقاء، ولم تقبل بي أي عصابة - كانوا حوالي نصف دزينة يتعاركون في الحي. ومرة أخرى ، طُردنا إلى فالمي، وهي قرية ناعسة على مقربة من إحدى السبخات، وعلى بعد عشرة كيلومترات من وهران. هناك أيضاً، لم يكن من سبيل إلى مشاطرة أحقادي مع شخص ما ؛ وبمجرد أن حللت، كنت أفكر في القليعة...

10.

كان لمحمد ونزار سببان ليتحاملا علينا. الأول كوننا من الفرع الأدبي، ولا نعير المادة التي يدرسها لنا أدنى اهتمام، وهي مادة الفيزياء والكيمياء. لم تكن تسميتنا له بـ "غرفة الغاز" مجرد مصادفة ؛ كانت دروسه تدوخنا. وكم من المرات كان يخضعنا لاختبارات كتابية في كل وقت. دون طائل. فبمجرد أن يحط فوق المنصة نأخذ في التمطي بإفراط والتثاؤب. الثاني - زلأت لسانه الفظيعة، التي كانت تثير مرحاً صاخباً عاماً. وفي تلك الحالات يستشيط حنقاً، ويرسل نصف القسم عند القائد بوشيبة.

كان السيد ونزار رجلاً طويلاً ونحيلاً أصله من وهران ؛ يشرف على تلاميذه من عليائه كما يحوط قط منفوش على صيده الثمين. دروسه المضجرة ورطانته التي يسميها لغة فرنسية، آلت في نهاية المطاف إلى تعقيده. كان في غاية الروعة مع العلميين والرياضيين، أما معنا فقد كان يشعر بأنه أبله الحارة، ومن هنا إصراره المستمر على جعلنا نكرر بصوت عالٍ، ما كنا نهمسه بصوت خافت تعقيباً على التلميحات. كما كان السيد ونزار ينتهز فرصة فروضه المحروسة التي تستدركنا بأسرع مما نظن، لكي يأخذ بثأره ؛ بحيث كانت أسئلته المنطوية على أفخاخ تقذفنا خارج الموضوع، وعندئذٍ لا يخفي ابتهاجه بتزيين أوراقنا بأصفار رائعة، يضع تحتها خطين للتشهير، يمكن رؤيتها من بعيد جداً ؛ وكان ذلك يؤثر بشكل خطير على معدلاتنا العامة.

كان يقول لنا بلهجة آمرة :

— بخلاف الأوراق البيضاء وأيديكم فوقها، لا أريد أن أرى شيئاً على الطاولات. أحذركم، أقل حركة مريبة، وأقل تكشيرة مشبوهة، فسوف أعطيكم صفراً، ويضيف وهو يرينا إبهامه وسبابته وقد التصقا على شكل دائرة لا تقبل الطعن. تحسبون أنفسكم دواهي صغيرة. حسناً، اليوم جاء دوري لكي أقيم الأفراح.

وما أن يتنهي من وعظه، وبينما هو يوزع ورقة الأسئلة، كان يمرّ بين الصفوف ليتفحص ما إذا كانت أدراجنا مقفلة، وأوراقنا بيضاء ناصعة، وأكمامنا غير مفخخة؛ ويهدّد دادسي بإصبعه، وقد كان بالتأكيد أحذق ما عرفه الغش في تاريخه من محتالين؛ كان يبدل أماكن من يعتبرهم متفاهمين كل التفاهم، ويأمر الكسالى بالجلوس في المقاعد الأولى لمراقبتهم.

في ذلك اليوم، لم ألق حتى نظرة واحدة على الأسئلة. بمجرد أن أعطيت إشارة الانطلاق، أبعدت ورقة الأسئلة بيد وبدأت أخربش بحمية على مسودتي. عند نهاية الساعة الأولى نخز عبد الوهاب خاصرتي بذؤابة قلمه، وهمس قائلاً:

— هل يوجد فخ في السؤال الثالث؟

أزعجتني هجماته المباغتة المبطنة والملحة، فدفعت كرسيّي جانباً، وواصلت مخر بياض ورقتي بخط صغير ومذنب. بينما راح عبد الوهاب يشتمني بصوت خافت، ويصفني بالأناني والأخ المزيف؛ تجاهلته لأني كنت مستغرقاً تماماً في كتابتي.

صرخ ونزار:

— توقفوا. قرّيش وبن حامد اجمعوا من فضلكم أوراق زملائكم. قلت توقفوا! ضعوا أقلامكم وسلموا أوراقكم إلى المكلفين بجمعها.

كنت قد انتهيت.

وفيما أنا أرتب أدواتي وأستعد للخروج إلى الفناء أمسك عبد الوهاب برقبتي :

— أيها الخسيس، لماذا رفضت أن تقول لي إن كان السؤال الثالث فخاً أم لا.

قبضت على ذراعه بحركة قوية ثم دفعته.

— ومنذ متى كنت فطحلاً في الفيزياء والكيمياء؟

— كفّ عن هذا، رأيتك بأم عيني تسوّد صفحات بأكملها.

ألصقت أوراقي بأنفه وقلت :

— رأيتني أكتب هذا، وليس لهذا أي علاقة بالفرض.

قطّب عبد الوهاب حاجبيه وقال :

— ما هذا؟

— قصة قصيرة، نص أدبي بحت، هذا كل ما في الأمر.

راودت الفكرة ذهني طوال الليل. إلهام، مثل الحديد، ينبغي أن يدق ما دام حامياً.

— ماذا؟ والفرض؟

— سلّمت ورقة بيضاء.

— ورقة بيضاء! أنت مخبول تماماً. ظننت أنك تمكنت من الحصول على الأسئلة، لكن هنا، أفحمتني. تسلّم ورقة بيضاء في امتحان نهاية الفصل، هيئ نفسك يا صاحبي للتوبيخ...

جريت بحثاً عن غالمي. كان يتسكع حول المسبح، يحرك الماء المخضر بطرف غصن ويخرج الضفادع من مكامنها. ما إن رآني قادماً، حتى تخلص من عصاه ومسح يديه بركبتيه، وبادرني قائلاً :

— ماذا أحضرت لي من جديد إبداعك؟

ضربت بأوراقي على صدره. جلس في البداية على لوح المغطس، وفرد بعناية مسودتي، وراح يقرؤها. بقيت أترصد حاجبيه. كلما قطّبهما، كلما تأكدت من إعجابه بنصي.

كان عنوان قصتي المخطوط، وهذا نصها :

أنا متأسف.

كم هو مفجع أن نجهر بما لا نفكر فيه أصلاً. صدّ مخطوطي بأطراف أصابعه. كما يُصدّ رجاء. لاطائل من الطعن : يستفيد القدر دوماً من بطلان الدعوى.

وأضاف :

— نحن لا نستطيع أن نقبل نصك.

يُفهم من "نحن" التعبير عن الأغلبية؛ عين نفسه ناطقاً باسم السلطة. حتى ولو أن العدو لم يخطئ، فإنّ الحرب قد أعلنت. السلام في وسط اللصوص المثقفين هو رسالة مفخخة.

إن مخطوطي يشبه حزني.

— لم تر لجنة القراءة بالإجماع ضرورة قبوله.

— كم عددهم في هذه اللجنة؟

— لا داعي للإلحاح يا سيد.

— العاقل يعرف حدوده. والحرية لا تعني شيئاً عندما لا نعرف كيف نقيدها.

— وأنت ، هل قرأته ؟

أحرجته.

— لا يُسأل الجزار عما تظنه بنا العجول قبل موتها. وليس للمسلخ القدرة على طرح الأسئلة.

— لدينا لجنة مكلفة بهذه المهمة...

— هناك أصدقاء يرون أنها رواية جيدة.

— الأصدقاء يقولون ذلك دوماً. لهذا السبب يبقون أصدقاءنا.

انسحبت أصابعه. نُفّذت المهمة. بما أن الجريمة المطالب بها لا تقلل من عظم البلية، فلدي الوقت الكافي لتقدير حجم الخسائر.

احتجّجت قائلاً :

— إنه مخطوط، وله الحق في الاعتبار.

— إنها رزمة أوراق مرقونة.

— كيف تجرؤ على قول ذلك وأنت لم تقرأه؟

— تقرير لجنة القراءة يكفي.

نهضت. ليس كتعبير عن السخط أو الاعتراض. نهضت والسلام. لكن النزاع ظل قائماً. جمعت مخطوطي. أسكَنْتُ أوراقه الميتة خريف ذهني.

سمعت "نحن؟" يقول :

— لا تلعب بالنار.

لم ألتفت. لا نلتفت عندما نذهب إلى الدفن. حتى لو كان الميت مخطوطاً. وقار جدية الحداد يتوقف على رأس يصلي.

في الخارج، لم يتمكن النهار من التملص من الليل. كل شيء يصبح مهدداً عندما يكون مجرد تقرير كافٍ لتسيير الأمور. أتوقل الدروب التي تفضي إلى خارج المدينة. يوجد في الريف فسحة غير معروفة. إنها وكري كشاعر، وبستاني كطريد : في ذلك الصباح، كانت بمثابة مقبرتي العائلية. أدفن فيها قريحتي التي تقتلها الرقابة.

هنا يؤول
من يقول

أنظر إلى مدينة الجزائر تحت أقدامي. كل شكوى مجهضة تفضي إليّ بشجنها. كل طيف هارب يفصح لي عن هويته. أنا مستشرف، أعرف كيف أرى. شعبي المقهور هو كتابي المفضل. صمت خنوعه يجعل من همسي صرخة.

أنا شاعر والجسارة حليفي. قد يغار أيوب من صبري. وقليلاً كما تتعنّت الموجة على الحَشَفة، تكمن حيلة استراتيجيتي في انكفائي؛ سوف أعود قريباً لأذكركم من أكون. ذات يوم سوف تتحول فسحتي إلى أدغال؛ وتتنفشى كل(مات)ي من قبورها - الخادرة؛ وبكل قوة جحافل شعري المحظور، تسمعونني أحتل السطوح وأنشد بأعلى نبراتي روائع عبقريتي.

سألته متلهفاً :

— إيه، ما قولك ؟

— لا بأس.

— فقط؟

— طيب، ما الذي تريدني أن أقوله لك؟ بأنها تحفة؟ ليست كذلك. قصتك تُقرأ بمتعة. جيدة، والسلام.

— هي أفضل من ساحرة بير الساقط.

— ليس لها نفس الموضوع. هذه أقصر، أكثر استفزازاً، جيد.

— هل تظن بأن لها حظوظًا في أن تنتقيها *Promesse* ؟

— *Promesse* قد نشرت قصيدة بوشامي.

كان لمجلة *Promesse* التي يديرها مالك حداد الفضل في الاهتمام بأعمال الكتاب الشباب الباحثين عن معالم. لا جدال في جديتها ومصداقيتها. وقد ساعدت العديد من المؤلفين على الاقتدار. ومنذ أن نجح بوشامي في نيل إعجاب لجنة القراءة من خلال قصيدة رائعة عن الشبل الذي كان، بدأت أحاول أن أتدارك أمري. كنت قد كتبت عدداً من القصائد وحوالي عشرين قصة قصيرة، لكن طالما أنه لم يُنشر لي شيء بعد، رغم افتتان أساتذتي، لم يكن في استطاعتي أن أقدر أعمالي حق قدرها. في البداية، لم أجرؤ على عرض نصوصي على ناشر أو على مجلة أو على جريدة. كما كنت أجهل الإجراءات التي ينبغي اتباعها. وذات يوم، أطلعنا بوشامي على المجلة، وفي وسط النصوص المختارة نشرت قصيدته البديعة النظم والوزن. كان ذلك بمثابة هبة رائعة ذرت لتوها مماطلاتي. ما يستطيعه شبل، أستطيعه أنا أيضاً. كل ما كان يلزمني هو موضوع جيد.

فتور غالمي و"تقريره" التقريبي قصما ظهري. استعدت أوراقي بيد مخذولة، وقذالي يرزح تحت ثقل لا يطاق ؛ كنت كالمُفَرّغِ نُسْغه. حرك غالمي ذقنه برفق وقد أدرك الخيبة التي سببها لي. ثم صرح لي بعد تنهيدة طويلة :

— نصك جميل، لكن الكتابة هي أن تعرف أيضاً أي عيرٍ تمتطي. الكاتب الذي لا يقدّر مدى تأثير نصه لا يمكنه بلوغ النضج. في حين، يبدو أنك تتجاهل هذا الجانب يامحمد. أنت في الجزائر يا صديقي ومجلة *Promesse* لا يمكنها أن تحيد عن الخط الافتتاحي الذي سطره لها النظام. بمالك حداد أو بدونه هناك لجنة رقابة، وهي ليست

مستعدة لتشجيع كاتب ينهال عليها نقداً. هذا سبب فتوري. قصتك مقبولة من الناحية الأدبية. لكن الموضوع الذي تعالجه محكوم عليه مسبقاً.

— قال ناظم حكمت...

قاطعني قائلاً:

— من وراء القضبان. ناظم حكمت قد قضى حياته وهو يتعفن في ظل حراس مساجين الأشغال الشاقة. هل ترغب في أن تُزجّ في السجن من أجل أقصوصة تكاد حظوظها في النشر أن تكون منعدمة؟ علاوة على ذلك، فأنت جندي. ولا يمكن أن تُبيح لنفسك شططاً في السلوك من هذا القبيل.

كلامه لم يكن مقنعاً بما فيه الكفاية، لذا رجعت إلى بوشامي لكي أطلب منه عنوان المجلة، وأرسلت في نفس اليوم أقصوصتي بالبريد.

في اليوم التالي، استدعيت إلى مكتب الملازم وارد. كشف لي عبد الوهاب بتكشيرة عن أسنانه:

— قد قلت لك بأنك ستتعرض للتوبيخ.

— رميت أغراضي في الدرج وخرجت. في الخارج، سماء مكفهرة كانت ترشح رماديتها على الفناء المدرسي. وترك الرذاذ مكانه لنسيم تافه. من وراء نوافذ الأقسام، كان الأشبال يلتفتون لمروري. غمزني يخلف؛ رددت له غمزته، لا لشيء بل لأفهمه بأنه لا داعي للاستعجال. كانت لدي فكرتي من أجل تبرير الورقة البيضاء التي سلّمتها في امتحان الفيزياء والكيمياء؛ لكن كلما اقتربت من مكتب الملازم، كلما بدا لي العذر واهياً.

كان الملازم ينتظرني أمام عتبة الباب، وذراعاه متصالبان على صدره، مما كان بادرة خير.

صاح وهو يبتعد قليلاً ليفسح لي مجال الدخول إلى مكتبه :

— ها قد جاء نابغتنا.

كان يوجد رقيب جالس على كرسي. نهض ومد لي يده.

— سمعت عنك الكثير، يا سيد مولسهول.

كان ضابط الصف رجلاً وسيماً، ذا نظرة تشع ذكاءً وراء عدستي نظارته. هدأت كياسته ولطف ابتسامته من روعي في الحال.

قال الملازم قبل أن يستأذن بالانصراف :

— حسناً، أترككما تتحدثان بين مثقفين.

انتظر الرقيب إلى أن أغلق الباب، وأشار لي إلى كرسي أمامه. وبادرني بإطرائه :

— قرأت روايتك البوليسية، لديك روح فكاهة مدهشة.

كانت الرواية المقصودة هي باهي في باهية، تحكي قصة صحفي جزائري ذهب إلى البرازيل لتغطية كأس العالم الصغرى فوجد نفسه مطارداً من طرف فصيل الموت، لأنه كان شاهداً، رغماً عنه، لعملية اختطاف. هذه الرواية البوليسية التي كتبت على كراس تلميذ، قد تم حجزها وتمزيقها إلى قصاصات صغيرة من قبل ممرن.

دفع الرقيب فنجان قهوته إلى جهتي.

— اسمي سليمان بن عيسى[1]. وأنا كاتب مسرحي. طلبت مني قيادة المدرسة أن أكوّن فرقة مسرحية. وقد زكاك الملازم الأول.

— لم أقم في حياتي بالتمثيل في المسرح.

— هناك بداية لكل شيء.

1. (مؤلف أبناء المرارة، Plon، 1999)

لم يستغرق الحوار وقتاً طويلاً. كان سليمان بن عيسى مقنعاً. سرعان ما تحمست لفكرة تعلم المسرح. بالنسبة للكاتب الناشئ الذي كان ينمو في أحشائي، فإن فكرة إعطاء جسد وعقل لشخص من الشخوص، وإخراجه من صفحات النص لرؤيته وهو يثبت وجوده على الخشبة، وإمكانية لمسه وإعادة لمسه بالحجم الطبيعي، تعتبر فرصة لوضع خيالي على المحك، وتجسيده على أرض الواقع.

وضعت المدرسة تحت تصرفنا أحد الشاليهات غير المستعملة. قدمت فيه للسيد بن عيسى فريقي. كان يضم يخلف، وسيم الشلة ؛ لم يكن موهوباً، لكن يمكن لوسامته أن تساعدنا ؛ وسوفي الملقب بـ كوكسيليو، كان عَسِرَ زناد الفهم كبندقية صغيرة صدئة ؛ ومحند أوجيت الذي لَم يكن يعرف التفريق بين الفكاهة والهزء، لكنه هددني بأنه لن يكلمني بتاتاً إذا لم أسجله في الفرقة ؛ وغالمي الذي كان يتحرق لهفة للتعرف على كاتب مسرحي مشهور كان قد خالط كاتب ياسين واقتبس مسرحياته ؛ ودلاّل من تورين، الفكاهي من النخب الأول، والشاعر المتدفق العاطفة، الذي كان ذا سرعة بديهة خارقة ؛ وزملاء آخرين يطغى فضولهم على اهتمامهم.

إذا ما كانت عظمة فنان ما تقاس بمدى سخائه، فلي أن أقول بأن سليمان بن عيسى كان فناناً عظيماً. كان تفرغه لنا يؤثر فينا أيّما تأثير. لم تكن له صرامة الأساتذة ولا بلادة الممرنين ؛ كان رجلاً واسع الثقافة متواضعاً، وكنا نكن له إعجاباً كبيراً. وهو على دراية فائقة بالطبيعة البشرية، بحيث كان يقرأ خبايا أفكارنا، ويعيد إلينا اطمئناننا بغمزة عين. كان هذا الرجل سعادة حقيقية بالنسبة لنا، نتلهف للقائه مساءً

في الشاليه. بضع جلسات تعليمية كانت كافية لإعطائنا فكرة عن خشبة المسرح وعن الديكور وإعداد الممثلين، وتمثيل الأدوار، إلخ. كان سليمان، بين فترتي استراحة، يقص علينا عروضه في الوطن وفي الخارج، والغرائب المضحكة للكواليس، ولقاءاته بأساطين الريشة والخشبة. كان الوقت معه يمر بسرعة البراق، وكنا نضطر إلى مد مسامراتنا إلى ساعة متأخرة من الليل. بعد مضي شهرين، أصبحنا على استعداد لخوض المغامرة. اقترح علينا سليمان مسرحية من تأليفه عنوانها المضطهد. كان موضوعها يناسبنا حفراً وتنزيلاً ؛ وفرصة ذهبية بالنسبة لنا لنستعيذ بالتعزيم من شياطيننا القديمة. بذلنا فيها من الهمة والحميّة ما جعلها تنال نجاحاً باهراً. قرر المعربون الذين انتشوا بنجاحنا أن يؤسسوا هم أيضاً فرقتهم. وطلبوا مني أن أمد لهم يد العون ؛ فوضعت نفسي تحت تصرفهم. اقتبسوا عملاً أدبياً مكرساً لفلسطين الجريحة ؛ أبهروا الجمهور بلغتهم العربية النقية وبواقعيتهم ؛ غير أن الأشبال الذين جعلهم جو الحجز وحياة الجندية الفظة أقل استجابة للمآسي، كانوا يطالبون بما يروّح عنهم. قدمت للسيد بن عيسى نص الجانح الذي كنت قد نمّقته سراً. وجده سليمان رائعاً وأذن لي بإخراجه شخصياً. أعجز عن وصف ارتباكي عندما تجلجلت مسامعي بالضربات الثلاث للعصا على الخشبة وانزاح الستار عن الأزعر الذي كنت أتقمّصه أمام جمهور مهيب يتصدره في الصفوف الأولى الضباط والأساتذة والمدعوون، وفي الخلف، مئات من الأشبال الصامتين بشكل مدهش. بعد إنزال الستار، ضجت القاعة بدوي تصفيق حاد. وصعد قائد المدرسة إلى خشبة المسرح ليصافحني وليجزل علينا بالثناء.

أصبحت بين عشية وضحاها نجم المدرسة. صار الضباط والأساتذة يعاملونني بشيء من الاحترام؛ وغض الممرنون الطرف عن سوابقي وتجاهلوا طواعية هفواتي. وبطبيعة الحال سببت لي "شهرتي" والتساهلات التي كنت أحظى بها غيرة البعض الذين لقبوني آلان دولون، من باب المبالغة في إظهار التفاوت بيننا، ثم تراجعوا عن رأيهم وآلوا إلى الاعتراف بأني كنت أمتّعهم كثيراً. صاروا يترقبون تمثيلياتي كما يترقبون رؤية خيالي من بعيد لدى العودة من العطلة. أتذكر جيداً كيف كانوا في تلك الأيام، مشلولين على أسرتهم دون حراك، شاردي الذهن وقد ارتسمت على محياهم سحنات مكفهرة. كانت العودة من الإجازات تشكل على الدوام لحظات محرجة. فجأة، يلمحني أحدهم من خلال النافذة:

— انظروا يا شباب، مولسهول وصل.

دفعة واحدة، يهيج العنبر برمته، ويستقبلني الأشبال بصخب كبير وفرحة جامحة.

— حدثنا يا موح عما جرى لك هذه المرة أيضاً في وهران.

كنت أشرع، حتى قبل أن أضع أمتعتي، في ارتجال وضعيات طريفة يُفترض أنني واجهتها بطريقة وخيمة أثناء إجازتي حيث تصرفني الفتيات بخشونة قبل أن تنهال عليّ ضربات أصحابهن في مؤخرة بوابة رئيسية، معززاً في بعض المواضع تصادماتي، ونكباتي في مواضع أخرى. يضج العنبر إذّاك بنوبات ضحك محمحمة، وأنا، مصلوب على مذبح تهريجي، أواصل صب عصارة قريحتي إلى غاية حلول الظلام. فقد اجتمعنا ثانية، وأدرنا ظهرنا باستخفاف للخيبات التي توحيها إلينا عائلاتنا المتروكة بعيداً، بعيداً جداً في عرض لواعج السقم.

وقعت الحادثة في ليلة من ليالي رمضان، وقت السحور، آخر وجبة قبل الإمساك. حضر أشبال في وقت متأخر عن موعد الوجبة إلى المطعم. منعهم الممرنون من تناول الطعام ؛ ألح المتأخرون ؛ فراحوا، أمام تعنّت العرفاء، يضربون على النوافذ ويلكزون الأبواب. تفاقم الأمر. طالب الأشبال بالسماح لزملائهم بالدخول. ارتفعت العقائر، وتعالى صرير الطاولات والمقاعد. أشهر ضابط صف حزامه ليعيد استتباب النظام ؛ نزعه منه أحدهم فدوت صفعة في الهواء، وتفجر الغضب. إضافة إلى الاحتجاجات، امتلأت الأجواء بالصياح، ثم تلت الشتائم. أُمسك بضابط الصف من ربطة عنقه، فجاء زملاؤه لنجدته ؛ وانتشرت المعمعة كالنار في الهشيم.

تناهى هرج ومرج إلى مسامعي من القسم الذي كنت أتم فيه مجموعتي القصصية الجديدة، ثم أخذ يتزايد باطراد. وما لبث أن تكوّن تجمع حول المطعم، وتفشى عبر الفناء المدرسي. تراجع العرفاء بعد أن تجاوزتهم الأمور إلى الملعب المسقوف، وأخلوا الساحة للمتظاهرين. بلغ الضجيج إقامة الأساتذة الذين هرعوا لتقصي الأمر. خرجت إلى الشرفة. أخبرني غالمي أن الأحوال تدهورت، ونصحني بالمكوث حيث كنت. بعد نصف ساعة، حضر الضباط ملوحين بتهديدهم في البداية، ثم حاولوا، أمام حجم الحادثة، أن يهدئوا النفوس. هاجم الأشبال المستودعات، وحطموا زجاج النوافذ، وطالبوا بحضور قائد المدرسة. وصل هذا الأخير بمنامته وخفه. دعا ممثّل التلاميذ لعرض وقائع الحالة ؛ أحس الأشبال بالفخ واستمروا في الصراخ. خفت الجلبة لبرهة، واستؤنفت بشكل أكثر حدةً ، قبل أن تخمد في حدود الرابعة صباحاً. تفرقت الجموع وتنفس العرفاء

الصعداء. بذل القائد وقد أربكه هذا "التمرد" الذي لم يسبق له مثيل، جهداً في التقليل من خطورة الأمر على أمل كسب رضى أفراد الأمن العسكري، الذين لا يتوانون عن إبلاغ العاصمة والذين يمكن لتقاريرهم غير القابلة للطعن أن تضع تأطير المدرسة في وضع لا يُحسد عليه.

عند الفجر، بدا كل شيء وكأنه عاد إلى نصابه. تم الإيقاظ بشكل عادي ؛ التحق الأشبال بالأقسام وكأن شيئاً لم يكن. في حدود العاشرة، جاء مساعد أول في طلبي. قادني إلى بناء إداري وسلمني إلى فرّاش طاف بي بدوره في ممر مغطى برسومات تحث الجنود على اليقظة إزاء الغرباء والأجانب - الذين يوصفون بالجواسيس وهم على الرسم بهيئة أشخاص مشبوهين ذوي نظرات خبيثة، يخفون مسجلاً تحت معاطفهم.

أدخلني الفراش إلى غرفة جافية بها مكتب، وكرسي مبطن بالجلد، وخزانة حافظة. تغطي النافذة ستائر مغبرة. وعلقت على الحائط المقابل صورة للرئيس، شهدت في ماضيها أياماً زاهرة. لم أفهم ما الذي جاء بي إلى هنا. وقفت أنتظر ويداي خلف ظهري. إذ أغلق الفرّاش الباب دون أن يعلمني بشيء. بعد مضي عدة دقائق، بدأ صبري ينفد. وحين اقتربت من المكتب لاحظت ملفاً من الورق المقوى مفتوحًا على أوراق مخطوطة. لفت العنوان انتباهي. قطبت حاجبي فتعرفت على خطي ؛ كان الأمر يتعلق بالأقصوصة التي بعثتها إلى مجلة *Promesse*. فهمت أخيراً سبب عدم نشرها ؛ فقد احتجزها أحدهم في البريد.

صفق صوت في ظهري :

— إذن أنت هو مولسهول الشهير؟

برز من خلفي ضابط جسيم، يرتدي سترة فتقتها كرش ربيلة. ووجه انكمش حول تكشيرة ساخرة تزيد من حدتها عينان ثاقبتان، تبدوان على وشك الانبجاس من محجريهما. كاد أن يدفعني، وهو يحك بطنه بسوقية قبل أن يتهالك على المقعد. بعد برهة تفكير صالب يديه على كرشه، ومطّ شفتيه، وغرس نظرته في نظرتي.

— أتعرف لِمَ استدعيتك؟

— كلا.

— كم هذا مؤثر.

وبيد مَئِقة أبعد الغلاف الكرتوني، واخرج ملفاً من أحد الدروج وتصَفحه وهو يدمدم ويقرأ :

— تلميذ متوسط، غير مثابر في بعض المواد، تتفاوت ملاحظات أساتذته ؛ باختصار، بينه وبين النوابغ بون.

ثم أضاف وهو يرمقني بازدراء :

— أي بخلاصة القول، أبله يبالغ في حماسته. البغال هكذا عادة : الرأس مشقوف والفم مسقوف.

دفع إلى جهتي أوراق أقصوصتي :

— أنت من كتب هذه الترهات؟

— أجل.

— لماذا؟

— ليس سوى نص أدبيٍّ.

— هذا على حد قولك. من تحسب نفسك؟

— أحاول أن أتعلم مهنة الروائي.

— وأين هي المشكلة؟ هل منعك أحد من الكتابة؟

— كلا.

— ماذا إذن؟

تبكمت.

هز رأسه وفمه معوج. وراحت عيناه الجاحظتان تتفرسان بي ثانية. قال :

— أنت رياضي جيد، و تفوقت في عدة فروع رياضية.

— نعم.

— وتنشط ناديًا للسينما.

— نعم.

— وعضو تحرير في جريدة المدرسة.

— نعم.

— وتدير الفرقة المسرحية التابعة للمدرسة.

— نعم.

— ألا ترى بأن كل هذا كثير على رجل واحد.

— كلا.

— أهذا هو السبب الذي جعلك تشن إضرابًا البارحة؟

— ماذا ؟

— الظاهر أن مواهبك المتعددة قد أصابتك بالغرور. تود أن تكون في كل مكان، مدللاً، ومعبوداً ومدهشاً، أليس كذلك؟ الجريدة والمسرح ونادي السينما والملاعب لم تعد تكفي جموحك. تود أن تضرط من طيز واسعة، وتخلق الفوضى.

— ليس لي أية علاقة بما حدث بالأمس.

— جبنك يلائمك تماماً. هاأنت تتخاذل. ما هو الشيء الذي يحركك؟ الحشود، الاكتظاظ، الشواش، أهذا هو عنصرك؟ أنت بحاجة إلى الضجيج والهرج لكي تشعر بالتوافق مع ذاتك؟ ما إن تنفرد بنفسك حتى تنكمش، وتتضاءل وتصبح حقيراً ومخجلاً. أين ذهبت سورات غضبك وحميتك وغطرستك،

هيه؟هيا أرني ما أنت قادر على فعله لوحدك، وما تختزنه أحشاؤك فعلاً، أيها الوغد. هيا، هيا، ابك واركع، واحلف برأس أمك أنك بريء، وأنك لم تقترف إثماً، وبأن الغيوريين يلفقون أكاذيب ضدك، يا ابن الكلب.

— لا تشتمني. أبي ضابط. ليس لي أي علاقة بفوضى البارحة. لم أكن حتى موجوداً في المطعم.

— اخرس أيها القذر! نحن نعرف بأنك المحرّض.

— أنتم مخطئون في الشخص. أريد مواجهة من يتهمني...

— ها أنت أمامه : أنا من أتهمك بأنك سبب التمرد. وأنا رئيس الأمن العسكري في القليعة. إذن أؤكد لك بأنها بداية متاعبك يا هذا. فالخرق المبللة من شاكلتك أُغرقها في بولي. إذا أخفق ممرنوك في إعادتك إلى رشدك، أنا عازم على تقشيفك بالمرة. أقسم لك بأنك ستمشي على الصراط المستقيم، خافض القذال ويداك على وجهك كالغمامة.

— أعترض...

انهالت قبضته على الطاولة :

— كلمة أخرى وأشوه سحنتك لدرجة أن أمك لن تتعرف عليك. تقريري قد رقن ووقّع وأُرسل. سيدمغ في قفاك طوال حياتك، أعدك بذلك. أنت هالك. عن قريب ستمثل أمام مجلس التأديب؛ وسأكون هناك كي أتحامل عليك إلى أن تحول إلى المحكمة العسكرية بتهمة تحريض على التمرد، وأعمال تخريب وتهديد ضباط.

وضعت رهن الاعتقال في انتظار مثولي أمام مجلس التأديب. كان سجن المدرسة يقع في مدخل المؤسسة. نزعوا عني حزامي ورباط حذائي، فتشوني وأقفلوا علي في

زنزانة. في المساء، احضروا لي كوباً من الماء وكسرة من الخبز وصحناً مبعوجاً يتخثر بداخله حساء دسم يحاول فيه خيط من اللحم إعطاءه شكل عشاء. دفعت بالصينية جانباً وطلبت من الرقيب المناوب الكفّ عن إزعاجي.

كان السرير الحقير يتألف من لوح خشبي مسوس مفروش على ما يشبه منصة نعش من الخرسانة ؛ ورائحة العفن تنبعث من الغطاء. كورت سترتي لأصنع منها وسادة ثم استلقيت لأنام.

كان المصباح الهزيل يبث ضوءه بنشيش مثير للأعصاب، والحشرات الهائجة تحوم في كل اتجاه ؛ لم تغمض لي عين.

وضعت يدي تحت رقبتي، وحاولت أن أفكر في شيء من شأنه أن ينشلني من الانبعاثات الخانقة التي تفوح بها الأركان.

تخمر في ذاتي كالعجين قرف لا مثيل له.

استدرت نحو الحائط وتكورت حول ركبتي. بعد عُدة دقائق، صدر أزيز من القفل ؛ ودفع ضابط الباب وتأطر في الكوة وقال :

— لم تلمس صينيتك، أأفهم من ذلك أنك شرعت في إضراب عن الطعام؟

— اعتدلت في جلستي. كان الضابط شاباً، نحيفاً وطويلاً، يضع نظارات بصرية تحتل جل نصف صفحة وجه يبرز منه أنف رقيق. تقدم خطوة وتفحص الغرفة ثم قال :

— صحيح، هذا ليس قصراً، لكنه ليس لامبيز. يجب أن تأكل يا صاحبي، وإلا فسأضطر إلى تسجيل ذلك في سجل المناوبة.

— لست جائعاً.

— هذا ليس مانعاً.

أخرج برتقالة من جيب معطفه وناولني إياها.

— رأيتك في المسرح ذلك المساء. صدقني أنت ممثل. أعطيت انطباعاً ممتازاً. إنك اكتشاف، هذا ليس إطراءً.

— شكراً.

— أرجو أن لا أكون سبباً إزعجك. بما أنك النزيل الوحيد هنا، فكرت أنك ستسر بوجود رفيق. في العادة، لا أكترث. لكني أُقر بأنك لست من نكرات المخبولين. الفنانون هم أناس يثيرون الاهتمام. بصراحة، لقد سئمت من أولئك الزملاء الذين يلوكون دوماً نفس الحماقات. لم أصل في تحصيلي إلى الجامعة، لكني أحب تبادل الأفكار، والتحدث عن الفنون والأدب.

جلس على السرير واضعاً يده على ركبتي.

— هل أنت بخير؟

— يعني...

— أعجبني الدور الذي مثلته في الجانح. يقال بأنك مؤلف المسرحية.

— صحيح.

— أُهنئك! لست ممثلاً بارعاً فقط يا صاحبي، لكني متيقن من أنه لا دخل لك في قصة التمرد المزعوم.

— لم أكن هناك عندما حدثت.

— لا أشك في ذلك لحظة واحدة.

انقبضت يده على ركبتي وهز برأسه، وكمش عينيه ليفصح عن تعبير صارم. وبعد تكشيرة أسف طويلة، سدد ضربة مباغتة على فخذي، وأفضى إلي قائلاً :

— أظن أني أعرف، لم أُلصقت بك هذه التهمة القذرة. هل تريد أن تعرف سبب توقيفك؟ إنها موهبتك. في بلادنا،

هناك حساسية تجاه المواهب، وخاصة مواهب الكتّاب. لا أحد يطيق الكتاب عندنا. ما عليك إلا أن ترى كيف يعامل كل من معمري، وياسين وأقرانهم. حتى مفدي زكريا شاعر الثورة، ومؤلف نشيدنا الوطني، يُحتقر ويُضطهد ويضطر إلى المنفى. تاريخنا عريق في ذلك، إنه يسري في عروقنا. نحن متخلفون في الدماغ وليس فقط في الاقتصاد.

تكمشت قبضته وأطلق تنهيدة ثم أضاف :

— إنّ ما ننزله بزبدة أمتنا لا يتصوره عقل. كيف تود أن تتقدم البلاد إن كانت تزج بمفكريها وفنانيها في السجون؟

— ويقيني أنه لن ينشر لي أصلاً ذات يوم.

— هذا ليس مهماً. حتى الحبوب تُسحق. فكرة صغيرة قد تصبح مشروعاً، أليس كذلك؟ الأجدر استئصال الزرع. عندما تكبر الشجرة تصبح صعبة القطع، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، قد تجرح أحداً عند سقوطها. فلم المجازفة؟

فجأة لم تعد عيناه تعجبني. لم يكف عن التهرب من عيني. خامرني شك بأن الضابط لم يكن مخلصاً. لم أكن قد رأيته قبل ذلك. كل شيء فيه كان محيراً : ضرباته الخفيفة على ركبتي، تنهيداته، وصوته الذي كانت فيه رنة محمومة لممثل حفظ دوره عن ظهر قلب ويتلهف للوصول إلى حبكة المسرحية. خلسةً، خبشت ظهري يد خفية وباردة. تفطن الضابط لضيقي وظن بأني أوافقه على نظريته ؛ فواصل قائلاً :

— إذا كان الكاتب في الحياة المدنية مشكوك فيه، فما بالك في الجيش؟ لك الحق في المؤسسة العسكرية أن تبقي على رأسك منتصباً شريطة أن لا تتجاوز رؤوس الآخرين. مثل الاستعراض : خطوة واحدة خاطئة تفسد كل الموكب، تماماً

كما تُفسد نغمة نشاز سنفونية تعزفها أوركسترا... لا أقول هذا لأثبط عزيمتك ؛ أحاول أن أساعدك لتفهم العالم الذي تعيش فيه. الجيش قائم على الانضباط. ننفذ الأوامر ولا شيء غير ذلك. والأوامر مثل الأديان وراءها رب دوماً. هو المتحكم في المصائر ؛ ولا يحتمل أي منافسة. وأنت بلمعانك تحت أضواء المسرح، قد أسدلت عليه الظل.

— بتمثيلية مراهق تافهة؟

— بأقل من ذلك. بالنسبة لزملائك أنت نجم. الزعماء يمقتون من ينزع منهم النجومية. هذا هو الشأن في كل جيوش العالم. في المؤسسة العسكرية، ما ليس في جدول الأعمال يُصنّف في عداد الإخلال. وينبغي إذن قمعه قطعاً. ما زلت صغيراً ولم ترَ شيئاً بعد. كنت في كتائب الجيش، وفي مراكز التدريب، وفي الإدارة ؛ أعرف عما أتحدث. الجيش لا يحتاج إلى خيالك. مخك لا يهمه. لا يستعمل رؤساؤنا من نخاعهم الشوكي إلا النزر اليسير. وحتى هذا كثير عليهم. النوابغ هم أشخاص غير مرغوب فيهم ضمن الصفوف. حتى أنهم كومة متاعب طافحة ؛ وهذا يقلق الدوائر العليا. ما يطلبونه هو ثيران وحشية تحدث ضجيجاً عندما تمر من بعيد، وتندفع كالمدحلة، بعجلة من الخرسانة بدل الوجه... إن أردت رأيي، فإنهم لم يضعوك في السجن لأنك أخطأت، بل لأنك أظهرت فطنة. وهذا إجراء تربوي لإرغامك على التزام حدودك. الفكر، هو ما يعتبره الجيش كأخطر إساءة لتوازنه وديمومته.

لما لاحظ بأني التزمت الصمت، حدق في حذائه وعاود الهجوم :

— لا أظنك تفهمني يا صاحبي. أنت في السجن لأن رأسك انفرد عن بقية الآخرين. أضواء الشهرة لدى العسكر

تحيل التفكير في الحال إلى فصيل الإعدام. المثقفون أعشاب ضارة، أناس ينبشون في الزبالة. هل تعرف كم يوجد من عبقري صغير ضمن الصفوف؟ ما يكفي لملء مجموع المؤسسات العقابية في البلاد. وإذا كانوا يتمتعون بحريتهم، فهذا لأنهم يتظاهرون بالموت. وفهموا بأن النظام لا يأبه بقدراتهم. كل ما يريده هو أشخاص يطيعونه طاعة عمياء. استقلال أو غير استقلال، فإن ذهنية البلويت bleuite لا تزال سائدة عندنا، وويل للمشبوهين.

هل كان مجنوناً؟ كلام كهذا في تلك السنوات الرمادية للدكتاتورية الهادئة، يخيفني.

نهض الضابط. قال قبل أن يغلق الباب وراءه :

— انتبه لنفسك يا صاحبي. لا تنس أبداً أن من يحكموننا هم أشخاص متسلطون. بالنسبة لهم، الكتب ولوحات كبار الرسامين وخشبات المسرح لا تنفع إلا لتأجيج الحرائق.

شغل ذلك الضابط بالي. جاء لزيارتي في اليوم التالي وحدثني بنفس الخطاب. من الصعب تصديق طعونه الفجة، في زمن تضرب فيه الوشاية والجوسسة أطنابها. اكتفيت بالاستماع إليه بحذر دون موافقته، ودون أن أفشي بشيء. شككت في كونه عميلاً في مخابرات الأمن العسكري، يحاول مغالطتي برمي الكلام على عواهنه ليظفر بالحقيقة. آلت هذه "المضايقات" إلى إثارة حنقي. ذات مساء، على أمل وضع حد لهذه المهزلة رددت عليه قائلاً :

— الجيش الذي تحدثني عنه لا أعرفه. أنا شبل، والمؤسسة العسكرية هي عائلتي. لا أقول هذا من باب النفاق. هذا ما أعتقده فعلاً. هي كما هي عليه، بمحاسنها

ومساوئها، وأكن لها كل الاحترام. فليكن ذلك واضحاً، بل جلياً بيننا. لا أعرف مقصدك، ولا أعبأ به. إن كنت تأمل أن تستنطقني، فالأجدر أن أحذرك في الحين : أنت تضيع لعابك ووقتك.

منذ ذلك الوقت، لم يعد إلى مضايقتي إطلاقاً.

في العام 1975 - كنت طالباً ضابطاً في الأكاديمية - ألقي القبض على خمسة أشبال حولوا أمام المحكمة العسكرية بتهمة اتصالهم بالحزب الشيوعي الجزائري الذي كان ينشط سراً. ليس لدي أي دليل، لكنني أراهن بأن هذا الضابط كان، بطريقة أو بأخرى، وراء اعتقالهم.

لم يُعر أعضاء لجنة التأديب أي اهتمام لاحتجاجاتي. كانت تعوزهم الحجج الدامغة بشأن تورطي في التمرد ؛ ولم يكن لدي إثبات غياب مقنع. وبما أن الحادثة كانت تشكل سابقة، وبالتالي خطيرة جداً، كان من الضروري تشديد العقاب على المتهم كي لا يعاود الكرة. بعد المداولات، تم الإعلان عن تورطي، وحكمت بسبعة أيام أُحرم فيها من العطلة، وبشهر أحرم خلاله من الخروج. كنت انتظر الأسوأ، غير أنني عندما استجمعت حواسي، قدرت حجم التعسف. كان ذلك ظلماً. أقر الملازم بوشيبة بذلك، لكن كان لامناص من أن يدفع واحد الثمن عن الآخرين، وكنت الشخص المناسب تماماً ؛ أولم أكن محط أنظار القليعة، وشاعرها، وكاتبها المسرحي، ورياضيها، وفكاهيها، وممثلها ؟

لإخضاع مجتمع ما ، ينبغي ترويض وسراته.

كنت أشعر بالقرف.

عندما ذهب زملائي في عطلة ، أصبحت المدرسة تشبه أرضاً خرابًا. كابرت طيلة اليومين الأولين، بفضل وجود حفنة

من المعاقبين ؛ في اليوم الثالث، بقيت وحدي تماماً، وهويت في أغوار المرارة. صرت لا أطيق شخصي. وأكابد عند الاختلاء بنفسي. عبثاً حاولت الاستماع إلى مذياعي الصغير، وناجيت نفسي في العنبر المقفر، وهمت كالطيف وسط الأبنية الخرساء، لم أُفلح في إبعاد القنوط. كان ينتظرني عند منعطف الأجنحة، يمهلني لكي يلحق بي في الفناء المدرسي، يحصرني ويقلقني ؛ كنت أشعر بأني سأفقد صوابي. فقدت شهيتي وهناء نومي ؛ كل شيء ينفر مني. في اليوم الرابع اعتكفت في عمق الغابة، من الصباح إلى حلول الليل. كنت أتفاجأ بنفسي وأنا أجري بين الأخياس، وأقف على قمة المنحدرات ويدي حول فمي كالقمع لأصرخ بأعلى صوتي : نعم، أنا كاتب. ما هي مشكلتك؟ هل تعرف أصلاً ما هو الكاتب؟ أنا مجوسي ؛ الكتابة إكليلي، والاستعارة أُبّهتي ؛ أجعل من الدميم جميلاً، ومن صفحة بيضاء حورية. أحول الضفادع بريشتي إلى أمراء، والصعاليك سلاطين. أنا الوحيد القادر على اختراع الحب انطلاقاً من فاصلة. وأنتم ما بيدكم حيلة. ما هي مشكلتكم بالضبط؟ ماذا تريدون مني؟ كاتب أنا، وكاتب سأبقى، ولتَمُتْ السخافة!

موفقاً بين الحركة والكلمة، جعلت من الغابة مملكتي، ومن الفسحات حدائقي، ومن الأشجار أبراجي، ومن الأجمات أسواري، ورحت أطلق أسماء الشعراء على الصخور، وأسماء أحبها على الدروب... ورغم كل هذا، رغم كل هذا، وفي الوقت الذي كنت فيه أسود دون شريك على الأعشاب وأصواتها، كان الله يعلم، في اللحظة ذاتها التي بايعت فيها نفسي سيداً على الغياب والوحدة، بأني قادر على التخلي عن عرشي وامتيازاتي من أجل أتفه صحبة.

11.

قالت السّيدة لوسيت جاروز، البولونية الطّيبة التي كانت تدرسنا لغة موليير :

— فكر في مراعاتي قليلا يا سيد مولسهول. ليس لدي سوى ورقتك. لديّ أيضا أوراق زملائك في القسم الثّلاثة والعشرين، والخمسة والعشرين من قسم السّنة الأولى L1، والثمانية والعشرين من قسم السّنة الثّالثة A1 ، وعشرات وعشرات الأعمال التي يجب علي أن أقيّمها وأصححها وأضع لها علامة. للأسف، فإنّ ورقتك تستهلك جلّ وقتي. سئمت من البحث في القواميس عن كلّ كلمة. هدئ نفسك قليلا ، وخفّف من غلوائك، أؤكد لك بأنّ نصّك يختنق، يا سيد مولسهول. أنت تردمه تحت حطام مؤسف من الكلمات الزّائدة عن الحاجة، وغالبا ، أقولها هنا على الماشي، غير ملائمة. الإطناب لا يبهر العين، بل يفقؤها، ومع الوقت يثير الأعصاب.

كانت آسفة لزجري بهذه الطّريقة، لكن لم يكن بوسعها أن تتصرف بشكل آخر إزاء غرائبي. قبل ذلك بعدة أشهر، كانت موضوعاتي الإنشائية تبهرها. ظنت بأنها قد عثرت على الدرّة اليتيمة، وكانت فخورة بتعداد نابغة من بين تلاميذها. لم تكف عن التّباهي بي أمام زملائها، لدرجة أنّ بعضًا منهم كانوا يأتون للتّحقق بأنفسهم من مضمون استعداداتي الأدبية. لكن، على مدى شططي، تضاءل افتتان السّيدة جاروز. وكلّما أعدت الكرة، كانت تصبح أكثر مجاملة، ثمّ انتهى بها الأمر إلى السّأم الصّريح.

— هذا كثير، يا سيد مولسهول، أنت تغالي. أعطيتك... 13 من باب الرّأفة.

وضعت ورقتي المزدوجة على الطّاولة، وسَهَت يدها فوقها، ثمّ فكرت قليلا قبل أن تطلق تنهيدة تبوح بالكثير من طفح كيلها.

— هل تعرف كيف يسمى النّاس الذين هم على شاكلتك يا سيد مولسبهول؟ : مجانين العظمة. وجنون العظمة هو مشكلة مرضية حقيقية. أنصحك أن تستشير مختصا نفسانيا، وخير البر عاجله. إذا ما أصريت على الانكفاء ضمن تخوم الحشو المقيت الذي بدأ يميزك، سوف أكف عن قراءة أوراقك. وسأضع لك على الدّوام علامة... 13 من باب الرّأفة.

كان قدوري وإسماعيل منزويين في ركنهما يضحكان هازئين علانية. كانا من خصومي ولم يكن ليضيرهما أن يرياني ألقم الحجر.

أكد لي غالمي في الفناء المدرسي :

إنّ السّيدة جاروز على حق.

كان على علم بخيبتي، وأصر على أن يعيدني إلى الصّراط المستقيم. اعترف بأنني منذ أن نشرت مجلة المدرسة قصيدتي : الأفعى وهي هجاء موجه للرّابات - زوجات الأب - نلت بها شيئا من الشّهرة لدى تلاميذ ثانويات المنطقة، لم أعد أتمالك نفسي. صرت أحسب نفسي ساحر الكلمة.

وما لبث أن أضاف :

— لا أقول بأنك تهذي. خيالك واسع، هذا لا ريب فيه. لديك المفردات، لا مجال للتّشكيك. لكنّ لديك عيب كبير ويجب أن تتخلص منه : أنت تسعى لإفحام الآخرين. الكاتب لا يفحم ؛ الكاتب يهز المشاعر. ولا يفرض نفسه ؛ بل يغوي

أو يقنع. عظمته تكمن في سخائه وتواضعه، وليس في تعقيده. بينما تعمل أنت المستحيل لكي تظهر صعبا. كلماتك منتفخة ومفرطة ؛ تظن أن فرنسيتك فصيحة، في حين أنها خطابية وجوفاء. تصبح شاذا عندما تريد أن تكون عالما ؛ إنّها رعونة كبيرة. انظر إلى براسانس. أنت تحبه كثيرا، براسانس شاعر كبير. مع أنّ كلماته واضحة كالماء الزّلال. وجيونو؟ أتذكر كم أحببت. *Regain* لماذا؟ لأنه يكتب بأحاسيسه وليس بكلمات مزهوة. تفخيم الكلام هو أبهة المهرجين. الرّوائي الجيد لا يأبه بالأبهة، ولا يعبأ بالمظاهر الخداعة. لديه كتاب يعرضه على القراء. همه الوحيد هو أن ينجز عملا نافعا. والألعاب النّارية ليست من اختصاصه. عليك أن تقبل الانتقادات، وأن تستوحي من الملاحظات التي تبدو لك مسيئة والتي يمكن أن تستخدمها كمعالم موثوقة. وددت أن أكلمك منذ بداية السّنة ؛ لكنّ عنجهيتك ثبطت عزيمتي. ما تفعله خطأ. عد إلى أسلوبك الماضي، الملون والمصور والفائق الرّصانة. هنا تكمن قوتك، وهنا طبيعتك الحقيقة.

— أتظن بأنني أبالغ ؟

— بصراحة، نعم. الشّاعر، شيء سحري، وليس مشعوذا. تركيبات جمله ليست حيل ألاعيب الخفة. إنّها شهب تعبر ليل الأذهان لكي تسائلها. منذ فترة أعدت قراءة فئران ورجال لجون ستاينبك. إنّه ليس بكتاب يا محمد بل ساعة رملية مسحورة. سلس وجميل، بسيط ومفيد ؛ إنّه ثورة. هكذا أحب أن أراك : ساعة رملية شفافة تسبح قريحتها، وتحكي العالم كما يحكي الزّمن التّاريخ. كم من مرة يجب أن نكرر لك بأنك قادر على ذلك؟ الآن عليك أن تقنع نفسك

بالأمر. لأنك كلّما نبشت في القاموس، كلّما أنقصت من ثروتك الخاصة، تلك التي تنوء بها أحشاؤك، والتي لا تنتظر إلا أن تطفر من مخك كي تبهرنا.

استشطت حنقا. لا أحد يفهمني. لا يعرفون بأني فقدت كلّ شيء، ولم يبق لي إلا الأدب للهرب من المعمعة التي تسحقني، والبشاعات التي تتكالب كي تجعلني أقرّ بأني لا أصلح لشيء بخلاف المصائب. منعت نفسي من أن أكون دميما، وأن أتشبه بحياتي. صحيح أنني من النّاحية الجسدية كنت بعيدا عن إرضاء هذا الطّموح، لكنّي كنت واثقا من تدارك ذلك بفضل الموهبة. أعلنت الحرب على الخيبة، حربا لا رحمة، ولا تنازل فيها. كلّما عاكسني القدر كابدت لإعطائه الصّاع صاعين. بالنّسبة لي كانت كلّ قصيدة كتبتها، وكلّ أقصوصة وكلّ نص بمثابة ردود سريعة، ضربات وهمية أسددها له. وددت أن تضاهي استعارتي في جمالها رفضي للتّخاذل، وأن تكون مقالب جملتي قادرة على أن تحل محل المقالب السّيئة التي ينزلها بي القدر... كنت أريد أن أغوي وأن أعجب، وأن أصبح محل اهتمام لشيء آخر غير فشلي. وأن أتجاوز أحزاني على طريقة أصحاب الصّنعة الكيميائية الواثقين من استخلاص الذّهب من الوحل الذي يخوضون فيه. كان ذلك تحدي الخاص، وكنه وجودي. استثارة العطف هو اعتراف بالضّعف، وانهزام منمق. لطالما رفضت الاستسلام، وكنت أقول في قرارة نفسي إنّه إذا كان اللّه قد علّم مشواري بالعقبات فليس ذلك رغبة في امتحاني ؟ من أكون حتّى تتحامل السّماء علي؟ - لكن بالعكس، لكي يثبت لي بأني كنت قادرا على تخطيها. لا يحس بالجمرة إلا من يدوسها ؛ فهي لدى الشّعراء الجوالين منبع للطّاقة ومحفز إضافي

للتّسامي. لم أكن أحب الفتى الذي كنت، المضطر دوما لتحدي الممرنين بحماقة ولإغاظة الضّباط، وللتّهريج في الصّفوف لفرض وجوده، ليجد نفسه في نهاية الأسبوع ونهاية المطاف محتجزا ووحيدا أمام مراراته ؛ كنت أمقت ذلك النّحس الملتصق بجلدي وكأنه يخشى أن أفلت من قبضته، وأمقت ذلك الحنق الذي يستنفذني من الدّاخل قبل أن يقضي عليّ نهائيا ؛ وأمقت أن يحسبني الآخرون حاوي ثعابين حين كنت فقط أحاول أن أعزف على النّاي. لم أكن متكلفا. كان لدي ثأر آخذه من نفسي أولاً، ثمّ من أولئك الذين سارعوا إلى رميي في النّفايات. وكان ذلك الثّأر هو أن أكون يومًا ما المثل الأعلى الذي أصبو إليه : كاتبا، أي شخصًا مثل بودلير الذي حلق فوق الدّناءات والبشاعات التي نذره لها أقرانه، وانتصر على صغره ككائن فان باستحقاقه لنصيبه من الخلود. كانت حياتي من البؤس والسّخافة بحيث لا يواسيني فيها سوى اسمي مطبوعا فوق كتاب. لم تفهم السّيدة جاروز بأني كنت أجهد نفسي لأشبه معلميّ وأتلألأ في ليلي ؛ لم تكن تفهم بأن اليراعات تحترق عندما نحسبها تتوهج، وبأن إغرائي يتمثل في اجتذاب نفسي أولاً، وبأني لم أكن متشدقا مغرورا، بل روحا تبحث عن نفسها حتّى لو اضطرها ذلك إلى تهييج الأغوار السّحيقة. لم تعد الغياهب تخيفني. كنت أمشي بتؤدة في وضح النّهار عمدا. كنت أؤمن بنفسي رغم نحسي. هكذا يتقدم الأفراد الواثقون من صفاء ذهنهم. لم أكن أخشى أن أتوه. فكرتي الثّابتة كانت نجمي القطبي ؛ وموهبتي المتقدة في أحشائي كانت بمثابة بوصلتي. ولدت شاعرا كما يولد العصفور موسيقيا، ولا يمكن للأقفاص ولا لشراك الصّيادين أن تغلّط مفاتيح تنغيمي.

صاح المدير بصوته الأخن :

— طز! الأستاذ يظن نفسه لا أدري من. يعرف بالكاد كتابة اسمه، ويظن بأنه قد وصل. دعني أفضي لك بما أظنه في أمثالك من صعاليك : فستي! هراء، رماد في العيون، هروب إلى الأمام. ثمّ أضاف محركا ورقتي بأطراف أصابعه بازدراء : أتسمّي هذا تعبيراً. إنّها لا تستحق حتّى العلامة 13 التي تحملها. الحقيقة لا تكمن هنا يا سيد مولسهول : الحقيقة هي أنّ السّيدة جاروز امرأة، لهذا أنت تحاول أن تظهر عضلاتك أمامها، ولأنها لطيفة تكتشف لديك أنيابا لتنهشها. لو كنت مع رجل لتصرفت كملاك صغير. أتتجرأ على نش ذبابة عن وجهك في حضور كارقال أو مقران؟ سيهشمان لك وجهك لأتفه من ذلك. إنْ ظننت بأنّ الطّبيعة لم تحسن تصويرك بما يكفي، يا وجه القرد، فما عليك إلا أن تطلبني. أعدك بأنني لن أتحرج. هل رأيت نفسك؟ هنا، أنت لست في السّوربون يا فتى. ليس لدينا قدر كاف من المنشفات لمسح إنشاءاتك الزّحارية. أنت جندي. لديك رأس لحمل الخوذة وليس للتحذلق. الجيش ليس في حاجة إلى ناثرين ؛ إنّه يعتمد علينا لتوفير ضباط نزهاء، مخلصين، أذكياء وأكفاء. لن نحصل بالتّنغيم على فرض سلامة ترابنا، يا سيد مولسهول. الدّبابات التي بانتظارك تريد القتال، وليس أن تهدهد نتيجةً وهن أحوالك النّفسية. الجنود الذين ستقودهم سيطالبونك بالصّرامة، ولا شيء غير الصّرامة. هم لا يؤمنون بالسّحرة، لا مكان على خرائط الأركان العامة للمواعظ المبتذلة.

— لست بحاجة إلى دبابات، ولا لطائرات، ولا لكتائب محنكة، يا سيدي المدير، أعطني آلة كاتبة، ورزمة ورق وسأغزو العالم.

ما كانت حتّى لكمة صادعة لتهزه بهذا الشّكل.

تمالك نفسه ببطء، وثنى شفتيه بتكشيرة محتقرة. كان ساخراً ومغتاظا في آن. كمشت أصابعه طرفًا من ورقتي، ثمّ عدل عن تمزيقها.

غلّف الصّمت المكتب بغلالة من الرّصاص.

بعد ضحكة مكتومة، رفع رأسه وقال :

— هذه أجمل حماقة سمعتها منذ أن قالت زوجتي نعم حين طلبت يدها للزّواج. السّيدة جاروز على حق. ستذهب حالا لاستشارة طبيب نفساني وفي انتظار تقريره، يطيب لي أن أعلمك عزيزي السّيد موريّاك الدّيّوث بأنه ممنوع عليك الخروج لأربعة أسابيع متتالية وأنه، إن رغبت في ذلك، لدي فعلا رزمة من الورق في حالة ما إن كنت لا تزال تمسح طيزك.

لم تثر صرامة العقوبات سخطي. في كلّ الأحوال، لم يكن تمردي ليحررني سوى نهاية أسبوع واحدة كل 15 يوما ؛ كانت حلاقة القرعة تمنع بانتظام شعري من النّمو. وغالبا، حين يتعذر القبض على مخرب خفي ما، تحوم الشّكوك حولي لا محالة. كنت أدفع الثّمن دون إثارة أدنى شك، وبالاستنزاف لم أعد أشعر أبدا بالحاجة للتّذمر. ألصق الممرنون بي سمعة دامغة، ولم يكن للإفصاح عن براءتي من جدوى إلا تعزيز الاتهامات العفوية للعرفاء. ثمّ ويخني القائد بوسيبة قائلا : « حتّى لو أقسمت بالقرآن فلن يغير ذلك رأيي. أنت الوحيد الذي يخلق المشاكل في النّاحية. ومن توده أن يكون، يا هذا ؟ أنا ؟ أنا لست بمسرنم. إذاً من؟ الجن والعفاريت ؟ إنّها أكثر تعقلا. لذا لا يمكن أن يكون إلا أنت، يا أيها الجرو المسعور. أنت، ولا أحد سواك... ». لم ألح. لو أني حاولت إقناع ساحرة بإبطال تعاويذها لكان أهون من إقناع ضابط بصحة أقوالي.

كنت حزينا لفكرة فقداني احترام السّيدة جاروز. كان حماسها يغمرني نشوة. وكنت بحاجة إلى حرارتها : كانت حليفي الطّبيعي ؛ ولم أطق أن تخاصمني بسبب سوء تفاهم تعس. الآن وقد أدارت لي ظهرها، أخذت تجلياتي النّادرة تتشابك في ظلها، كانت لا مبالاتها تزهقني.

كنت أعرف حدودي ؛ وأصبح من الحتمي بالنّسبة لي أن أتصالح معها.

عقدت العزم، مهما كلفني الأمر، على أن أكفّر عن ذنبي، لذا توسّلت إلى غالمي الذي لا يمكن تفاديه لكي يساعدني على تلميع صورتي لديها. أعرب عن استعداده، وسألني إن كنت أنا مستعدا. ولكي أبرهن له على ثبات عزمي، أحرقت أمام ناظريه أجمل مواضيعي الإنشائية. لم تعجبه البادرة، واقترح علي فقط الاستغناء عن استعمال القاموس. ثمّ أخذني إلى المكتبة، وأحصى المؤلفات التي ينبغي عليّ أن اقرأها وأتمعن فيها : السّهل الكبير واللؤلؤة، والخميس الحنون لـ جون شتاينبك، وأيام القبائل لـ"مولود فرعون"، وصمت رصيف الأزهار لـ"مالك حداد"، والإرث المفتوح لإدريس شرايبي، ومصير رجل لـ "شولوخوف" وديوان شعر لـ "جاك بريفير".

جاء شهر حرماني من الخروج في الوقت المناسب، فقد منحني فرصة لتدارك نفسي. في نهاية الأسبوع، كانت المدرسة تشبه قرية مهجورة. لا حياة فيها لمن تنادي. كان يسمع خبط درفات النّوافذ وقد خرجت عن طورها، وحفيف الأشجار وصرير اللّقالق، والساحة المقفرة ضائعة في سديم الغيابات ؛ في حين تتكبر المراقد المغلقة على المطاعم، وينزوي المعاقبون النّدر في الأركان المظلمة. كنت أحبس نفسي في قسمي وأغوص في كتبي.

كان غالمي يأتي من حين لآخر مضحيا عن طيب خاطر بأوقات راحته ليعاين مدى تقدمي. يجلس مفرشخا على أحد الكراسي، ويلقنني. كما كان سبوح في نهاية العشية يحضر لي لدى عودته من المدينة بعض الحلويات. لم يكن يمكث معنا طويلا حتّى لا يعكر صفو اجتماعنا. كان غالمي يقرأ مدونات قراءاتي، ويضع خطا تحت العبارات التي يراها صحيحة ويحوط بضربة قلم على الكلمات الجذابة ويحدد الفقرات الزّائدة. كانت كثافة خربشته تثير أعصابي. لم يكن يكترث لاحتجاجاتي، بل كان يبين لي بكلّ أبهة مكامن الثّقل والإطناب، وعدم جدوى الإكثار من الصّفات، ولكي يرفع من معنوياتي، كان يترأ بصوت مرتفع وبلهجة متحذلقة الفقرات المقبولة. أخذت ملاحظات أستاذي المتطوع على مرّ الأسابيع تقل ؛ أضحى بإمكاني أخيراً أن أقدم نصًا معقولا أمام الرّضى العارم لـ سبوح غير أنه ما كان للسّيدة جاروز أن تقرأ لي بعد ذلك أبداً.

كان الوقت ليلا، أو ربما أنّ النّهار لم يكن قد فات بعد. في عقر السّماء المكفهرّة، طالب إله البراكين بسماواته، فدوت رعود هائلة على شكل دق طبول. وفجأة، وقد أخذته الحمية، استولى على أنصال بَرقه وراح يبقر الغيوم التي كانت تغطي السّهل بأسراب شاسعة من الغربان. وهبت ريح مزمجرة، والتوت الأشجار على ذؤاباتها. كانت السّيد جاروز تقود بيد وتمسح بالأخرى البخار المتكثف على زجاج سيارتها الرّونو 4 التي كانت تخوّض في المياه. لم تكن ترى واد المزفران يفيض على جنباته ولا الحملة وهي تنتظرها عند منعطف المصائر. عثر على جثتها بعد ثلاثة أيام مكفنة بالوحل على إحدى الضّفاف.

غالبا ما تستعير الصّدفة من القدر سخريته؟ لكي تثبت بأنها ليست من نكرات المصائر، وبأن لها هي أيضا صوت مسموع؟ ثمّ تسارع أمام فظاعة الخسائر إلى تحميل مسؤولية مبادراتها المؤلمة للقدر. ثمّ، وما هو القدر، بخلاف أن له كاهلا نعلق عليه كلّ شناعاتنا، وسوى أنه ما يبقى، عندما نبذل المستحيل ونخفق.

كانت لوسيت جاروز سيدة يقدرها الجميع في المدرسة الوطنية لأشبال الثّورة في القليعة. مخطوبة لطبيب نفساني جزائري وتحضّر جهازها كي تدخل عش الزّوجية، مما أضفى على رحيلها المأساوي عبثية مقيتة. كانت في غضون ذلك قد أنهت لتوّها كتابًا حول الشّيخوخة في الجزائر. وهو مؤلف لم ينشر إلاّ بعد عشر سنوات من وفاتها. ومع أن الأشبال كانو يكنون احتراما ورعا لأساتذتهم، لكنّ الأمر مع السّيدة جاروز كان يتعلق بالمودة ؛ لم أكن أكف عن رسم صورتها الجانبية على أوراق منفردة. لم أكن واقعا في غرامها ؛ كنت أحبها. كانت ذات لهفة وسهولة خلق تصلان حدّ الشّراكة المتواطئة. وتدافع عن تلاميذها أفضل من لبؤة على أشبالها. كنت تلميذها المدلل. وهو السّبب الذي جعل العديد من أقراني يصفون تصرفي بالجاحد واللامقبول وقد لاموني عليه في البداية. الموت المباغت، المعاكس لأوانه والمجرم يترك ندوبا عميقة. وللتّعوّذ منه يجب أن نجد له معنى. وحين يفتقر إليه نبحث عن مذنب. كنت أفضل من يناسبه الدّور. قطع أساتذة اللّغة الفرنسية الجزائريون على أنفسهم عهد شرف على تضييق الخناق علي. كان يوجد من ضمنهم ضابط من الوحدات يقوم بخدمته العسكرية في سلك المعلمين. كان شابا شغوفا، من هواة بورج ومولع بـ بوريس

فيان، قادراً على استشفاف تضاريس فرج أنثوي في نص بسيط يصف بكلّ عفوية أوهاد نهر ما. كان يفضل الأحجيات المهلوسة لـ وليام بورّوز على البساطة المحيّرة لـ كامو. ويمارس عليه الشّعر السّبرنتيكي سحرا يعادل السّحر الذي يوحيه تمثال أخرق ممهور بتوقيع سلفادور دالي. لم تكن التّكعيبية بالنّسبة له فنا، بل مكانة اجتماعية، لا ترقي من شأن صانعها بل من شأن من يعرف تذوقها. ولم يكن يضاهي تكلّفه سوى الدّهشة التي يثيرها. لذا فقد أمسك بحزم بزمام قسمنا، وأنذرنا من البداية بأن أعلى علاماته لا تتجاوز 12، وبأنه كي نأمل التّقرّب من 10، كان يلزمنا... فهمنا أن توثّبه يعنيني أنا مباشرة. أنا الذي كان ضغطي ينخفض بشكل مريع بمجرد أن توصم العلامة 13 ورقتي. تلهفه لكسر شوكتنا جعله يخضعنا للامتحان في الحين : اختبار مراقب. صحح أوراقنا في ليلة واحدة ؛ في اليوم التّالي، سلّمنا إيّاها بحركة مترفعة وتكشيرة مبوّزة... مولسهول 9 على 20. ترقب رد فعلي. لم يظهر له أثر. كان الاستفزاز جليّا وسخيفا. خيّب إذعاني آماله التي صبّها على المرة المقبلة. دون جدوى. كنت دائما أبجّل أساتذتي رجالا ونساء، لطفاء كانوا أم قساة، مسيحيين أم مسلمين، أصوليين أم شيوعيين، دون تمييز في الأخلاق أو الخلق. هكذا كان الأشبال : متمردين مع الممرنين، وفي منتهى الوداعة مع الأساتذة. لم يقع سوى حادث فريد ووحيد لوقاحة خطيرة في القليعة. تمّ توجيه المذنب في الحال إلى مدرسة للجنود ؛ ولم يترك له وقت لإدراك ما كان يحصل له...

تنغصت كثيرا من جراء تحامل الأساتذة علي. بالنّسبة لي، ليس من شيم الأستاذ أن يلعب دور القنّاص المتوفز، المختفي

وراء مشربية يترصد لواحد من النّكرات المرموقين لكي يرديه صريعا دون إعذار على الرّصيف لدى عودته من السّوق أو عند خروجه من عمارة ما. كانت تلك الوضعية ترهقني، خاصّة وأنني كنت أشعر بالذّنب لأني حملت أصحاب العلم والمعرفة على التّصرف بتلك الطّريقة التّافهة والسخيفة.

بعد مرور بضعة أشهر، هدأت مشاعر ضابط الاحتياط تجاهي. فقد منحني في امتحان آخر السّنة علامة مشرّفة 17 : ونصف، نلت بها جائزة اللّغة الفرنسية المتمثلة في روايتين *Manhattan Transfert* لدوس باسوس والطريق الملكي *La voie Royale* لأندريه مالرو. ولم أعرف لحد الآن بالضّبط إنّ كانت تلك وسيلته في الاعتذار أم لأنني كنت أستحقها فعلا.

في نفس الوقت، كنت أواصل الكتابة. أقنعني هشام بن شيخ الملقب بـ تيموتي؛ وهو مغنٍ محبوب دون أبهة، وزير نساء خائب ولا يتوب، زعّاق كالكّديش ووديع كدمية فراء، بضرورة أن يكون لي ناشر. وشهد لي بأنه يملك الصّفات المطلوبة للقيام بتلك المهمة على أحسن وجه. لم يكن لدي أي سبب يجعلني أشك في قوله. كان هشام ابن الجزائر العاصمة، ويخالط المجتمع المخملي يتقن العزف على القيثار الكهربائي والكذب بحجج دامغة. كان "ارستقراطي" المدرسة، أي ولدا على الموضة ذا أفكار كاملة النّضج واستثمارات في محلها. خلقنا في القليعة عالمنا، وكنا نعزّزه حسب احتياجاتنا وتطلعاتنا. كان من بيننا "الدوكتور" و"الشيخ" و"شي غيفارا" و"التقدمي" و"السياسي" و"المخترع" ؛ مجموعة سليمة ومتوازنة، كنت فيها "الكاتب". والجميع يلقبني هكذا. ومن باب المنطق أن لقبا

كهذا يفترض أن لا يبقى حبرا على ورق، بل ينبغي أن توزّع نصوصي وتقرأ. كان هشام يمتلك حس الأعمال ويشتمّ الفرص المربحة. بدأ بتجميع كلّ أقاصيصي الصّغيرة وصنّفها حسب الموضوع الذي تعالجه، ورتّبها في "مجموعات". ثمّ قام بعملية إشهارية واسعة لزيادة عدد قرّائي، وتوصل إلى جلب اهتمام المعرّبين، وهو أمر كان في خانة غير المعقول. كانت مآثره تسليني وتحفّزني في آن. كنت بفضله أعيش حلما هو حلمي. أثملني النّجاح، فأصبحت رهن إشارته. كان وكيل إشهار ممتاز. ولهذا، فعندما نصحني بأن أخوض تجربة النّصوص الشّبقية، لم أجد مانعا في ذلك. كان الأدب المباح إذاك، يتم تداوله بين الأوساط في الخفاء. وكانت سريته تبث فيه نوعا من الجسارة، مما يجعله محببا وواسع الانتشار والتأثير. تجربتي الأولى كانت ناجحة. طالب على إثرها الأشبال بحلقات أخرى في الحال. كان هشام يطير فرحا. لكنّ للأسف، ككلّ ناشر يحترم نفسه، كان يخفي عني الأهم ويدس في جيبه جملة الأرباح بتكتم مؤثر. أصبح هو "غنيا"، وأنا "مشهورا". بين المجد والثروة يختار الفالح عموما ما هو رنّان وهمي، وعلى نفسها جنت براقش.

اعترف لي عمّار قائلا :

— إنني يائس. طرقت كلّ الأبواب، وجرّبت كلّ الوصفات؟ حتّى أني التمست خدمات شيخ زاوية مرموق ؛ دون جدوى : خطيبتي ترفض أن تسامحني. أشعر بأني سأجن. أنت شاعر، وتعرف بالتّأكيد ما يمثله الحنان بالنّسبة لشخص متهور من شاكلتي. انظر إليّ، لقد هزل جسمي وفقدت طعم كلّ شيء، لا أنام إلا بعين، ولا أجد السّكينة في أي مكان. أعصابي متوترة، ولم يعد أصدقائي يحتملونني.

كان على شفا شهقة من الانفجار باكيا. كان صوته يتحشرج في حنجرته التي كنت أتصورها مجرّحة بتفاحة آدم جموحة، فاركا بيديه إلى حد خبشهما، والزبد يتلألأ على صمغيه ؛ أفزعني مصابه.

لم يكن عمّار صديقي فعلا. كان متطفلا ومشاكسا وعنيدا، ولم يكن مزاجه ليتفق مع حالاتي النّفسية. كان سليل أسرة وجهاء من ذوي النّفوذ في خنشلة، ورث عنها نوعا من العنجهية وتلك الغطرسة النّهمة التي كانت تجعل منه رئيس فريق في الملعب، ورئيس عصابة في مكان آخر. أول مرة رأيت فيها رزمة من الأوراق النّقدية، كانت قد خرجت من جيبه. لم أعرف أبدا سبب تحامله عليّ. هو نفسه كان يجهل السّبب؛ لم تكن سحنتي تروق له، هكذا كانت الأمور بيننا، وما كان لنا إلا القبول. كلّما عيّنت في فريق المدرسة لكرة القدم، كان يتدبّر أمره لكي يطردني. وعندما نتقابل في مباراة، كنت واثقا من تلقي لكزة منه في الركبة قبل نهاية الشّوط الأول. هل كان ذلك عن غيرة؟ عمّار أيضا كان الولد المدلل في نظر أصدقائه الكثر ؛ وكأن بالتّأكيد يمتعض حين يراني دوما أحوم بين رجليه ويعتبر شهرتي النّسبية بمثابة طريقة مغيظة لسلب الأضواء منه.

في ذلك المساء، وبينما كنت أدنّس "تنسّكي" تحت المكان المسقوف من السّاحة، كان هناك، لا يكاد يعرف من شدة تغيّره، بوجه ممتقع عاجز عن احتواء عينيه التّائهتين. هو، الصنديد، الشّاوي الصّعب المراس والترويض مخذولا وتعيسا.

— ماذا تنتظر مني؟

قبضت أصابعه على معصمي وقال متوسلا :

— يدك مربوحة. اكتب لها، اشرح لها، وقل لها كم أنا متمسك بها.

— هل تظن بأن لي حظًا في تعقيلها ؟

— أنت طوق النّجاة الأخير الذي تبقّى لي. أنا متأكد من أنك سوف تجد الكلمات الصّائبة والمؤثرة. اكتب لها رسالة. حلّلها كلّ جوارحك وموهبتك الشّعرية. أتوسّل إليك، أعد إليّ حلوتي.

قبلت، لا لشيء إلا للتّخفيف من انفعاله :

— موافق.

وعدني وهو يكمّش معصمي بين يديه:

— إن أعدتها إليّ، فسوف أكون ممتنّا لك إلى أبد الدّهر.

بعد بضعة أسابيع، جاءني عمّار آخر، مفعم بالحيوية، تُشعّ عيناه وهجا. قفز إلى عنقي مسيّلا لعابه بغزارة على خدّي؛ حسناؤه قد سامحته. أراني الرّسالة المرصعة بنجوم الدّمع، وطبع قبلة على جبيني، وأطرى على فن الإقناع لديّ. كان من السّعادة بحيث أصبح مخبولا. أهداني، كنوع من الاعتراف بالجميل، سندويشا كبيرا بالمرقاز من عند سحنون، وتذكرة في المنصة في ملعب البليدة حيث لقّن فريقي المفضل ASM لوهران علقة كروية ساخنة للفريق المحلّي.

انتشرت قصة "اليد المربوحة" عبر المدرسة. وشيئا فشيئا، أخذ أشبال يطوفون حول طاولتي لاقتناعهم بأن كتابتي قوى تعويذية، البعض منهم من أجل رسائل غرامية موجهة لخليلات وهميات، وآخرون من أجل طلبات سكن أو احتجاجات ؟ حتّى أنّ أحدهم قد طلب مني كتابة رسائل ملتهبة، لكي يوهم في النّهاية بأنه يتلقاها من صديقته ؛ كان ينزل إذاك كي يلحظه الآخرون بشكل أفضل، ويقرأها بابتهاج وحمية تعقد لساني.

أصبحت الكاتب العمومي للقليعة.

رحت بدوري، وقد أذهلني الشّغف العاطفي "لزبائني"، أفكر في أن انتقي لنفسي صبية كي أتغنى بها، ولم لا، كي أبهرها. فمنذ ابنة عمي"ك" لم أربط نياط قلبي بعدها بسعادة الحب. أعترف بأنني لم أكن أحظى بنجاح كبير لدى الأوانس. وبصراحة، لم أحظ به على الإطلاق. أولاً بسبب حلاقات القرعة المتكررة لشعري التي كانت تضفي على نظرتي شيئا من الشّيطانية، وثانياً لأنني لم أكن أمتلك ما يجعلني قادرا على منافسة رفيقي يخلف الذي كانت وسامته وحيويته تبددان بكلّ قساوة مآثري في مجال الإغراء وتحطان بها إلى درك الظّهور الصّامت. عندما كنا نذهب لمغازلة الفتيات في نواحي الثّانوية، لم يكن على يخلف سوى أن يرسم ابتسامة على ثغره لكي يبهر الفتاة التي يريدها، وهو أمر للأسف لم أكن أتقنه البتة، رغم هيئتي المتأثرة ونظارات المثقف الدّائرية التي كُنت أضعها، فيواسيني يخلف قائلا : "لا عليك، أنت وسيم من الدّاخل. يكفي لأي فتاة أن تعرفك بشكل أفضل كي تتعلق بك. رفعة شأنك في ذكائك وثقافتك". استنتجت من ذلك أنه عليّ أن أقنع كي أغري. ذات مساء، بثّت إذاعة القناة الثّالثة النّاطقة بالفرنسية عناوين شباب يرغبون في المراسلة مع فتيان وفتيات من سنهم. دونت على عجل اسم وعنوان فتاة تدعى ليلى، في الثّامنة عشرة من عمرها، تقطن في وهران وتحب الأدب وجان فيرا والموسيقى الكلاسيكية. بعد الرّسالة الثّالثة رفعنا التّكليف فيما بيننا ؛ واعتبارا من الخامسة تتيّم كلّ منا بالآخر. كانت ليلى تعشق أسلوبي وتتمنى أن تقرأ لي عشر مرات في اليوم، وتقول لي بأني أضاهي فيرلين وليس هناك ما أحسده عليه. كنت أرد عليها بأنني كاتب، وبأن رفوف

المكتبات سوف تعج بكتبي في يوم من الأيام. كانت تصرح لي بأنها لا تشك في ذلك لحظة واحدة، وبأنه سيطيب لها أن تضم أحدها إلى صدرها. وعدتُها بأن أهدي لها أولى رواياتي. تأججت مراسلاتنا ؛ كانت تصلني منها ثلاث رسائل في الأسبوع، وكنت أبعث إليها بواحدة كلّ يوم. فاق حبنا العذري كل المعهود. بالنّسبة لي، كانت ليلى تساميا. بالنّسبة لها كنت أمير حكايات الجنيات. كانت تصف لي الانفعال الذي يتملكها عندما تتعرف على خطي فوق الظّرف، وخفقانِ قلبها المتسارع على إيقاع طفراتي الشّعرية، وعذابها اللّذيذ لوجوب الانتظار أربعة وعشرين ساعة، أي ألف وأربعمائة وأربعين دقيقة لا تنتهي وهي تترقب ساعي البريد. وردا على سؤالها حول صنف المرأة التي أتمنى الزّواج منها، أجبتها بقصيدة طويلة خاتمتها كالتّالي :

المرأة التي سوف أحبْ
حياتها كاملة لي ستَهبْ
نظير بعضٍ من حُبيباتِ عنبْ
وتقلعٍ منّ لحمها الأشلاءْ
بها تُداوي الجرح والبلاءْ
أريدها قويةً كسائرِ البشرْ
تغيّر بعزمها تدابير القدرْ
وعلى السّنين الميتة تعيدْ
رسم حدود دربي التّليدْ

طمأنتني ليلى بأنّ هذه المرأة موجودة، وسألتني عما أعزم على منحها في المقابل ؛ أكدت لها بأني كنت قادرا على أن أشيّد لها مقاما فوق السّحاب، وأن أقطف لها نجوم اللّيل.

رأت بأن سخائي مفرط، لكنّها سلّمت بأنّ مثل هذه الالتفاتة تستحق الكثير من الالتزامات.

استمرت الحمى بيننا شهورا، تسكرنا كلّ يوم أكثر من سابقه ولا تبدد ثملنا إطلاقا وحدث ما كان مقدرا : قبلت أن تلتقي بي في وهران، أثناء العطلة الصّيفية وحددت لي موعدا أمام البريد المركزي، على السّاعة الواحدة زوالا، ذات يوم اثنين من شهر جويلية (تموز).

في ذلك الاثنين من شهر جويلية، على السّاعة العاشرة كنت في وهران. ارتديت أجمل قمصاني وأقل سراويلي اهتراءً وحزامي الجلدي، وأفرغت قارورة من العطر على جسدي ولم أكف عن إلقاء نظرات فاحصة على هندامي أمام واجهات المحلات. في منتصف النّهار، جلست في مقهى مقابل البريد المركزي، وانتظرت. على السّاعة الواحدة بالضّبط، وقفت آنسة شابة حميرة، ممتلئة قليلا، وملفوفة بشكل رائع داخل طقم في غاية الأناقة، وقفت تنتظر في المكان المحدد. لم نتبادل الصّور ؟ هي من باب الحياء، وأنا من باب الحيطة؟ لكنّي عرفتها.

قلت لها :

— صباح الخير.

جفلت وكان من الواضح أنّ وقاحتي قد أزعجتها.

— لا تؤاخذني، أنا أنتظر شخصا...

— أنا من تنتظرين. أنا محمد، من القليعة.

أطبقت على رأسها السّماوات.

— ماذا ؟

تفرستني بالطّول والعرض ووجهها منكمش حول تكشيرة حانقة.

روّعتني خيبتها.

مكثت، وقد أخذني الأمر على حين غرة، مسمرا في مكاني كالفزّاعة، عاجزا عن إدراك ما يحدث لي.

نفثت تذمرا وهي تستدير حول نفسها قائلة :

أي أمر هذا!

لم أحاول اللّحاق بها.

لم يكن هناك من داعٍ لذلك.

في رسالة أخيرة ذات اقتضاب فطامي، اعتذرت عن تصرفها واعترفت لي بأنها قد صُدمت بشكلي المبتذل الذي يتعارض بشكل صارخ مع جمال نصوصي ؛ وبأنها عندما كانت تقرأ لي، كانت تتخيلني وسيما كالواو، وطويلا كالألف، الخ، الخ.

تأسّفتُ من أجلها ، وتأسفت من أجل عطلتي. ظننت أنني بفضلها ، سوف أحصل على قصة لأحكيها لزملائي بعد العودة من الإجازة. كنت قد ادخرت بعض النّقود لأبتاع لها عصير البرتقال على رصيف أحد المقاهي ؛ تخيلتها وهي تمنحني ذراعها ضاحكة، تلهج نشوة أمام القصائد التي نظمتها من أجلها... هوب! خبا الحلم قبل أن يبرعم.

يا لها من خسارة!

رجعت إلى فالمي وأنا شبه مخدر.

جافتني القرية ؛ أنهكتني طرقاتها الخانقة، وانشقت أرصفتها في طريقي، وتجاهلتني واجهاتها؛ كان الضّياع على مرمى البصر. من المستحيل خلق عالمي. كنت أحاول التّعايش مع ظلي الملتصق ببشرتي كالهاجس. لم أكن أملك شيئا. لم أكن شيئا. وفالمي تشيح بوجهها عني كما لو لم أكن موجوداً. أقضي النّهار أترقب الطّراوة المفترضة للمساء ؛ وفي اللّيل، أرقًا ومُحبطا أترصد الفجر ؛ فجر المنحوسين الخائب.

لم يكن لي ولعائلتي من رفيق سوى مذياع مسلول يتحشرج دون توقف في الصّالون ؛ بدونه كنا نخال أنفسنا في مأتم. كان يعوزنا كلّ شيء. والمنحة العائلية كانت زهيدة، فصنفنا أصحاب الدكاكين ضمن المتلكئين في الدّفع. كانت أمي ترتجل أكلات ما أنزل اللّه بها من سلطان لمجرد وضع شيء فوق النّار. مع الوقت فقدت أطباقها الوضيعة تسلسل أفكارها. وما كان للخيال الأكثر خصوبة إلا أن يعلن عن عجزه أمام النّملية الفارغة. كنا نكتفي بالشّاي في الصّباح والشاي في الظّهر والشاي في العشاء.

كانت أمي تتوسل إليّ لكي أذهب إلى أبي وأحيطه علما بالفاقة التي كنا نتردى فيها بلا رحمة.

كنت أرفض.

رفضا قاطعا.

أولاً، لأنّ العالم الأصغر الذي يرفل فيه برغد العيش كان على طرف نقيض من حظيرتنا؛ وكان الرّفاه والهناء الذي ينعم به مع أسرته الجديدة يثير سخطي ويحزّ في نفسي في آن. وثانيًا، لأنّ لقاءاتنا تنتهي دوما نهاية سيئة؛ حتّى أنني كنت أخرج منها أكثر تألما منه.

كانت الكلمات التي أكرّرها وأعيدها في الحافلة تتلاشى بمجرد أن يرفع نظراته نحوي. إذ لم يكن لدينا، بخلاف توبيخاته المحفوفة بالمخاطر، ما نقوله لبعضنا. كان يتفطن لحرجي ويؤججه بصمته القاتل. كنت أبدو سخيفا، وأندم أمرّ النّدم على قدومي. ذات ليلة، عندما وصل بي اليأس ذروته، استجمعت شجاعتي لأذكره بأنّ رتل الأولاد الذين يتحرقون شوقا لرؤية طيفه هم عائلته أيضًا. صرخ في وجهي : "إنّهم ليسوا أولادي". لو أنّ الأرض انشقت في ذلك المساء، لما

ترددت لحظة في جعلها تبتلعني. منذ ذلك الوقت، أقسمت بأن لا أحمل رجلاً على أن يكلمني بتلك اللّهجة، ولا أبا على أن يهرق أمامي مثل تلك الفظاعات. كنت أرفض فكرة أن يكون من أنجبني وحش. وهو السّبب الذي جعلني أتجنبه، آملا بذلك أن أجنّبه إنكارات تماثل قساوتها بلاهتها.

ولكي أحتمل العيش مع العار الذي كان إنكاره يسببه لي، بذلت قصارى حيلتي لكي آخذ الأمور بحكمة. أي أمر مهما كان ليس سوى مسألة تواطؤ. تعلم البشر الرّكون إلى ما يناسبهم. الحقيقة والبهتان والضغينة والصفح تنبثق عن نزعة ظرفية أكثر منها عن قناعة ؛ يسمى هذا اتفاقاً، وأحيانا تبريرا وغالبا ذريعة. الضّعيف يصفح عمّن لا يقدر على معاقبته. والمستبد يعدم بدل أن يعفو؛ فهو أمر تتوقف عليه ديمومته. وبالاستنزاف تنحت الرّجاحة بفعل التّعنّت. حتّى الاستسلام يعتبر تحزبا. ويتفنن كلّ واحد في تثمين دوافعه بشكل أو بآخر. ما يهم هو أن يكون المرء في وئام مع نفسه حين يعوزه الوئام مع أقرانه. وبغرض الحفاظ على هذا التّوازن بالذّات اخترعت الكلمات المفخمة والقيم وآداب السّلوك. في حياتي، لم ألتقِ العظمة الحقيقية، إلا فيما هو خطير. للعظمة بالنّسبة لي رنين مأساوي، وإلا فهي مغلوطة. إذ إنّ كلّ شيء مأساة أو نفاق. يرتكز العالم على الأولى ويستمد بقاءه من الثّاني. الحب مأساة عندما لا يكون مشاطرا، ونفاق عندما يزعم منح كلّ ذاته. الغطرسة نفاق عندما لا تكون سوى واجهة، ومأساة عندما لا نعبأ بها ؛ مهما تبختر الدّيك على أطراف صيصتيه وهدل من عرفه على منقاره بعنجهية، فسيظل يحسد الغراب كلما خفق هذا الأخير بجناحيه محلقا. الحقد مأساة عندما يصبح مشروعا، ونفاق عندما يلقي على الغير النزر

اليسير من التّقدير الذي يكنه المرء لنفسه. من بين الأمرّين، نختار أحلاهما. وقد اخترت النّفاق، ومن كلّ أنماط النّفاق ذلك الذي يبدو لي الأقل بشاعة : أن أنظر إلى وجهي في المرآة دون أن أحمر خجلا. المرآة محابية لو تجاسرنا على الاستجابة لدعاباتها. حكايتي مع أبي هي حكاية مرآة. دون قصدير. بما أنه ينبغي ضمان خلفية للحكاية. كنت أنظر إلى نفسي فيه. كان يتفرس فيّ من وراء صورتي المنعكسة. أحدنا لم يكن نزيها، ورفضت أن أشير إليه بالبنان.

لا زلت إلى هذا اليوم، أذهب لزيارته كلّ جمعة، رغم الإهانات والدناءات. وهو ينتظرني كلّ يوم جمعة، وحيدا يبتزه الكبر، وعيناه مسمرتان على السّاعة الجدارية كطفل مبهور بحوض أسماك. وحين يتعرّف على وقع خطواتي في الفناء، يتعرف عليها من بين ألف، يبعث من جديد.

لم أنس شيئا ؛ بل صفحت عن كلّ شيء. لم أر في أي وقت من الأوقات من داع لتذكيره بالآلام التي سببها لنا أعتقد أني لم أنجح مطلقا في أن أؤاخذه حقا. هكذا أفضل، وما أروع ذلك. فهو مصدر سعادتي وفخري. لكي نعيش سعداء، ينبغي أن نعيش دون ضغينة.

12.

استقبلنا خبران على عتبة السنة الثالثة ثانوي. المفرح : قبلت المدرسة أخيراً إعطاء منحة جامعية لكلّ خريج يحصل على شهادة الباكالوريا بملاحظة لا تقل عن... جيد جدًا.

الأقل تحفيزاً: إلغاء الآداب المفرنسة ؛ بحيث تمّ تعريب فرعنا، من الرياضيات إلى الفلسفة ؛ وهبط معامل اللّغة الفرنسية الذي كنت أعتمد عليه لرفع معدلي العام إلى الحضيض. لم يكن التعريب المفرط والمباغت في المدرسة الوطنية لأشبال الثورة بالقليعة يطرح مشكلاً كبيراً. إذ كان الأشبال مزدوجي اللّغة، ويتمتعون بقدرة خارقة على التأقلم ؛ ولم يكونوا يلقبون بأصحاب 100% من باب الإطراء أو السّخرية، إشارة إلى معدل نجاحنا في امتحانات الباكالوريا (عندما أفكر في ذلك الآن، أتعجب من الطريقة التي همّشوا بها، وحرموا من الامتيازات واضطروا إلى التخلي بالتدريج عن تبني مهنة ضباط كانت لها كلّ الحظوظ لتكون متميّزة... لكن كما قال إبراهيم لوب، جميل أن يكون للمرء أجمل بلد في العالم؟ على أن يكون جديراً به فعلاً ؛ غير أنّنا إذا ما اكفهرّت وجوهنا، فذلك بسبب الوقت القصير الذي مُنح لنا لكي نتكيف مع المصطلحية، والنّظرية، والمدونات في اللّغة العربية. لم يكن أمامنا سوى تسعة أشهر قبل الامتحانات، ولم يكن ذلك بالأمر الهيّن ؛ ورأى العديد منّا تضاؤل حظوظهم في متابعة دراستهم بشكل خطير وأنّه لا مناص من دخول الأكاديمية العسكرية. كنت واحداً منهم. أذعنت الأغلبية ؛ وتمرّدت أقلية على هذا الإجراء ؛ أقسم مجاوي الملقب بنونو اللقلق، بأنّه إن لم يتحصل على المعدل المطلوب فسيترك الجيش ويسجل نفسه في كلّية الحقوق ليصبح قاضيًا في الحياة المدنية.

مرت السنة بسرعة البرق. انقسمنا إلى أفواج صغيرة لمراجعة دروسنا التي كانت تستمر إلى ساعة متأخرة من اللّيل ؛ غالبًا ما كنّا نرقد في القسم بأعين منتفخة ورأس

يدوي. فرضنا على أنفسنا إيقاعًا جهنميًا ونظامًا صارمًا، فقد كان جميعنا يريد الذّهاب إلى الجامعة. كنت أحلم بدراسة الأدب وعلم الاجتماع، لذا بذلت قصارى جهدي لتدارك مستواي في اللّغة العربية، لكن علاماتي المتأرجحة كانت تنكّد عليّ. كنت خائفًا من تفويت الفرصة، ويدأ الهلع يتملكني بشراسة على مرّ الفصول. فتقدمت وقد أنهكتني الجهود المضنية إلى ثانوية البليدة لمجابهة الامتحانات. كانت الأسئلة في المتناول؛ أعوزني التركيز، وكدت أن أنال علامة مقصية في الرياضيات حيث أعطوني مسألة عويصة لحلّها. في نهاية الامتحانات، كنت متأكّداً من نيل الباكالوريا. ولم أكن أمنّي نفسي بالحصول على الملاحظة المطلوبة ؛ لن أذهب إلى الجامعة.

في القطار الذي كان يقلنا إلى وهران في عطلة نهاية السنة، لم يظهر الأشبال قلقًا ولا فرحًا. كانوا يتابعون ترامي المناظر أمام أعينهم بنظرات غائبة. كان سوريسو يتحدّث عن الكورنيش، وعن الشطآن التي سيتخبط في مياهها مع إخوته وأبناء إخوته وأبناء عمومه. ويحياوي الذي بدأ ترهله يأخذ أبعاداً مقلقة، يقسم بأنّه سيكرّس نفسه للرّياضة كي يفقد أكبر قدر ممكن من الكيلوغرامات. وكان قريش العين الزّرقاء/زيو بلو/متردّداً بين الإقامة في الرّيف أو السّفر إلى خنشلة حيث دعاه عمار. أمّا يخلف فقد كان يفكر في صديقته التي كانت تنتظره في باليكاو. للمرّة الأولى بقي ماكثًا بهدوء في آخر المقصورة، وهو الذي كان عادة يذرع المقطورات بحثًا عن فتيات لإغوائهنّ.

انغمس في ركنه، لاصقًا جبهته بزجاج النافذة يتأمّل السهول الشقراء التي تفرد محاصيلها إلى غاية سفح الأفق. منذ مدّة، وفكرة الزواج تراود ذهنه. كان متلهفًا إلى تكوين

أسرة ؛ سنواته العشرون من اليتم تنوء بثقلها على عزوبيته ؛ كان يريد أن يبني حياة جديدة، ويعيد تشكيل الحبّ الذي يفتقده، وأن يكون له بيت ينعم فيه برغد العيش. ثمّ سأل أحدهم بغتةً إذا ما كنّا قد حجزنا ذهابًا فقط أم أنّنا ننوي العودة إلى الأكاديمية. أعلن مجاوي بأنّه قد شطّب لتوه بإشارة لا تمحى على المهنة العسكرية وقال :

— انتهت حياة المشقة. لم يعد يعني لي شيئًا التبختر في النهار بشرائط رتب مذهبة، وتمضية ليالي وأنا أنتظر مجيء عدو ليجعل منّي بطلاً، مثل زنغرا الذي يتحدّث عنه جاك بريل. ليس هذا كلّ ما في الحياة. أريد أن أتنزه وأن أرى بلدانًا، وأن أغيّر من الديكور ومن الصحبة. طبعًا، سيبقى الأشبال أصدقائي إلى الأبد، لكن لا يضير أن يُكوّن المرء أصدقاء آخرين.

وافقه جاره الذي كانت تغويه أيضًا الحياة المدنية :

— صحيح، ليس عيبًا أن نستقيل. لم نعد بحاجة إلى وصي. قد كبرنا بما فيه الكفاية لكي نتدبّر أمورنا. أفكر جدّيًا في الطب، سيساعدني عمّي على فتح عيادة، وأصبح سيد نفسي ولن يوجد من يحاسبني سوى مرضاي.

سألت يخلف :

— وأنت؟

— أنا كنت شبلاً مذ تعلّمت الوقوف على ساقي. أمّا المجتمع، فقد تكوّن بدوني، ليس لي فيه أي معلم. حتى أنّه يخيّل إليّ أثناء الإجازات بأنّي أعيش في عالم مواز. إنّي واثق بأنّي سأضيع فيه. إذن سأواصل مشواري جندياً. على كلّ حال، رتبة ضابط تعتبر درجة ملائمة، ومهنة كباقي المهن، ما عدا أنّي متعوّد عليها.

— ألا تنوي متابعة دراستك؟

— أعتقد أنّي قد هرّبت قفاي على المقاعد بما فيه الكفاية. أعرف الكتابة والقراءة، وهذا يكفيني. وأنا متلهف لإظهار ما أنا قادر عليه، وأن أخوض غمار الحياة.

زايد يحياوي قائلاً :

— موافق معك على طول الخط. حان الوقت لكي نكسب رزقنا ونساعد عائلاتنا على كفاية الحال. الدخول إلى الجامعة أو الأكاديمية متعلّق بالإمكانيات التي نتوفر عليها. بالنسبة لي، ليس لي خيار. سأصبح ضابطًا، ثمّ أرى بعد ذلك.

— بعد فوات الأوان.

— لا يفوت الأوان أبداً. على كلّ حال، ليس مخجلاً أن يكون المرء عسكريًا. إنّه أمر ليس في متناول كلّ الجيوب.

— التفت غالمي نحوي :

— ماذا قررت؟

— فلننتظر أوّلاً نتائج الامتحانات.

— كفّ عن هذا، سوف تنجح في الباكالوريا. لنفرض أنّك لم تحصل على الملاحظة المرجوة، ما الذي ستفعله؟

— لست أدري.

— لا تدري ماذا تريد أن تصبح؟ ترددك يدهشني. مع أنّ الآفاق واضحة : إمّا أن تختار أن تكون كاتبًا، وفي هذه الحالة تعيد بدلة التدريب العسكرية والمتاع الذي يأتي معها ؛ أو تحتفظ بالبدلة العسكرية، وتنسى ريشتك ومحبرتك إلى الأبد.

— بتّ لا أفهم شيئًا. أنا عاجز عن الرؤية، اختلطت عليّ الأمور. أبي...

— إنّها حياتك أنت. ما يريده أبوك لا يهمّ. أين كان في الوقت الذي كنت فيه تتخبّط في المدرسة الوطنية لأشبال الثورة؟ لقد تجاوزت المحنة بقوّة عزيمتك. واليوم، أنت فقط من يقرر مستقبلك. أمّا أنا، فقد اخترت سبيلي. سوف ألتحق بسليمان بن عيسى في الجزائر. أرغب في تحقيق حلم قديم : أن ألتقي بكاتب ياسين، وأن أتخذ لي مكانًا بين الفنّانين. إنّه العالم الوحيد الذي يستهويني. هل تتصوّرني أطيل في مدّة سجني خمس عشرة سنة أخرى؟ لقد سئمت من الأسوار العالية والجزمات الملمعة والخطى المنتظمة. أودّ أن أكون سيد نفسي. إن كنت حقًا موهوبًا، فسأنتهز فرصتي، وإن كنت مجرّد فراشة أرفية بهرتها أضواء المسرح، فلا عليه، سأكون حينئذ على الأقل قد رفرفت حول حلمي. الحياة مراهنة. الجيش لا يسمح لك إلاّ بتجربة واحدة. تعمر أو تخسر. أمّا في الحياة المدنية، فلديك الفرصة في أن تعدّل النصاب، وأن تطرق على أبواب أخرى ؛ سيكون لك على الأقل عزاء أن تتصالح مع تأجيل التجنيد، الإعفاء من الجندية. ثمّ، أقولها لك صراحة، مكانك ليس في الثّكنة. ولا يمكن أن تتوافق المؤسسة العسكرية إطلاقًا مع موهبة الكتابة.

— سانت إيكزوبيري كان جنديًا.

— مات جندياً. لم يمتهن العسكرية. كان وطنه في خطر، فهب لنجدته. لم يكن يطمح لأن يصبح جنرالاً.

ذكّره يحياوي :

— في السنة الماضية، الأشبال الذين اختاروا الحياة المدنية قد اعتبروا هاربين من الجندية ومثلوا أمام المحكمة العسكرية.

— هذا هراء، كذب، إنّهم يحاولون تخويفنا لإبقائنا في الصّفوف. أنا شخصيًا لا أبالي. لن أكتفي بعدم تسديد درهم واحد للمدرسة الوطنية لأشبال الثورة، بل سأرفض الامتثال أمام المحكمة. لقد مات أبي من أجل أن يستردّ وطنه وأولاده حريتهم. لم أعرف أبي. ولست حتّى متأكّداً من أنّ الهيئة التي تتردّد في ذاكرتي هي هيئته أم أنّها ثمرة تخيلاتي. هناك أمر واحد أكيد : لقد مات لكي يضمن لي حياة أقل إهانة من حياته، ولكي أتمتع بمكانة أخرى غير مكانة ماسح الأحذية أو السائس. أنا الآن رجل متعلّم، وشاب متسلح لمجابهة الغد. بهذه الطريقة يمكن لوطني أن يعوّض تضحيات شهدائه. ليس لأنّي كنت شبلاً ينبغي بالضرورة أن يفرض عليّ أن أتخذ مهنة عبوات المدافع البشرية. يجب على مؤسستي بالتبني أن تعترف لي بحق طلب الاستئذان دون مشاكل أو محاكمات. وأن أذهب في حال سبيلي مرفوع الرأس إلى أن تأخذني المنية. لست ناكرَ جميل. أعترف أنّ الجيش قد أنشأني ومنحني تربية متينة. لم تكن حياة بذخ وترف، لكنني أذكر بأنّني عندما كنت أعود إلى بيتي في العطل، يغار منّي الكثيرون في الحيّ. فلقد كنت من بين كلّ أولاد الجيران، ذلك الذي يبدو أقلّ حزنًا، ويلبس ثيابًا أقلّ رثاثة ويرفل بالصحة أكثر. لقد قامت المدرسة الوطنية لأشبال الثورة باحتجازها لنا، بوضعنا في منأى عن الفقر وأبعدتنا عن آلاف الأيتام الذين لا رقيب لهم. كلّ هذا، أقرّ به. غير أنّي اليوم قد أصبحت راشداً، وقادراً على تحمل مسؤولياتي : أريد أن أكون حراً، أن أكوّن نفسي.

— أبي لا يزال حيًا، يا عبد الحفيظ. ويريدني أن أصبح ضابطًا مثله. هنا يكمن كلّ الفرق.

— لماذا لا تحاول أن تتذكر ما كان سليمان بن عيسى يقوله لك، بأنّ مكانك ليس في نادي الضباط، ولكن حيث لا تضفي أي عمرة ظلاً على ذهنك؟ لم أنس ذلك اليوم الذي عاد فيه بعد التسريح إلى القليعة خصيصًا من أجلك، كي يطلب منك أن تثب إلى المقعد الخلفي لسيارته وتهرب بأسرع ما يمكن بعيداً عن المواقع العسكرية. لم يكن السيّد بن عيسى غريراً. إنّه أحد أكبر كتاب المسرح في القارة. أنا لا أحاول أن أضغط عليك يا موح. كلمة الفصل تعود إليك. أحاول فقط أن أُفيقك إلى نفسك. لأنّ الجيش سواء عندنا أو عند الآخرين هو مقبرة للفنون والآداب. لا يستطيع المرء أن يكتب وسيف الحجاج يهدد عنقه.

قال يخلف :

— لماذا تريده أن يترك ما يمسك بكلتا يديه ليجري وراء وهم؟ لم ينشر شيئًا لحد الساعة، ولا شيء يثبت بأنّه سيكون روائيًا غداً. في اعتقادي، لا ينبغي أن نمنّيه بالأوهام. لمحمد حلم، لكنّه لا يعدو كونه حلمًا. بالإضافة إلى ذلك، فإنّ مهنة الكاتب لا تعيل صاحبها.

حضر أبي إلى فالمي لرؤيتي. كان يطير فرحًا ويلوح بجريدة في يده.

— كنت أعرف بأنّي أستطيع أن أتكل عليك.

أعلن لأمّي التي كانت تنهي غسيلها في الحوش :

— جبناها. ابننا الأكبر نجح في الباكالوريا. اسمه في قائمة الفائزين. خذي، انظري، الاسم الذي تحته خط.

مسحت أمّي يديها بمئزرها ومالت نحو الجريدة. نسي الاثنان في عجلتهما بأنّها لم تكن تعرف القراءة.

— أين هو؟

— هنا، تحت ظفري بالضبط. قلبت أمّي رأسها بزغردة مجلجلة. واتسعت عيناها فخراً. دفعت بابي وارتمت عليّ تعانقني. انتظر أبي حتى يُفسح له المجال لكي يعانقني بدوره ؛ حين رأى بأنّها نسيت نفسها وهي تجهش بالبكاء في شعري، قبضها من كوعها وانتزعها من معانقتي. التفت ذراعه حولي بقوّة ؛ وكاد أن يخنقني وهو يضمّني إليه.

— أنا فخور بك يا ولدي، بارك اللّه فيك. كنت واثقًا من أنّك لن تخذلني. إنّه أجمل يوم في حياتي. أنت أوّل واحد من آل مولسهول يحصل على الباكالوريا، وأنا ممتن لك للشرف الذي أسبغته عليّ بذلك. عندما أراني كاتبي الجريدة، بقيت فترة قبل أن أدرك ما كنت أقرأه. ابني حامل لشهادة الباكالوريا. اطلب منّي ما تريد وسأقدّمه لك فوق طبق في غمضة عين. يا للسعادة. إنّي لا أصدّق.

لم يلحظ شحوبي إلاّ بعد أن استنفد أنفاسه.

— تبدو كمن سيُغمى عليه. أهو الانفعال؟

— أعتقد أنّي متوعّك.

— أكّدت أمّي قائلة :

— إنّه على هذه الحال منذ أن وصل.

أركبني والدي في سيارته وأخذني إلى ثكنته لمراجعة الطّبيب. شخّص هذا الأخير نقصًا طفيفًا للسكر في الدّم مردّه حالة إرهاق، ووصف لي علاجًا. طيلة أسابيع، كان والدي يمرّ كلّ يوم أوّلاً إلى فالمي قبل أن يذهب إلى شوبو. أحيانًا، كان من شدّة فرحه يتنازل ويبقى معنا لتناول العشاء، ويُدخل بذلك بهجة كبرى في قلب أمّي وإخوتي وأخواتي.

في غضون إحدى السهرات، أطلعته على مشاريعي الأدبية. فصاح قائلاً :

— لا بأس، جيشنا فتي وبحاجة إلى عبقرية ضباطه. موهبتك كروائي سوف ترفعك إلى أعلى المراتب، صدقني.

— الجيش لا يتلاءم مع موهبة الكتابة، يا حضرات.

— قطّب حاجبيه:

— يعني؟

— الكاتب يحتاج إلى فضاء لكي تتفتق قريحته.

— أتظنّ أنّ مؤسستنا لا تحوي على الفضاء الكافي؟

— إنّهما عالمان على طرفي نقيض.

— من قال لك هذا الهراء؟

— خانتني الشّجاعة والقوّة للتعمق في هذا الموضوع.

غادرنا أبي في الحال متعكّر المزاج. وعاد في اليوم التالي محمّلاً براقنة قديمة.

اضرب عليها يا بني إلى أن تدخل أصابعك في معصمك. إنّها راقنة والد شريفة؛ كان رجلاً طيّبًا ومثقفًا.

وأمام تردّدي، أضاف قائلاً :

لقد تحدّثت مع صديقي عبد القادر، قائد الدّرك. إنّه مثقف من النخب الأوّل. قرأ مئات الكتب. وأكّد لي بأنّ الموهبة الأدبية لا تتعارض مع وظيفة الضابط. جيشنا يعجّ بالمهندسين والباحثين والفنّانين. ووجود شاعر بين صفوفه هو امتياز سوف تعرف قيادة الأركان كيف تثمنه. ونصحني بأن أوجهك إلى المحافظة السياسية. سوف أسعى شخصيًا لكي تُمنح كلّ الاعتبار. لدي علاقات متينة في الدوائر العليا، سوف يرسلونك في بعثات تربصية للخارج، قد يحوّلونك إلى إحدى السفارات كملحق ثقافي. مستقبلك يبشر بأن يكون باهراً، أضمن لك ذلك. سيكون بإمكانك أن تكتب وتجوب أنحاء العالم، وتقابل شخصيات بارزة ودبلوماسيين

وتربط معهم علاقات. أراك من الآن عقيداً، أو حتى وزيراً للدّفاع، ولم لا؟ من قال لك العكس يغار من حظك.

لم أقدر في حياتي على مجابهة نظراته. كنت أنتظر وذقني منغمس في رقبتي أن يصمت كي أنبس بكلمة؛ لكن انفعاله ثناني عن عزمي. خشيت أن أعارضه؛ كان في منتهى الفرح والفخر، ويصعب تقدير ردود فعله. كانت يده تعرك كتفي، بينما كانت الأخرى تحاول رفع رأسي. أحسست برعشاته ترجّ على طول ذراعي، وتتفشى عبر بطني حيث رسب فيه توعك لا يوصف ثقله. كانت أمّي تراقبنا من المطبخ؛ كان وجهها القلق ينقبض وينفرد تبعًا لوعود أبي وحسب مراوغاتي. كانت تخشى أن تُفسد خيبة كبيرة البهجة المرهونة التي كانت تمنحنا إيّاها زيارات أبي المؤخرة، والتي أخذت أخواتي تترقبها كلّ صباح؛ كانت تخمّن بأنّه إذا لم تلبّ طلباته فلن يعود إلى فالمي بعد ذلك أبداً.

ألّح عليّ قائلاً:

— ماذا إذن؟

— لست أدري.

— حسنًا، أنا أعرف: المستقبل بين يديك. سوف تصبح ضابطًا كبيراً، يا ولدي. سيشع اسمك على حياتك المهنية.

فجأة اكفهر وجهه واضطرب تنفسه. ثمّ رجع بخطوة إلى الوراء، وأمرني أن أنظر إلى عينيه:

— ماذا تعني هذه التكشيرة على شفتيك؟ هل أفهم أنّك ترفض الإنصات؟

مسح بإبهامه طرفي فمه ونزع نظاراته.

— أنت تحاول أن تغيظني أم ماذا؟

— كلا.

— بلى، هذا بالضبط ما تريده. تحاول أن تؤلمني. تظُنّ بأنّني أمنحك أخيراً فرصة لكي تدفعني ثمن هجركم من أجل امرأة أخرى، أليس كذلك؟ تريد أن تنتقم. الآن وقد أضحت سعادتي بين يديك، يسرّك أن تحطمها شر تحطيم. يا إلهي، أي وحش رزقتني به...

امتدّ إصبعه نحوي، متصلبًا كالحسام.

— أمّك هي التي حرضتك عليّ. هي التي تقلّب المواجع...

— هذا ليس صحيحًا.

— إنّها الحقيقة.

— لا توجد أي صلة بذلك.

— قل غير هذا. أنت تحاول إهانتي... لم أهجركم. أمّكم الشكسة هي التي أنفدت صبري. كانت غيورة وبليدة وعنيدة. هي التي هدمت بيتها. يا صغيري، لا تستطيع تقدير الأذى الذي كانت تسببه لي. إن أنا رحلت، فلأنّها لم تبذل أيّ جهد للاحتفاظ بي.

تركت أمّي غسيل أوانيها وهرعت إلى الغرفة لتبكي. كان أبي في حالة هيجان شديد ؛ والزّبد يتفجّر من صمغي شفتيه، والتهبت عيناه اللّتان احمرتا فجأة في وجهه الممتقع.

— دعني أقول لك شيئًا يا محمد. ارتكبت حماقة في حياتي، لكنّي لا أظنّ أنّني أستحق أن يعفّرني ابني الأكبر بالتراب ؛ لن أقوى على تحمّل هذه الإهانة. إن كنت تعتقد بأنّي لست سوى نذل حقير، فلك أن تدوسني برجليك؛ لكن تذكر بأنّي لن أغفر لكم أبداً، أبداً. أنت الآن صاحب القرار. غداً تنتهي إجازتك. إمّا أن تلتحق بالأكاديمية، وإمّا أن أنكرك. تمامًا. سوف تكف عن الوجود بالنسبة لي.

وسيكون ذلك أسوأ تجريح ممكن لأعدائي أن يتمنوه لي وسأتحمّل عواقبه إلى النهاية. الحياة كانت قاسية معي ؛ ولن يشكل ذلك إلاّ معاناة أخرى في سجل مآثري كشخص حلّت عليه اللّعنة...

دار حول كعبيه، وقد عقد الألم حنجرته، وهرع إلى سيارته.

بقيت متصنمًا في الحوش.

تمهلت أمّي قليلاً قبل أن تلتحق بي. كانت الدموع تنهمر على خدّيها. أمسكت بيديّ وضمّتهما إلى صدرها. أفشلني صوتها الرتيب :

— أبوك على حق يا بنيّ. لا يجب أن تخذله. إنّه يحبّك كثيراً.

لم أجد ما أقول.

لثمت بحنان معصمي وأضافت:

— يجب أن تثق بسيدة مكناس، يا ولدي. إنّه مكتوب أنّك ستصبح شخصية، ضابطًا كبيراً. لم أحتمل حياتي إلاّ لأرى نجوم الأثير ترصع كتفيك، يا نعمتي السماوية. أتوسل إليك أن تنصت إليّ. أنا أمّك، وأحسّ بما تحسّ وأعرف ما تجهله. سعادتنا في متناول يديك ؛ ابسط ذراعك وسوف تسبر أغوارها. لا تُدر لها ظهرك، سر إلى الأمام بما أنّ بركتي مضمونة لك. لا تخش شيئًا. إن أصابك مكروه، فسأقتلع عيني من محجرهما... لا تسمح لأولئك الذين تهللوا بشقائنا بأن يستمروا في الشّماتة والسّخرية منّا. لا تتخاذل الآن وقد أصبح النبع الذي كنت تبحث عنه منذ صغرك هنا، تحت قدميك.

— أمّي...

وضعت يدها على فمّي. اغرورقت عيناها بالدّموع ؛ ونمّل صوتها الناحب أطرافي.

— إذا رغبت حقًا في أن تثبت لي بأنّ معاناتي السابقة ليست سوى أضغاث أحلام بعيدة، وأنّ تضحياتي لم تذهب هباءً، فسر قدمًا. كن شجاعًا وواثقًا. أنت حظّي، يا ولدي. حظّي الوحيد والفريد. لا تتركني. إن كنت تحبّني ولي في نفسك اعتبار لا تتخلّ عن آمالنا، فذلك سيقضي عليّ.

لم تغمض لي عين. كنت أختنق فوق سريري. أعانق وسادتي كغريق يتشبث بحطام سفينته. كنت أحسّ بأنّي أذوب في الظلام الدامس لغرفتي. كان هوازي يتكلم في نومه ويلعن أغوال كابوسه. ما انفكت هذياناته التي تسبب بها حادث الحافلة الذي تلقى خلاله نفثة من اللّهب على وجهه، تدخل الرعب في نفسي. جلست والعرق يتصبب منّي، ورأسي معصب بملزمة حامية. كان رأسي وبطني يؤلماني. تخيّلت نفسي أحمل ريشة في يد، وفي الأخرى بندقية ؛ لم أكن أتصوّر كيف يمكن لي أن أخفف من وقع أيّ سقوط كان ويداي تقبضان على موهبتين متعاديتين. حاولت أن أحرر يداً ؛ كان ذلك كما لو أنّي بترتها. هل كانت لديّ فعلاً مهارة التأليف بينهما، والقدرة على تفضيل إحداهما على حساب الأخرى؟ ظللت طوال حياتي أركض وراء جزرة معلقة وسط غمامتي، ليس من أجل قطفها يومًا، لكن تفاديًا لأن أُلكز على قفاي كلّ مرّة أتوقف فيها. لقد جئت إلى هذا العالم لأكابده، لا أذكر أنّي حاولت أن أروضه. كنت مقتنعًا لفترة طويلة بأنّ لعنة قد وقع اختيارها على سوء طالعي. ولكي أقنع نفسي بذلك، كنت أنبش في ماضيّ بحثًا عن دليل مفترض بأنّي كنت مخطئًا ؛ لم أعثر على شيء من هذا

القبيل. كنت أجرجر صليبي وسط صروف الدهر التي تنازلت لمرافقتي : في الثانية من عمري، كنت أشتاق إلى أبي الذي ذهب سريعًا إلى الحرب ؛ غيابه قصم أطرافي. ما إن يَمرّ رجل في الطريق إلاّ وهرعت إلى وقع خطاه متأكّداً من أنّه هو. عندما كان يحضر زوار إلى بيتنا، كنت أبحث عنه بين الضّيوف، ثمّ أنهار على حجر في الحوش وأثبت نظراتي على الأبواب لساعات طويلة. أخبرتني أمّي "كنت تذوي في طرف عين، كان حزنك يذيبك كما يذيب قرّاط شمعته"... في السادسة من عمري وجدته ثانية فيِ ثكنة مغربية على عكازتين يتماثل للشفاء، إثر رصاصة في ركبته ؛ ولم يلبث أن رماني في سيارته، بعد أن حسبت بأنّه عاد إلي أخيراً، ليسلمني إلى مدرسة أصبحت أمّي وقبيلتي ومنفاي ومصيري. عند ملتقى الطرق، أضعت سبيلي. نظرت يمينًا ويساراً، وكان العبء الذي أحمله هو الذي يدفعني إلى الأمام. أدركت عجزي عن اختيار طريقي، وعن الوثوق بحدسي ؛ كنت آلة تُسيّر عن بعد، دابة مدربة ؛ كنت الوضعية البشرية مجتمعة في شخص واحد يتمّ التعرف عليها من خلال رقم تسجيل على الهيكل التنظيمي مختوم بإحكام كالقدر. لم يعلمني أحد يومًا أن أكون نفسي. كانت صفتي كشبل تطغى على كوني فرداً، وتلغيها، بخلاف المعسكر والمطعم والمرقد والتجمع ؛ بخلاف المناداة والفصيلة والغوغاء والاختلاط، لم أكن شيئًا يذكر. كنت أعي مدى تفاهتي كلّ مرّة تتصيّدني ليلة أرق في مكان ما من المهجع. أحسّ قلقًا لا يوصف يوثقني في حلقاته، ويزج بي في ركن من الظلماء، ثمّ يكشف لي شخير، لجلجة ملاءة الأجساد النّاعسة حولي، فأعود من جديد لأنضمّ إلى الركب، وأصبح حجراً من بين أحجار البناء ؛

ويعود كلّ شيء إلى نصابه. كنت الآخرين، أعتمد على الآخرين، أشكل جزءاً لا يتجزأ من طائفة، كان يبدو لي بأنّني سأنسحق خارجها. أخاف من الانفراد بنفسي، وعزلها عن الآخرين، والتيهان على غرار تلك القطرة من الماء التي لا تفيض على البركة إلاّ لتتبخر. كانت تلك هي الحقيقة التي أرادوا تلقينها إيّاي، لا تدرك ولا تتغيّر، مقدسة وكبريتية في آن، مثل النبوءات. والباقي يقع محل اتفاق. كانت الكتابة بالنسبة إليّ بمثابة إله مُخَلّص، وإلاّ كيف تفسر الحمى الغنائية التي تتملكني بمجرد أن أنوء بحمل عبء الخنوع؟ عندما أكتب نصوصًا مغايرة لتلك التي تنظم وضعيتي كبيدق على لوحة شطرنج، كنت أنفر بشكل مغالط من الأمر الواقع، وأغض النّظر عمّا لم أكن أجرؤ على مواجهته؛ نفاق صبيٍّ هجر اللّهو إلى الأبد. كان آخرون قد تحمّلوا مسؤولياتهم ؛ ربّما كانوا يجهلون وجهتهم، لكن كان لهم فضل معرفة ما لا يريدون. أنا كذلك، كنت أعرف ما لا أريد، بخلاف أنّي كنت أجهل ما أريد. طفولة مقصاة، ومراهقة محتجزة، وشباب مُرْتَهن، هكذا كانت المعالم المثالية تأخذ مكانها من أجل تخل معلن. بفقداني الإيمان بالحياة، ضحيت بذلك الذي كان من المفروض أن يجيش في أعماقي. كان ذلك الانتقاص من قيمتي الذي كنت أجهد نفسي في تداركه عبر كتاباتي، يدركني بمجرد أن أضع ريشتي. وجدت نفسي مرة واحدة أمام شخصيتين ؛ الأولى منبهرة، تشهر كلمتها كتذكار نصر أو شعار، لا يبالي بكونه احتياطيًا ؛ والآخر خنوع معقد وذو عقد نفسية، عاجز عن التملص من الأطمار المشينة التي حنطه فيها هجران الأب واستسلام الأمّ، وضياع عائلة، ووحشة شاطئ لا يقلّ قفره من الآمال عن الآفاق الملعونة. من كنت

بالضّبط؟ شاعراً ناشئًا، أم نشوءاً أخرق؟ صبي زقاق رائعًا، أم فتى مستنيراً مبهوراً بلهب احتراقه؟ لا هذا ولا ذاك. كنت الثمرة السّامة لمعضلة، لتهجين مخالف للطبيعة، نتيجة محرجة لصنعة تفاعل كيميائي لا يمكن تصوره. كنت أحمل العار على كتف وأرتجل على الآخر هزة كبرياء ؛ وأكذب على نفسي بكلّ ثقة كي لا أغرق حيث يتموضع الألم.

سألتني أمّي من الغرفة المجاورة عمّا إذا كنت بخير. أجبتها بأنّي عطشان، بأنّ الحرارة تمنعني من النّوم. لم تلح، وعادت إلى النّوم. فتحت النافذة، رغم نهم الناموس وانبعاثات المستنقع النتنة. في الخارج، جلست زمرة من الشباب الآرق تحت عمود إنارة ضامر يسبحون بطالتهم على وقع ضربات الدومينو، بينما كانت مسجلة تنهق على الرصيف. وتردد أغنية قروابي "البارح كان في عمري عشرين". كان صوته المخدوش ينزف في الصمت، وينزّ على الواجهات، ويذوب مع شكواه. لماذا ينبغي أن يستعير أصيل الشباب من أصيل النهار حرائقه ثمّ حداده ؛ لمَ ينبغي أن يكون، للحنين طعم الرماد؟ وأنا ماذا عساي أن أفعل بسنواتي العشرين؟ الهرب من الجندية أم الدخول في الصّفوف؟ من بين هذين الأمرين، أيّهما كان الأحلى؟ عجزت عن الإجابة. ثمّ، لماذا نطرح أسئلة تُحرج الإجابات، وترفض تزكيتها حتى أكثر الأمنيات استحالة، ولا يُسبغ عليها أي يقين روحًا وحياة، لمَ السعي للتأقلم اليوم مع ما لسنا متأكّدين من الإقرار به بعد عشرين سنة؟ هل قمت يومًا، ولو لمرّة واحدة وللحظة واحدة بالتفاوض على منعطف أو تحويل لدرب الحياة؟ ما زلت أجهل سبب مجيئي إلى هذا العالم، والسبب الذي يفرض عليّ على أن أتبع مساراً لا تلتقي معه

طموحاتي البتة. أنا سليل جرح، سليل حزن، وربّما سليل سوء تفاهم بسيط، وكبرت وسط جرح فاغر كما تنبت زهرة النيلوفر فوق المياه العفنة للمستنقع. لم أكن حتى بحاجة إلى ترتيل صلواتي في المساء كي أنام؛ كنت أموت كلّ ليلة، وأبعث كلّ فجر من جديد كي أحاول عبثًا أن أتخلّص من نعاسي. كان هناك جلاء وقتامة يقفان حائلاً بين الصحو المتهور والإغفاء، يشطر توازني، ويهشم عزائمي، ويُغلّط اختياراتي. لم يكن وجودي سوى سلسلة من الإجهاضات، تارة بسبب نمو جنيني منقوص، وتارة أخرى بسبب حلم مطرود؛ وفي كلتا الحالتين، كان استنساخًا لعدم اكتمالي. في البداية، كانت هناك سيارة تتعرج على طرقات تلمسان. ولدت في ذلك اليوم. حياتي الحقيقية انطلقت مع البيجو التي قادتني إلى المشور. لم أكن أقودها. كنت منهاراً على مقعد الميت أنظر إلى أبي وهو يبتعد عن سعادته. هل كان يفكر في الإساءة، هل كان يشكّ في خطورة مبادرته؟ لا أظنّ ذلك. خصوصية جهنّم أنّها معبدة بالنيات الحسنة. لو كان الله يعاقب بشدّة كلّ حسنة آلت إلى سيئة، فأيّ مجال للتصرف كان سيترك للناس؟ بما أنّه لم يكن بحوزتي جحيم أو فردوس، ولا أعرف أين تنتهي الصدفة ويبدأ القدر، فأنا مضطر لأن أسامح، مع يقيني بأنّ دوافع الأشياء تفلت من أخطار مآلها، وبأنّ فشل المبادرة لا ينطوي بأي حال من الأحوال على صواب مشروعيتها... كم من مرّة أساء الناس إليّ وهم ينوون الخير لي؛ امتنعت بتحرّج عن التأوّه إزاء لدغات اللّمسات، وعن تخييب ظن جلاديّ في ممارستهم لنزع الأرواح الشريرة. فيما بعد، عبر الكثيرون عن أسفهم لعدم استشفافهم لحرجي الكامن وراء ابتسامتي" الراضية"؛ هؤلاء يعرفون أنّه ما بين ألمي وألم ذلك الزميل

الذي يدرك حجم الإساءة التي يوجهها إلي دون أن يعلم، فإنّي أفضل ألمي. ذلك هو شأن الحياة، لا أحد يختار أمّه ولا حتى أصدقاءه. نظنّ بأنّنا نخلق عالمنا، في حين أنّنا نتأقلم معه. لسنا سوى أداة في يد أوهامنا. سواء ترحنا أم فرحنا فإنّ خاتمة الشّتاء المفجعة لن تمنع الربيع من الازدهار. الحكيم هو من يتفاوض مع تقلبات الفصول بروح فلسفية. والأقلّ حكمة لن يغيّر فيها شيئًا. العالم يصنع بشيء من كثير، ويجب الكثير من الشجاعة لحفر جورة فيه. لهذا السبب ربّما، كنت قد انزويت في ركني، في ذلك الصباح من خريف 1964، بينما كانت البيجو تلثغ لدرجة تصديع صدغيّ...

غداً، في الصباح الباكر، سأكون قد اتخذت قراري.

في الوقت الحاضر لم تحدوني الرغبة في تخمين ما سيكون عليه الغد.

كان ينبغي ترك الأمور للزمن:

الزمن...

"بمرور الزمن، كلّ شيء يزول"، كما لاحظ ليو فيري... كلّ شيء كلّ شيء يزول تمامًا: الناس، والحضارات وتتشقق الكواكب وتتفتت وتتحول إلى هباء في الغبار الكوني. إلاّ حياة الإنسان، فهي تنتهي من حيث بدأت: في الألم... في حين يبقى الزمن دائم الوجود، دون أدنى خبشة. يدور حول نفسه كحياة أزلية، لكنّه لا يتقدّم ولا يتأخر؛ دواماته تصنع وتجعد الكون والفصول، الأعمار والعصور؛ مازجًا ضروب الوجود والنور، والنوائب والظلمات، ومتجاهلاً إيّاها بكلّ عنجهية. يبقى الزمن بمنأى عن تأنيب الضمير وتلطيخ اليدين. كان هنا قبل اللّيل، وسيبقى هنا بعد الزوال. في الانتظار، ها هو يدور، ويدور؛ يدور على محور إلى نهاية.

الزمن، ما إن يبكل بكلته، حتى ينطلق ثانية. دون ملل. دون كلل. دون اضطراب. دون تجعيدة، ودون ندم. في حين أنّ المذنّبات التي تدور حواليه تهيج وتصلي.

خرجت إلى الفناء. بعد منتصف اللّيل. دخنت سيجارة وراء أخرى، وأنا جالس على جدار واطئ. كان الطقس منعشًا، والنّسيم يعبث خلسة داخل قميصي. خلدت القرية للسّبات. سكتت الكلاب. كنت وحدي في مواجهة مسؤولياتي. كانت النجوم فوق رأسي وأفكاري تستنثر في السحاب ؛ وتلتهب غالبًا الواحدة من أجل الأخرى في عرض المجرّة ؛ كانت لحظات من مشهد خارق لشخوص شبحية في قاعة مظلمة، لكن القلب كان عزوفًا... فيما بعد، وبوقت طويل، في مكان ما من أغوار تينيري - أكبر صحراء في العالم - كنت أتأمّل مطولاً، وأنا منبهر بروعة الصمت والعري، سماء كلّ الغيابات، كقائد مغتر بانفراديته يطارد النيازك بواسطة أمنيات هوجاء، لن أجد أبداً ضمن مجموعات الكواكب السّيارة آثار نجوم طفولتي.

— في الصباح الباكر، ركبت القطار للحاق بمصيري.

طبع هذا الكتاب
بمطبعة موفان - البليدة
أوت 2007

ياسمينة خضرة

الكاتب

رواية ترجمتها من الفرنسية : إنعام بيوض

« إن كان لي أن أرسم وجهاً للقلق، فسوف يكون حتماً وجه أبي. وهذا ينطبق على النحس أيضاً. فقد كان أبي بارعاً في القبض على الحظ ليتركه ينسرب بين أصابعه بكل بلاهة.
كان خاسراً كبيراً. »

في هذا الكتاب، يروي ياسمينة خضرة، إلتحاقه بالمدرسة العسكرية للأشبال بالمشوار ولم يكن عمرهُ يتعدى الستة سنوات، ويروي حيرته وفزعه عندما أصبح مجّرد رقم (129)، ولم يكن باسطاعته الثورة على الأمر الواقع نظراً لصغر سنه.

كما يروي كيف أصبح كاتبا، بعيداً عن أبيه وهو يتألم، ذلك الأب الذي لم يعد يناديه بابا.

وبمناسبة صدور هذا الكتاب سنة 2001
ياسمينة خضرة عن هويته الحقيقية، إنه اليو
عالميا معرف به، وكتب حوالي 15 مؤلفا تر
أكثر من 25 بلداً.

ردمك : 978-9947-851-02-9